

تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤//)

،
// _ عمان: ٢٠١٤.

(ص

ر.أ: (// ٢٠١٤).

الواصفات: // /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN

ردمك

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.



دار الجنان للنشر والتوزيع - عمان - الاردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١ dar_jenan@yahoo.com

تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم

الجزء الثالث

إعداد وتجميع
رقية الغرايبة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ عَن قِبَلِنَا أَلَمْ يَكُنُوا عَلَيْنَا قُلْ

لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى

عَقْبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

﴿١٤٤﴾ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ

وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًّا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَةَ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ

بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِن

حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

وَلَا تَمَنَّيْ عَلَى مَن يَكْفُرُ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٤٢-١٥٠﴾

قال اليهود لا ينسخ الله ما حرمه ولا ينهى عما أمر به فقال تعالى ﴿سَيَقُولُ

السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢]

اليهود تمنع أن ينسخ الله الشرائع أو يبعث رسولا بشريعة تخالف ما قبلها كما أخبر

الله عنهم بقوله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢] (١).

قال سبحانه ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ

قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فأمرنا أن

نطلب منهم إحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في نقل ما يخالف ذلك فإنهم كانوا

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾

[آل عمران: ٧٨] و﴿يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]

ويكذبون في كلامهم وكتابهم فلهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة فإذا احتج أحدهم على

خلاف القرآن برواية عن الرسل المتقدمين مثل الذي يروي عن موسى أنه قال تمسكوا

بالسبت ما دامت السموات والأرض أمكننا أن نقول لهم في أي كتاب هذا أحضروه وقد

علمنا أن هذا ليس في كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب وعندهم النبوات التي هي مثنان

وعشرون وكتاب المثنوي الذي معناه المثناة وهي التي جعلها عبدالله بن عمرو فينا من

أشراط الساعة فقال لا تقوم الساعة حتى يقرأ فيهم بالمثناة ليس أحد يغيرها قيل وما

المثناة قال ما استكتب من غير كتاب الله وكذلك إذا سئلوا عما في الكتاب من ذكر أسماء

الله وصفاته لتقام الحجة عليهم وعلى غيرهم بموافقة الأنبياء المتقدمين لمحمد ﷺ فحرفوا

الكلم عن مواضعه امكن معرفة ذلك كما تقدم وإن ذكروا حجة عقلية فهمت أيضا مما

في القرآن بردها إليه مثل إنكارهم للنسخ بالعقل حتى قالوا لا ينسخ ما حرمه ولا ينهى

عما أمر به فقال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾

[البقرة: ١٤٢] قال البراء بن عازب كما في الصحيحين هم اليهود فقال سبحانه ﴿قُلْ لِلَّهِ

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢١١.

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿البقرة: ١٤٢﴾ فذكر ما في النسخ من تعليق الأمر بالمشيئة الإلهية ومن كون الأمر الثاني قد يكون أصلح وأنفع فقوله ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] بيان للأصلح الأنفع وقوله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] رد للأمر إلى المشيئة وعلى بعض ما في الآية اعتماد جميع المتكلمين حيث قالوا التكليف أما تابع لمحض المشيئة كما يقوله قوم أو تابع للمصلحة كما يقوله قوم وعلى التقديرين فهو جائز ثم أنه سبحانه بين وقوع النسخ بتحريم الحلال في التوراة بأنه أحل لإسرائيل أشياء ثم حرمها في التوراة وأن هذا كان تحليلاً شرعياً بخطاب لم يكونوا استباحوه بمجرد البقاء على الأصل حتى لا يكون رفعه نسخاً كما يدعيه قوم منهم وأمر بطلب التوراة في ذلك وهكذا وجدناه فيها كما حدثنا بذلك مسلمة أهل الكتاب في غير موضع^(١).

فلما سألوا عن سبب التولي عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب

فان قوله ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٥] يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذي هو الله كما في آية القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] فلما سألوا عن سبب التولي عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب^(٢).

أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال

إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١١٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٢٩.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ولا بد ارتباط ومناسبة فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً وقد بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين وأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمر منها أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلاً يجد من نفسه نوع انضمام إليهم واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع ومنها أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان وتحقق ما قطع الله من الموالاتة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً أو ظاهراً أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد ومنها أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكيمة هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له والله أعلم^(١).

كان نسخ ما نسخه الله وإنزل القرآن وانهزام المسلمين يوم أحد رزية في حق من في قلبه مرض

كان نسخ ما نسخه الله وإنزل القرآن وانهزام المسلمين يوم أحد وغير ذلك من

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٢.

مصائب الدنيا رزية في حق من في قلبه مرض قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وإن كانت هذه الأمور في حق من هداه الله مما يزيدهم الله به علما وإيمانا وهذا كوجود الشياطين من الجن والإنس يرفع الله به درجات أهل الإيمان بمخالفتهم ومجاهدتهم مع ما في وجودهم من الفتنة لمن أضلوه وأغووه وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] وقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقول موسى ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقوله ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةَ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٥٢] لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٣] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَعَلَّمَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤] (١).

أنه جعل لكل شرعة ومنهاجا

أن الله شرع في أول الأمر استقبال بيت المقدس موافقة لأهل الكتاب ثم إنه نسخ ذلك وأمر باستقبال الكعبة واخبر عن اليهود وغيرهم من السفهاء أنهم سيقولون ﴿مَا وَلَدْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] وأخبر أنهم لا يرضون عن رسول الله حتى يتبع قبلتهم وأخبره أنه إن اتبع أهواءهم من بعد ما جاءه العلم ماله من الله من ولي ولا نصير وأخبره أنه إن اتبع أهواءهم بعد الذي جاءه من العلم إنه إذن لمن الظالمين وأخبره أن ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وكذلك أخبره في غير موضع أنه جعل لكل شرعة

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٥٧٥.

ومنهاجا فالشعار من جملة الشريعة ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨] (١).

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]

إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو الذي يعطى ويمنع ويخفف ويرفع ويعز ويذل ويغني ويفقر ويضل ويهدي ويسعد ويشقى ويولى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويشرح صدر من يشاء للإسلام ويجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء وهو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاعه وهو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون وهو الذى جعل المسلم مسلما والمصلي مصليا قال الخليل ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال عن آل فرعون ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾ [القصص: ٤١] وقال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] وقال ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧] وقال ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨] والفلك مصنوعة لبني آدم وقد أخبر الله تبارك وتعالى أنه خلقها بقوله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢] وقال ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٧٤.

لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بِيَوْمٍ تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ [النحل: ٨٠] الآيات وهذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] فما بمعنى الذي ومن جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دل على أنه خالق كل صانع وصنعه وقال تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧] وقال ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه وله فيما خلقه حكمة بالغة ونعمة سابغة ورحمة عامة وخاصة وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا لمجرد قدرته وقهره بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته فإنه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد أحسن كل شيء خلقه وقال تعالى ﴿وَرَزَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨] وقد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿١٦٦﴾﴾ [المائدة: ١٦٦] ^(١).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣]

انه لما صرف القبلة وامرهم باستقبال الكعبة بعد ان كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس فقال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] أى صلاتكم إلى بيت المقدس فبين سبحانه ان من عمل بطاعة الله أثابه الله على ذلك وإن نهى عن ذلك في وقت آخر ومن استحل ما لم يحرمه لم يكن عليه جناح إذا كان من المؤمنين المتقين وإن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨.

حرم الله ذلك في وقت آخر^(١).

مسائل فقهيه

١ - يجوز أن يكون في آيات الله ناسخ ومنسوخ فيعارض منسوخه بناسخه

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] وفي قوله ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ [غافر: ٥٦] بيان أنه لا يجوز أن يعارض كتاب الله بغير كتاب الله لا بفعل احد ولا أمره لا دولة ولا سياسة فإنه حال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهاهم ولكن يجوز أن يكون في آيات الله ناسخ ومنسوخ فيعارض منسوخه بناسخه كما قال تعالى ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] وكما قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِفُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] ونظائره متعددة^(٢).

٢ - ان استقبال الكعبة البيت الحرام شرط لجواز الصلاة وصحتها

ان استقبال الكعبة البيت الحرام شرط لجواز الصلاة وصحتها وهذا مما اجمعت الامة عليه والاصل فيه قوله سبحانه وتعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢] إلى قوله ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] والآيات واستدل بعض اصحابنا من القران على ذلك بقوله ايضا ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] وقوله تعالى ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ رَبِّهِمْ مُّصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقد كان النبي ﷺ والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس وكان ﷺ يجعل الكعبة بينه وبينها محبة منه لقبلة ابراهيم فلما هاجر صلوا إلى بيت المقدس

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٧٩.

ستة عشر شهرا وبعض اخر ثم حولت القبلة إلى الكعبة فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال
 بينما الناس بقباء في صلاة الصبح اذ جاءهم ات فقال ان النبي ﷺ قد انزل عليه الليلة
 قران وقد امر ان يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى
 الكعبة والاحاديث في ذلك مشهورة متواترة وقال ﷺ للاعرابي المسيء في صلاته إذا
 قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر متفق عليه وعن انس بن مالك
 قال قال رسول الله ﷺ من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم له
 ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله في ذمته رواه البخاري ان استقبال القبلة يسقط مع العلم
 بجهتها في موضعين احدهما إذا عجز عن استقبالها خوفا ان استقبالها من عدو أو سيل أو
 سبع بان يهرب من العدو المباح هربه منه أو يسايفه العدو الذي يباح له ان يسايفه واما
 ان يكون مربوطا إلى غير القبلة أو يكون بين حائطين ولا يمكنه الاستدارة إلى القبلة واما
 بان يكون مريضا لا يجد من يديره فانه في هذه الحال لا يتعين عليه استقبال جهة الكعبة
 بل أي جهة قدر على الصلاة اليها فهي قبلته لأن في حديث ابن عمر فان كان خوف
 وأشد من ذلك صلوا قياما على اقدامهم أو ركبائهم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها قال
 نافع لا ارى عبد الله ابن عمر ذكر ذلك الا عن النبي ﷺ هكذا رواه البخاري ورواه ابن
 ماجه مرفوعا إلى النبي ﷺ من غير تردد ولأن عبد الله بن انيس لما بعثه النبي ﷺ لقتل خالد
 بن سفيان الهذلي صلى ماشيا بالايماء إلى غير الكعبة وهذا لأن الله سبحانه وتعالى يقول
 ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وهذه
 الاية تعم جميع المصلين لكن نسخ منها أو خص منها القادر فيبقى حكمها في العاجز كما
 جاء في الحديث ولأن الله لا يكلف نفسا الا وسعها فاذا تضرر باستقبال القبلة الكعبة
 كان ان يصلي إلى جهة اخرى أولى من تفويت الصلاة فان قيل فهلا أوجبتم الاعادة على
 المربط ونحوه لانه ترك الشرط لعذر نادر غير متصل كمن صلى بلا ماء ولا رتاب
 وكالعاجز عن إزالة النجاسة قلنا قد قال ابن أبي موسى من كان مصلوبا على خشبة
 مستدبر القبلة أو محبوسا في موضع نجس لا يجد وضوءا ولا يقدر على التيمم صلى على
 حاله يومئذ ايماء ويعيد إذا قدر على الوضوء في احدي الروايتين فقد جعلهما سواء واما
 غيره فلم يوجب الاعادة بحال اما على احدي الروايتين فان جميع الشرائط تسقط بالعجز

من غير اعادة واما على الرواية الاخرى فان القبلة اشبه بالسترة منها بالطهارة ولهذا فرق فيها بين الفرض والنفل كما فرق في السترة عندنا فاذا سقطت السترة فالقبلة الاولى لانها اخف فان سائر الجهات عوض عن جهة الكعبة عند العجز عنها بدليل قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللّٰهِ﴾ [البقرة: ١١٥] والشرط إذا كان له بدل لم تجب الإعادة بالعجز عنه كالوضوء ولأن الطهارة أوكد الشروط واستقبال الكعبة اخف الشروط لهذا سقطت في النافلة على الراحلة فصارت بمنزلة القيام في الاركان فلا يصح الحاق احدهما بالآخر الموضوع الثاني في صلاة النافلة في السفر وهو مجمع عليه لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يسبح على راحلته قبل أي وجه توجه ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة متفق عليه وعن ابن عمر قال كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعا اينما توجهت به وهو جآي من مكة إلى المدينة وقرا ابن عمر هذه الآية ﴿وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وَّاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] وقال ابن عمر في هذا انزلت هذه الآية رواه احمد ومسلم والنسائي والترمذي صححه وعن عامر بن ربيعة قال رايت رسول الله ﷺ وهو على راحلته يسبح يومئ برأسه قبل أي وجه توجه ولم يكن يصنع ذلك في الصلاة المكتوبة متفق عليه وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ان النبي ﷺ كان يصلي على راحلته تطوعا حيث توجهت به في السفر فاذا اراد ان يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة رواه أحمد والبخاري وهذا في الحقيقة يعود إلى المعنى الأول لأن المسافر اكثر أوقاته سائر وإذا كان سائرا لا يمكنه التنفل إلى جهة قصده أو ان يبطل سفره وفي ابطال السفر ضرر عليه فصار عاجزا عن النافلة الا على هذا الوجه بخلاف المكتوبة فان زمنها يسير ولا فرق في ذلك بين السفر الطويل والقصير لأن احتياج الانسان إلى التطوع في السفر القصير كاحتياجه اليه في الطويل فاما الراكب السائر في المصر فلا يجوز ذلك في المشهور عنه وعنه يجوز له ذلك كما يجوز له في السفر ووجه الأول ان ذلك لم ينقل عن النبي ﷺ ولا هو في معنى المنقول عنه لأن المسافر لو لم يجز له التطوع لافضى إلى ترك التنفل فان اغلب أوقاته يكون سائرا بخلاف المقيم في الحضر فان

اغلب أوقاته المكث فلا يفضي منعه إلى تعطيل التطوع في حقه^(١).

٣- فان كان قريبا منها لزمته الصلاة إلى عينها وان كان بعيدا فالجاء جهتها

مسألة فان كان قريبا منها لزمته الصلاة إلى عينها وان كان بعيدا فالجاء جهتها وجملة ذلك ان الناس في القبلة على قسمين احدهما من يمكنه استقبال عين الكعبة وذلك على ثلاثة أوجه احدها ان يكون بحيث يراها مثل أن يكون داخل المسجد أو خارجا عنه وهو ينظرها فعليه ان يستقبلها بجميع بدنه حتى لا يخرج شيء منه عنها وان خرج شيء منه عنها لم تصح صلاته نص عليه الثاني ان يعلم ذلك لكونه من اهل البلد وقد نشأ فيه سواء كان بينه وبينها حوائل حادثة أو لم يكن فإنه من طال مقامه بمكان ثم مكة علم أين تكون القبلة منه الثالث أن يخبره بذلك ثقة من أهل البلد لكونه غريبا أو بينه وبينها حائل وعلى الحائل من يخبره بذلك فإن الإخبار بالأخبار كالأخبار بدخول الوقت عن علم فإن هذا الخبر لا يدخله الخطأ وجواز الكذب من الثقة غير ملتفت اليه في مثل هذا قال اصحابنا وحكم من كان بمدينة النبي ﷺ حكم من كان بمكة لأن قبلته متيقنة الصحة لانه لا يقر على الخطأ القسم الثاني البعيد فهذا فرضه الاستدلال والاجتهاد لكن هل الواجب عليه طلب العين أو طلب الجهة على روايتين احدهما ان فرضه طلب العين فمتى غلب على ظنه أنه مستقبل العين اجزاه ذلك وان تبين له أنه اخطأها فيما بعد ذلك أو انحراف عنها انحرافا يسيرا وهذا اختيار أبي الخطاب لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] وقال ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَقَةَ أَيْمَنَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] وقد روى ابن عباس ان النبي ﷺ دخل البيت ثم خرج فركع ركعتين في قبل الكعبة وقال هذه القبلة متفق عليه وفي حديث اخر أنه عد الكبائر وذكر منها استحلال الكعبة البيت الحرام قبلتكم احياء وامواتا وإذا كان نفس الكعبة هي القبلة فيجب عليه ان يستدل على قبلته بحسب الامكان ولا يكفيه مجرد التوجه إلى جهتها لأن المستقبل لجهتها قد لا يكون مستقبلا لها ولانه مخاطب باستقبال الكعبة فوجب عليه ان يقصد عينها حسب الطاقة كالقريب وذلك لانهما لا يفترقان في

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٢١-٥٢٦.

فرض استقبال الكعبة وإنما يفترقان في أن ذلك متيقن للصواب على التحديد وهذا مجتهد في الاصابة على التقريب ولأن المسافر يلزمه حين اشتباه الجهات تحري جهة الكعبة فكذلك العالم بجهة الكعبة يلزمه تحري جهة سمت الكعبة حسب الطاقه وان كان على وجه التقريب والتخمين وعلى هذه الرواية متى تيامن أو تياسر عن صوب اجتهاده لم تصح صلاته لانه يغلب على ظنه أنه منحرف عن قبلته فاشبهه القريب بخلاف ما إذا توسط الجهة وتحري نفس البيت والرواية الثانية ما ذكره الشيخ رحمه الله ان فرضه اصابة الجهة فلو تيامن أو تياسر شيئاً يسيراً ولم يخرج عن الجهة جاز واكثر الروايات عن احمد تدل على هذا ولهذا انكر وجوب الاستدلال بالجدى وقال إنما الحديث ما بين المشرق والمغرب وهذا اختيار الخرقى وجماهير اصحابنا لأن الله سبحانه قال ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] والمسجد الحرام اسم للحرم كله وشطره نحوه واتجاهه فعلم ان الواجب تولية الوجه إلى نحو الحرم والنحو هو الجهة بعينها ثم قال بعد ذلك ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] والوجهة الجهة فعلم ان الواجب تولي جهة المسجد الحرام وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما بين المشرق والمغرب قبلة رواه ابن ماجة والترمذي وقال حديث صحيح وروي ذلك من حديث أبي قلابة عن النبي ﷺ وروي ايضا مسندا من حديث ابن عمر وغيره وقال ﷺ لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا وهذا بيان لأن ما سوى التشريق والتغريب استقبال للقبلة أو استدبار لها وهذا خطاب لاهل المدينة ومن كان على سمتهم وقريبا من سمتهم اهل الشام والعراق واليمن ونحوهم دون من كانت إلى الركن الاسود أو الركن الغربي وما يقرب منهما من اهل المشرق والمغرب الذين مساكنهم بين شام الارض ويمناها على مسامطة مكة وما يقارب ذلك ولأن ذلك اجماع الصحابة رضي الله عنهم قال عمر ما بين المشرق والمغرب قبلة كله الا عند البيت رواه أبو حفص وذكره احمد وقال ما بين المشرق والمغرب قبلة الا عند البيت فهذا لا يكون ثم لأنه يأتى بالبيت كيف دار وان صلى قريبا من الركن فزال عن الركن قليلا ترك القبلة فمكة غير البلدان وفي رواية إذا توجهت قبل البيت وروى الاثر عن عمر وعلي وابن عباس انهم قالوا ما بين المشرق والمغرب

قبلة وعن عثمان أنه قال كيف يخطي الرجل الصلاة وما بين المشرق والمغرب قبلة ما لم يتحر المشرق عمدا وروى أبو حفص عن ابن عمر قال إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة لاهل المشرق يعني به اهل العراق ونحوهم وروى أبو حفص عن المطلب بن حنطب ان رسول الله ﷺ قال ما بين المشرق والمغرب قبلة إذا وجهت وجهك نحو البيت الحرام يعني والله اعلم إذا وجهت وجهك قبله وتجاهه وذلك يحصل باستقبال جهته كما في قوله تعالى ﴿قُولُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي نحوه وتلقاه و اراد ان يبين ﷺ أنه لا بد من قصد جهتها وايضا فانهم اجمعوا على صحة صلاة الصف المستطيل الزائد طوله على سمة الكعبة مع استقامته بل على صحة صلاة اهل البلد الذي فيه مساجد كثيرة تصلى كلها إلى جهة واحدة مع انها يمتنع ان تكون قبلتها على خط مستقيم وهي كلها على سمت عين الكعبة فان قيل مع البعد تحصل المواجعة والمحاذاة لكل واحد مع كثرة المحاذين وطول صفهم لأن المحاذي مع البعد وان احتاج إلى تقوس وانحناء فهو مع البعد شيء يسير لا يظبط مثله قلنا لو كان المفروض محاذاة نفس العين لوجب مراعاة ذلك الشيء اليسير من الانحناء مع القدرة وان لا يعتمد تركه كما في القريب فمتى سلم جواز تعمد تركه فلا يعني باستقبال جهة الكعبة الا ذلك فيرتفع الخلاف وهذا المعنى هو الفارق بين القريب والبعيد فان البعد إذا طال يكون المستقبل للجهة والعين متقاربتين جدا حتى لا يكاد يميز بينهما ومثل هذا يعني عنه كما عفونا عن سائر الشرائط عما يشق مراعاته مثل يسير النجاسة ويسير العورة والتقدم اليسير بالنية وشبه ذلك فان الدين ايسر من تكلف هذا وقد روي عن النبي ﷺ من وجهين فيهما أنه قال البيت قبلة لاهل المسجد والمسجد قبلة لاهل الحرم والحرم قبلة لاهل الارض في مشارقها ومغاربها من أمتي^(١).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

الوسط العدل

أخبرنا الإمام تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٣٥ - ٥٤٠.

قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ٦٦٩ أخبرنا أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي قراءة عليه أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمى أخبرنا أبو الحسين طاهر بن أحمد بن علي بن محمود الحمودى العانى أخبرنا أبو الفضل منصور بن نصر بن عبد الرحيم بن بنت الكاغدى حدثنا أبو عمرو الحسن بن علي بن الحسن العطار حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير بن الحارث القيسى حدثنا وكيع ابن الجراح بن مليح الرواسى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمه فذلك قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال الوسط العدل مولده سنة ٥٨٩ توفى في صفر سنة ٦٧٢^(١).

يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين

قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي آخر الحج مثلها وقد ثبت في صحيح البخارى عن ابى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمه فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ وكذلك في الصحيحين من حديث انس في شهادتهم على تلك الجنازتين وأنهم أثنوا على احدهما خيرا وعلى الأخرى شرا فقال أنتم شهداء الله في حديث ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التى جعلها الله لأهل السنة قال النبى ﷺ فيهم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٧٩-٨٠.

وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين^(١).

أن ملة الإسلام وسط في الملل

أن ملة الإسلام وسط في الملل فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين لم يغلوا فيهم كما غلت النصرارى فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا بل المؤمنون آمنوا برسول الله وعزروه ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابًا كما قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠] ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة كما تقوله النصرارى ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله فلم يجرموا على الله أن ينسخ ما شاء ويمحو ما شاء ويثبت كما قالت اليهود كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٢] وبقوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١] ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله فيأمروا بما شأوا وينهوا عما شأوا كما يفعله النصرارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال عدي بن

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣١٣.

حاتم رضي الله عنه قل يا رسول الله ما عبدوهم قال ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم والمؤمنون قالوا لله الخلق والأمر فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره وقالوا سمعنا وأطعنا فأطاعوا كل ما أمر الله به وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما وكذلك في صفات الله تعالى فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق^(١).

قال بعض العلماء المعطل (يقصد المعطل لصفات الله سبحانه) يعبد عدما والممثل يعبد صنما المعطل أعمى والممثل أعشى ودين الله بين الغلبي فيه والجاافي عنه وقد قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والسنة في الإسلام كالإسلام في الملل^(٢).

أن ملة الإسلام وسط في العبادة

فمن كان على دينه الذي لم يبدل قبل أن يبعث أو بقي على ذلك إلى أن بعث محمد فأمن به فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون وكذلك من كان على دين موسى الذي لم يبدل إلى أن بعث المسيح فأمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون إلى غلو ولا إلى تقصير وأما اليهود والنصارى فهم على طرفي نقيض هؤلاء ينحرفون إلى جهة وهؤلاء إلى الجهة التي تقابلها كما ذكرنا تقابلهم في النسخ وكذلك تقابلهم في التحريم والتحليل والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون في اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها ولا يساكنونها ولا يجامعونها وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الأصار والأغلال التي كانت عليهم وأما النصارى ففي مقابلتهم تجددت عامتهم لا يرون شيئا حراما ولا نجسا إلا ما كرهه الإنسان بطبعه ويصلون مع الجنابة والحدث وحمل النجاسات ويأكلون الخبائث كالدم والميتة ولحم الخنزير إلا من كره منهم شيئا فتركه والمسلمون وسط كما قال تعالى فيهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٦١.

[البقرة: ١٤٣] أي عدلاً خياراً ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى مأموراً بترك ذلك الإنحراف واتباع الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً غير المغضوب عليهم كاليهود وغير الضالين كالنصارى وذلك مثل من يبالي في اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله ويأخذه الوسواس في اجتناب النجاسات ويحرم طيبات أحلها الله للمسلمين مثل من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا بغيره أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثر فالحل نجس إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره أو يرى أن الطيبات التي أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال وإن كان قد كان خيراً باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته أو يرى أن الماء الطيب والمائعات الطيبة التي ليس فيها أثر من الخبيث حرام لكون الخبيث لاقاها أو استهلك فيها مع انها من الطيبات لا من الخبائث أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذي هو أذى إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء ولكن غيرهم نازعهم في ذلك واتباع ما دل عليه الكتاب والسنة وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين ويرى نجاسة الكفار كما عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه وثيابه وحصر بيته بتوهم نجاستها أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها أو يمنع الجنب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود وأما من يشبه النصارى فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ولا يصلي من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات كالحمام والآتاتين والمزابل وهو متلوث بالبول والعدرة ويعاشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة بل ولا يصلي أو يصلي بلا وضوء وقد علم بالأضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد وأن الوضوء من الحدث والاعتسال من الجنابة فرض لا يصلي إلا به مع القدرة ولا يتيمم مع القدرة فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين^(١).

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٣٦-١٣٩.

أن ملة الإسلام وسط في الشريعة

إن شريعة التوراة تغلب عليها الشدة وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال في وصف أمته ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فوصفهم بالرحمة للمؤمنين والذلة لهم والشدة على الكفار والعزة عليهم وكذلك كان صفة محمد نبيهم أكمل النبيين وأفضل الرسل بحيث قال أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة وأنا نبي التوبة وأنا الضحوك القتال فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة وأنه نبي الملحمة وأنه الضحوك القتال وهذا أكمل ممن نعت بالشدة والبأس غالباً أو باللين غالباً ففي شريعته من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل وفيها من الشدة والجهاد وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين أعظم مما في التوراة وهذا هو غاية الكمال ولهذا قال بعضهم بعث موسى بالجلال وبعث عيسى بالجمال وبعث محمد بالكمال^(١).

وفي كونهم وسطاً حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضوع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم^(٢).

الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة

عامّة الأمراء إنما أحدثوا أنواعاً من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها وعقوبات على الجرائم لا تجوز لأنهم فرطوا في المشروع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلا فلو قبضوا ما يسوغ قبضه ووضعوه حيث يسوغ وضعه طالبين

(١) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٧٩.

(٢) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٨.

بذلك إقامة دين الله لا رياسة أنفسهم وأقاموا الحدود المشروعة على الشريف والوضيع والقريب والبعيد متحرين في ترغيبهم وترهيبهم للعدل الذي شرعه الله لما احتاجوا إلى المكوس الموضوعة ولا إلى العقوبات الجائرة ولا إلى من يحفظهم من العيب والمستعبدين كما كان الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من أمراء بعض الأقاليم وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله ﷺ وهي سنته لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس ولميزوا حيثئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] (١).

فإن مجموع الأمة أمة وسطا

والاحكام المرتبة على الأسماء العامة نوعان أحدهما ما يثبت لكل فرد من أفراد ذلك العام سواء قدر وجود الفرد الآخر أو عدمه والثاني ما يثبت لمجموع تلك الأفراد فيكون وجود كل منها شرطا في ثبوت الحكم للآخر مثال الأول قوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ [المائدة: ٦] ومثال الثاني قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] فإن الخلق ثابت لكل واحد من الناس وكلا منهم مخاطب بالعبادة والطهارة وليس كل واحد من الأمة أمة وسطا ولا خير أمة ثم العموم المقابل بعموم آخر قد يقابل كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كما في قوله ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فإن كل واحد من المؤمنين آمن بكل واحد من الملائكة والكتب والرسول وقد يقابل المجموع بالمجموع بشرط الاجتماع منهما كما في قوله ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي قَاتَا ﴾ [آل عمران: ١٣] فإن الالتقاء ثبت لكل منهما حال اجتماعهما وقد يقابل شرط

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٨١.

الاجتماع من أحدهما كقوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فإن مجموع الأمة خير للناس مجتمعين ومنفردين وقد يقابل المجموع بالمجموع بتوزيع الأفراد على الأفراد فيكون لكل واحد من العموميين واحد من العموم الآخر كما يقال لبس الناس ثيابهم وركب الناس دوابهم فان كل واحد منهم ركب دابته ولبس ثوبه وكذلك إذا قيل الناس يجيئون أولادهم أى كل واحد يجب ولده ومن هذا قوله سبحانه ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أى كل والدة ترضع ولدها بخلاف ما لو قلت الناس يعظمون الأنبياء فان كل واحد منهم يعظم كل واحد من الأنبياء^(١).

قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح وقد قال ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها في قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس كالشهادة المذكورة في قوله ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] وقوله ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وليست هذه الشهادة المطلقة في الآيتين بل ذلك كقوله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]^(٢).

﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]
والرسل هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وامره ونهيه ووعدته ووعيده كما قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦] وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ١٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٨.

وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] فاخبر انه ارسله شاهدا كما قال ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وقال ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ولما دفن النبي ﷺ شهداء احد قال اما انا فشهيد على هؤلاء وقوله مبشرا ونذيرا بالوعد والوعيد وداعيا إلى الله باذنه بالامر والنهي^(١).

وجعل الله أمة محمد شهداء على الناس يشهدون عليهم بما علموه من الحق إذ كانوا وسطا عدلا لا يشهدون بباطل فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا بخلاف من جار في شهادته فزاد على الحق أو نقص منه كشهادة اليهود والنصارى في المسيح^(٢).

والشهادة خاصة هذه الأمة التي ميزت بها

أن الصدق ركن الشهادة الخاصة عند الحكام التي هي قوام الحكم والقضاء والشهادة العامة في جميع الأمور والشهادة خاصة هذه الأمة التي ميزت بها في قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وركن الاقرار الذي هو شهادة المرء على نفسه وركن الأحاديث والأخبار التي بها يقوم الإسلام بل هي ركن النبوة والرسالة التي هي واسطة بين الله وبين خلقه وركن الفتيا التي هي إخبار المفتي بحكم الله وركن المعاملات التي تتضمن اخبار كل واحد من المتعاملين للآخر بما في سلعته وركن الرؤيا التي قيل فيها أصدقهم رؤيا أصدقهم كلاما والتي يؤتمن فيها الرجل على ما رأى^(٣).

أنتم شهداء الله في الارض

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ﴾

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٥٣٨.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٣٠١.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٧٦.

[الأعراف: ٣] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام: ١٥٥] واما السلف مثل قوله ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقوله ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لأن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمان لقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ومنها قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] أمر بسؤاله الهداية إلى صراطهم وقال ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] الآية وفيها الدلالة ومنها قوله ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] والسلف المؤمنون منيونيون اى فيجب اتباع سبيلهم ومنها قوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وقال قوم عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] في آل عمران والمائدة لان لنا الشاهدة ولهم العبادة بلا شهادة والامة الوسط العدل الخيار والشهداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول ولهذا قال في الجنابة وجبت وجبت وقال أنتم شهداء الله في الارض وقال توشكوا ان تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيء فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الاشخاص والأفعال ولو كانوا قد يشهدون بما

ليس بحق لم يكونوا شهداء مطلقاً^(١).

اما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة ولله الحمد على ضلالة وهنا أصل يجب اعتماده وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم أحادها من الخطأ لا صديقاً ولا غير صديق لكن إذا وقع بعضها في خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك الخطأ لأن هذه الأمة شهداء على الناس وهم شهداء الله في الارض وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأولاً فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها أعدائهم فباطل بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عدداً وأدنى منزلة لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله فإنه بذلك أمرت الأمة^(٢).

الله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وإنما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢] واما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة ولله الحمد على ضلالة كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة فقال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك في قوله ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وبذلك وصف المؤمنين في قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فلو قالت الامة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠٠ - ٥٠١.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٣٠٠.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
 [البقرة: ١٤٣] والوسط العدل الخيار وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم
 مقام شهادة الرسول وقد ثبت في الصحيح أن النبي مر عليه بجزارة فاثنوا عليها خيرا فقال
 وجبت وجبت ثم مر عليه بجزارة فاثنوا عليها شرا فقال وجبت وجبت قالوا يارسول الله
 ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجزارة أثنتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه
 الجزارة أثنتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض فإذا كان الرب
 قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فإذا شهدوا ان الله أمر بشيء فقد أمر به وإذا شهدوا
 أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء
 الله في الأرض بل زكاهم الله في شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا
 يقولون عليه إلا الحق وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا بالحق وقال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ
 مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [نجم: ١٥] والأمة منية إلى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى
 ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَنْتَظِرُونَ﴾
 [التوبة: ١٠٠] فرضي عن اتباع السابقين إلى يوم القيامة فدل على ان متابعتهم عامل
 بما يرضى الله والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل وقال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ
 بَعْدِ مَا نَبَّيْنَاهُ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾
 [النساء: ١١٥] وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يثرها عنه كثيرا قال سن
 رسول الله وولاية الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله
 ومعونة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأى من خالفها فمن خالفها واتبع
 غير سبيل المؤمنين ولاه الله تعالى ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيرا والشافعي رضى
 الله عنه لما جرد الكلام في أصول الفقه احتج بهذه الآية على الاجماع كما كان هو وغيره
 ومالك ذكر عن عمر ابن عبد العزيز^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٧٧-١٧٩.

فالإجماع دليل على النص

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ فالإجماع دليل على النص لهذا قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] فعلق الوعيد بمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فلماذا علقه بهما كما كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف نجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النص وأيضا فقوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] والاستدلال به كما تقدم وأيضا فقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] ومن جعلهم الرب شهداء على الناس فلا بد أن يكونوا عالمين بما يشهدون به ذوي عدل في شهادتهم

فلو كانوا يجللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويوجبون ما عفا الله عنه ويسقطون ما أوجبه الله لم يكونوا كذلك وكذلك إذا كانوا يجرحون الممدوح ويمدحون المجروح فإذا شهدوا أن أبا بكر أحق بالإمامة وجب أن يكونوا صادقين في هذه الشهادة عالين بما شهدوا به وكذلك إذا شهدوا أن هذا مطيع لله وهذا عاص لله وهذا فعل ما يستحق عليه الثواب وهذا فعل ما يستحق عليه العقاب وجب قبول شهادتهم فإن الشهادة على الناس تتناول الشهادة بما فعلوه من مذموم ومحمود والشهادة بأن هذا مطيع وهذا عاص هي تتضمن الشهادة بأفعالهم وأحكام أفعالهم وصفاتهم وهو المطلوب وفي الصحيحين عن عمر أن النبي ﷺ مر عليه بجنائز فأتوا عليها خيرا فقال وجبت ومر عليه بجنائز فأتوا عليها شرا فقال وجبت فقلت يا رسول الله ما قولك وجبت قال هذه الجنائز أثنتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنائز أثنتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أتم شهداء الله في الأرض وفي المسند عن النبي ﷺ أنه قال يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قالوا بئ يا رسول الله قال بالثناء الحسن وبالثناء السيء^(١).

نحن نشهد على الأمم بما علمناه من جهة نبينا كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٢).

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

وأما شهادته للمؤمنين فهو أنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ويخبر به عن ربه فهو إذا شهد كان شاهدا من الله وأما شهادته عليهم بالآيمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٣).

لأنبياء يشهدون على أممهم^(٤).

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٥٥ ومنهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٧.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٥٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٨٤.

(٤) القواعد النورانية ج: ٣ ص: ٣٧٨.

القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة إمتحن
الله بها الناس

أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما استفاض به النقل عند أهل
العلم بالحديث والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك
لأسباب منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة إمتحن
الله بها الناس قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ
عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال أى اذا حولت والمعنى
أن الكعبة هى القبلة التى كان فى علمنا أن نجعلها قبلتكم فان الكعبة ومسجدها وحرمتها
أفضل بكثير من بيت المقدس وهى البيت العتيق وقبلة ابراهيم وغيره من الانبياء ولم يأمر
الله قط أحدا أن يصلى إلى بيت المقدس لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما فلم نكن
لنجعلها لك قبلة دائمة ولكن جعلناها أولا قبلة لنتحن بتحويلك عنها الناس فيتبين من
يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه فكان فى شرعها هذه الحكمة^(١).

وعامة من يستشكل الآيات الواردة فى هذا المعنى كقوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾
[البقرة: ١٤٣] يتوهم ان هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون

وعامة من يستشكل الآيات الواردة فى هذا المعنى كقوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]
﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] يتوهم ان هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون وهذا جهل فان
القران قد اخبر بأنه يعلم ما سيكون فى غير موضع بل ابلغ من ذلك انه قدر مقادير
الخلايق كلها وكتب ذلك قبل ان يخلقها فقد علم ما سيخلقه علما مفصلا وكتب ذلك
واخبر بما اخبر به من ذلك قبل ان يكون وقد اخبر بعلمه المتقدم على وجوده ثم لما خلقه
علمه كائنا مع علمه الذي تقدم انه سيكون فهذا هو الكمال وبذلك جاء القران فى غير
موضع بل وبإثبات رؤية الرب له بعد وجوده كما قال تعالى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَىٰ يَوْمَ اللَّهِ ۚ عَمَلِكُمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٧٩.

وَرَسُولُهُ ﴿التوبة: ١٠٥﴾ فأخبر انه سيرى اعمالهم وقد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الامة ودلائل العقل على انه سميع بصير والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم فاذا خلق الاشياء راها سبحانه واذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم كما قال تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] أي تشتكي اليه وهو يسمع التحاور والتحاور تراجع الكلام بينها وبين الرسول قالت عائشة سبحان الذي وسع سمعه الاصوات لقد كانت المجادلة تشتكي إلى النبي ﷺ في جانب البيت وانه ليخفي على بعض كلامها فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] وكما قال تعالى لموسى وهارون ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَارَى﴾ [طه: ٤٦] وقال ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد ان يكون في بضعة عشر موضعا في القران مع اخباره في مواضع اكثر من ذلك انه يعلم ما يكون قبل ان يكون وقد اخبر في القران من المستقبلات التي لم تكن بعد بما شاء الله بل اخبر بذلك نبيه وغير نبيه ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء بل هو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف كان يكون كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] بل وقد يعلم بعض عباده بما شاء ان يعلمه من هذا وهذا وهذا ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَقَى الْجَمْعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧] وقوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ [التوبة: ١٦] وقوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وقوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ٣] إلى قوله ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] وقوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وغير ذلك من المواضع روى عن ابن عباس في قوله الا لنعلم أي لنرى وروي لتمييز وهكذا قال عامة المفسرين الا لنرى وتمييز وكذلك قال جماعة من اهل العلم قالوا لنعلمه موجودا واقعا بعد ان كان قد علم انه سيكون ولفظ بعضهم قال العلم على منزلتين علم بالشيء قبل وجوده وعلم به بعد وجوده والحكم للعلم به بعد وجوده لانه يوجب الثواب والعقاب قال فمعنى قوله لنعلم أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب ولا ريب انه كان عالما سبحانه بأنه سيكون لكن لم يكن المعلوم قد وجد وهذا كقوله ﴿قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] أي بما لم يوجد فانه لو وجد لعلمه فعلمه بأنه موجود ووجوده متلازمان يلزم من ثبوت احدهما ثبوت الآخر ومن انتفائه انتفأوه^(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

فأما إثبات علمه وتقديره للحوادث قبل كونها ففي القرآن والحديث والآثار ما لا يكاد يحصر بل كل ما أخبر الله به قبل كونه فقد علمه قبل كونه وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وقد أخبر بذلك والنزاع في هذا مع غلاة القدرية ونحوهم وأما المستقبل فمثل قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٢).

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٦٥.

(٢) رسالة في تحقيق مسألة علم الله ج: ١ ص: ١٨٣.

العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده

وهو سبحانه لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء ولا يعلم أحد لانبى ولا غيره إلا ما علمه الله وقال الخضر لموسى إنني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ولما نقر العصفور في البحر قال له ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر وهو سبحانه القائل في حق موسى ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢] ونحو ذلك فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب والأول هو العلم بأنه سيكون ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا لنري وكذلك المفسرون قالوا لنعلمه موجودا بعد أن كنا نعلم سيكون وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار منهم من يقول المتجدد هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم فقط وتلك نسبة عدمية ومنهم من يقول بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون وهذا كما في قوله ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] فقد أخبر بتجدد الرؤية فقيل منسبة عدمية وقيل المتجدد أمر ثبوتى والكلام على القولين ومن قال هذا وهذا وحجج الفريقين قد بسط في موضع آخر وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتى كما دل عليه النص وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبى على نفيه فإنه كان يقول بقول ابن كلاب فر من تجدد أمر ثبوتى وقال بلوازم ذلك فخالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة إقتضت أن يهجره الإمام أحمد ويحذر منه وقد قيل أن الحارث رجع عن ذلك والمتأخرون من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة على قولين منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث وهذا مبسوط في موضعه والمقصود

هنا أن تقدم علم الله وكتابته لأعمال العباد حق والقول بحدوث ذلك قول مهجور كما قاله الناظم إن كان قد أراد ذلك وليس في ذلك ما ينافي أمر الله ونهيه فإن كونه خالقا لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي فكيف العلم المتقدم وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبورا لا قدرة له ولا فعل كما تقوله الجهمية المجبرة^(١).

إن الله سمي الصلاة إيمانا

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال وتبين ذلك من وجوه نذكر بعضها

مما انتزعه الإمام أحمد وغيره أحدها إن الله سمي الصلاة إيمانا بقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس لأن الصلاة تصدق عمله وقوله وتحصل طمأنينة القلب واستقراره إلى الحق ولا يصح إن يكون المراد به مجرد تصديقهم بفرض الصلاة لأن هذه الآية نزلت فيمن صلى إلى بيت المقدس ومات ولم يدرك الصلاة إلى الكعبة ولو كان مجرد التصديق لشركهم في ذلك كل الناس وفي يوم القيامة فإنهم مصدقون بأن الصلاة إلى بيت المقدس إذ ذاك كانت حقا ولم يتأسفوا على تصديقهم بفرض معين لم يترك كما لم يتأسفوا على ترك تصديقهم بالحج وغيره من الفرائض ولم يكن اعتماد تصديقهم بالصلاة فقط أولى من تصديقهم بجميع ما جاء به الرسول هذا مع أنه خروج عما عليه أهل التفسير وعما يدل عليه كلام الباري لأن الله افتتح أعمال المفلحين بالصلاة فقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] وختمها بالصلاة فقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]^(٢).

في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال قلت للنبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني وثبت أيضا في الصحيحين عنه أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله وجهاد في سبيله ثم الحج المبرور ولا منافاة بينهما فإن الصلاة داخلة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٩٦-٤٩٧.

(٢) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٨٧.

في مسمى الإيمان بالله كما دخلت في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال البراء بن عازب وغيره من السلف أي صلاتكم إلى بيت المقدس^(١).

الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال

ومعلوم أن الصلاة أفضل العبادات كما في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال قلت للنبي أي العمل أحب إلى الله قلت للنبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو إستزده لزدني وثبت أيضا في الصحيحين عنه أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله وجهاد في سبيله ثم الحج المبرور ولا منافاة بينهما فإن الصلاة داخلة في مسمى الإيمان بالله كما دخلت في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال البراء ابن عازب وغيره من السلف أي صلاتكم إلى بيت المقدس ولهذا كانت الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال فلا يصلى أحد عن أحد الفرض لا لعذر ولا لغير عذر كما لا يؤمن أحد عنه ولا تسقط بحال كما لا يسقط الإيمان بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضرا وهو متمكن من فعل بعض أفعالها^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الأسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الأسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تمائل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وسمى بعض عباده حيا فقال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٩.

مَوْتَهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿[الروم: ١٩] وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ [الروم: ١٩] اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان إذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يفيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي الله نفسه سمي نفسه بالرؤوف الرحيم فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] وسمى بعض عباده بالرؤوف الرحيم فقال ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وليس الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم^(١).

لطائف لغوية

فان الانسان هو السفهيه نفسه كما قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ [النساء: ٥]^(٢).

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وهى الجهات كلها فأخبر أن الجهات له^(٣).

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١ والجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٤٧.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٧.

[البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما في قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الإسلام واذا أطلق الهدى كان كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا^(١).

والصلاة أول أعمال الإسلام وأصل أعمال الإيـمان ولهذا سماها إيماناً في قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس هكذا نقل عن السلف والله تعالى أعلم^(٢).

وجعلهم أمة وسطا أي عدلا خيارا ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذي جعله لهم^(٣).

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهم الشهداء الذين قال فيهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] قال مع محمد وأمته وكل من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٤٨ ومجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٩.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٤.

(٤) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٠٩.

فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك إعتقاداً مطابقاً للأمر في نفسه وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون إنتفاءه كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى إستغفر له ونهينا عن الإقتداء كما قال النبي لأبي طالب لأستغفرن لك ما لم أنه عنك وحتى استاذن ربه في الإستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة حتى أنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٣٣) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿ [التوبة: ١١٣-١١٤]

وقال عن المنافقين ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٤] الآية وقال ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون: ٦] فإذا كان صلى على المنافقين وإستغفر لهم راجياً ان يغفر لهم قبل ان يعلم ذلك ولهذا سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم انه كذب وإن كان ضعيف الإسناد بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقاً وأمکن أن يميز الجزم بثبوتيه بلا علم إذ لا محذور فيه منابت الناس اللفظ تعيين الوعد والوعيد فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا أمكن أن يكون صدقاً لأن في ذلك إبطال لما هو حق ذلك لا يجوز ولهذا قال النبي حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج^(١).

مسائل فقهية

١- ان الفرض لا يصح في جوف الكعبة

والمشهور نصاً ومذهباً ان الفرض لا يصح في الكعبة لأن الله سبحانه قال ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي نحوه وتلقاه باجماع اهل العلم لأن الشطر له معنيان هذا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٩٥.

احدهما والاخر بمعنى النصف وذلك المعنى ليس مرادا فتعين الأول وإذا كان الله قد فرض تولية الوجه نحو الكعبة وذلك هو الصلاة اليها فالمصلي فيها ليس بمصل اليها لانه لا يقال لمن صلى في دار أو حانوت أنه مصل اليه وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما إنما امر الناس ان يصلوا إلى الكعبة ولم يؤمروا ان يصلوا فيها ولأن التوجه اليها إنما يكون باستقبالها كلها أي استقبال جميع ما يحاذيه منها فاذا استقبل بعضها فليس بموول وجهه إلى الكعبة بل إلى بعض ما يسمى كعبة ولانه إذا استقبل البعض واستدبر البعض فليس وصفه باستقبالها بأولى من وصفه باستدبارها بل استدبار بعضها ينافي الاستقبال المطلق ولهذا قال ابن عباس لا تجعل شيئاً من البيت خلفك ذكره احمد يبين هذا ان الله سبحانه امر بالطواف به كما امر بالصلاة اليه وإخراجها مخرجا واحدا في قوله تعالى ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال تعالى ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] كما قال تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩] ثم الطواف فيه لا يجوز فكذلك الصلاة فيه ولما وجب على الطائف ان يطوف به كله وجب على المصلي ان يستقبله كله واستقبال جميعه يحصل بان تكون القبلة كلها امامه وان خرج بعضها عن مسامته بدنه ومحاذاته فان المطابقة ليس من معنى الاستقبال في شيء اذ لو كانت من معناه ما صح ان يستقبل الجسم الكبير للصغير ولا الصغير للكبير نعم لو خرج هو على مسامتها ببعضه لم يكن مستقبلا لها فعلى هذا لا يصلي الفرض في الحجر نص عليه فقال لا يصلي في الحجر الحجر من البيت^(١).

٢- ما بين المشرق والمغرب قبلة

الكعبة قبلة المسجد والمسجد قبلة مكة ومكة قبلة الحرم والحرم قبلة الأرض

﴿قَدْ زَرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٤٩٨-٤٩٩.

وَجِهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٥٠﴾ [البقرة: ١٥٠] وشطره نحوه وتلقاؤه كما قال أقيمي أم زنباع أقيمي صدور العيس شطر بنى تميم وقال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] لوجهة هي الجهة كما في عدة وزنة أصلها وعدة ووزنة فالقبلة هي التي تستقبل والوجهة هي التي يوليها وهو سبحانه أمره بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام والمسجد الحرام هو الحرم كله كما في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وليس ذلك مختصا بالكعبة وهذا يحقق الأثر المروي الكعبة قبله المسجد والمسجد قبله مكة ومكة قبله الحرم والحرم قبله الأرض وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه صلى في قبلى الكعبة ركعتين وقال هذه القبلة وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا فنهى عن إستقبال القبلة بغائط أو بول وأمر بإستقبالها في الصلاة فالقبلة التي نهى عن إستقبالها وإستدبارها بالغائط والبول هي القبلة التي أمر المصلى بإستقبالها في الصلاة وقال ما بين المشرق والمغرب قبله قال الترمذى حديث صحيح وهكذا قال غير واحد من الصحابة مثل عمر وعثمان وعلى بن أبي طالب وإبن عباس وإبن عمر وغيرهم ولا يعرف عن أحد من الصحابة في ذلك نزاع وهكذا نص عليه ائمة المذاهب المتبوعة وكلامهم في ذلك معروف وقد حكى متأخروا الفقهاء في ذلك قولين في مذهب أحمد وغيره وقد تأملت نصوص أحمد في هذا الباب فوجدتها متفقة لا إختلاف فيها وكذلك يذكر الإختلاف في مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وهو عند التحقيق ليس بخلاف بل من قال يجتهد أن يصلى إلى عين الكعبة أو فرضه إستقبال عين الكعبة بحسب إجتهاده فقد أصاب ومن قال يجتهد أن يصلى إلى جهة الكعبة أو فرضه إستقبال القبلة فقد أصاب وذلك أنهم متفقون على أن من شاهد الكعبة الكعبة فإنه يصلى إليها ومتفقون على أنه كلما قرب المصلون إليها كان صفهم أقصر من البعيدين عنها وهذا شأن كل ما يستقبل فالصف القريب منها لا يزيد طوله على قدر الكعبة ولو زاد لكان الزائد مصليا إلى غير الكعبة والصف الذى خلفه يكون اطول منه وهلم جرا فإذا كانت الصفوف تحت سقائف المسجد كانت منحنية بقدر ما يستقبلون الكعبة وهم يصلون إليها وإلى جهتها أيضا فإذا بعد الناس عنها كانوا

مصلين إلى جهتها وهم مصلون إليها أيضا ولو كان الصف طويلا يزيد طوله على قدر الكعبة صحت صلاتهم بإتفاق المسلمين وإن كان الصف مستقيما حيث لم يشاهدوها ومن المعلوم أنه لو سار من الصفوف على خط مستقيم إليها لكان ما يزيد على قدرها خارجا عن مسافتها فمن توهم أن الفرض أن يقصد المصلى الصلاة في مكان لو سار على خط مستقيم وصل إلى عين الكعبة فقد أخطأ ومن فسر وجوب الصلاة إلى العين بهذا وأوجب هذا فقد أخطأ وإن كان هذا قد قاله قائل من المجتهدين فهذا القول خطأ خالف نص الكتاب والسنة وإجماع السلف بل وإجماع الأمة فإن الأمة متفقة على صحة صلاة الصف المستطيل الذي يزيد طوله على سمت الكعبة بأضعاف مضاعفة وإن كان الصف مستقيما لا إنحناء فيه ولا تقوس فإن قيل مع البعد لا يحتاج إلى الإنحناء والتقوس كما يحتاج إليه في القرب كما أن الناس إذا إستقبلوا الهلال أو الشمس أو جبلا من الجبال فإنهم يستقبلونه مع كثرتهم وتفرقهم ولو كان قريبا لم يستقبلوه إلا مع القلة والاجتماع قيل لا ريب أنه ليس الإنحناء والتقوس في البعد بقدر الإنحناء والتقوس في القرب بل كلما زاد البعد قل الإنحناء وكلما قرب كثر الإنحناء حتى يكون أعظم الناس إنحناء وتقوسا الصف الذي يلي الكعبة ولكن مع هذا فلا بد من التقوس والإنحناء في البعد إذا كان المقصود أن يكون بينه وبينها خط مستقيم بحيث لو مشى إليه لوصل إليها لكن يكون التقوس شيئا يسيرا جدا كما قيل أنه إذا قدر الصف ميلا وهو مثلا في الشام كان الإنحناء من كل واحد بقدر شعيرة فإن هذا ذكره بعض من نص وجوب إستقبال العين وقال إن مثل هذا التقوس اليسير يعني عنه فيقال له فهذا معنى قولنا إن الواجب إستقبال الجهة وهو العفو عن وجوب تحرى مثل هذا التقوس والإنحناء فصار النزاع لفظيا لا حقيقة له فالمقصود أن من صلى إلى جهتها فهو مصل إلى عينها وإن كان ليس عليه أن يتحرى مثل هذا ولا يقال لمن صلى كذلك أنه مخطيء في الباطن معفو عنه بل هذا مستقبل القبلة باطنا وظاهرا وهذا هو الذي أمر به ولهذا لما بنى أصحاب رسول الله مساجد الأمصار كان في بعضها مالم يخرج منه خط مستقيم إلى الكعبة لكان منحرفا وكانت صلاة المسلمين فيه جائزة بإتفاق المسلمين وبهذا يظهر حقيقة قول من قال إن من قرب منها أو من مسجد النبي لا تكون إلا على خط مستقيم لأنه لا يقر على خطأ فيقال هؤلاء إعتقدوا أن مثل

هذه القبلة تكون خطأ وإنما تكون خطأ لو كان الفرض أن يتحرى إستقبال خط مستقيم بين وسط أنفه وبينها وليس الأمر كذلك بل قد تقدم نصوص الكتاب والسنة بخلاف ذلك ونظير هذا قول بعضهم إذا وقف الناس يوم العاشر خطأ أجزأهم فالصواب أن ذلك هو يوم عرفة باطنا وظاهرا ولا خطأ في ذلك بل يوم عرفة هو اليوم الذى يعرف فيه الناس والهلل إنما يكون هلالا إذا إستهله الناس وإذا طلع ولم يستهلوه فليس بهلال مع أن النزاع في الهلال مشهور هل هو إسم لما يطلع وإن لم يستهل به أو لما يستهل به وفيه قولان معروفان في مذهب أحمد وغيره بخلاف النزاع في إستقبال الكعبة ويدل على ذلك أنه لو قيل بأن على الإنسان أن يتحرى أن يكون بين وسط أنفه وجبهته وبينها خط مستقيم قيل فلا بد من طريق يعلم بها ذلك فإن الله لم يوجب شيئا إلا وقد نصب على العلم به دليلا ومعلوم أن طريق العلم بذلك لا يعرفه إلا خاصة الناس مع إختلافهم فيه ومع كثرة الخطأ في ذلك ووجوب إستقبال القبلة عام لجميع المسلمين فلا يكون العلم الواجب خفيفا لا يعلم إلا بطريق طويلة صعبة مخوفة مع تعذر العلم بذلك أو تعسره في أغلب الأحوال ولهذا كان الذين سلكوا هذه الطريق يتكلمون بلا علم مع إختلافهم في ذلك والدليل المشهور لهم الجدى والقطب فمنهم من يقول القطب هو الجدى وهو كوكب خفي وهذا خطأ من ثلاثة أوجه فإن القطب ليس هو الجدى والجدى ليس بكوكب خفي بل كوكب نير والقطب ليس أيضا كوكبا ومنهم من يقول الجدى هو كوكب خفي وهو خطأ وجمهورهم يقولون القطب كوكب خفي ويحكون قولين في القطب هل يدور أو لا يدور وهذا تخليط فإن القطب الذى هو مركز الحركة لا يتغير عن موضعه كما أن قطب الرحى لا يتغير عن موضعه ولكن هناك كوكب صغير خفي قريب منه وهذا إذا سمي قطبا كان تسميته بإعتبار كونه أقرب الكواكب إلى القطب وهذا يدور فالكواكب تدور بلا ريب ومداره الحركة الذى هو قطبها لا يدور بلا ريب فحكاية قولين في ذلك كلام من لم يميز بين هذا وهذا والدليل الظاهر هو الجدى والإستدلال به على العين إنما يكون في بعض الأوقات لا في جميعها فإن القطب إذا كانت الشمس في وسط السماء عند تناهى قصر الظلال يكون القطب محاذيا للركن الشامى من البيت الذى يكون عن يمين المستقبل للباب فمن كان بلده محاذيا لهذا القطب كأهل حران ونحوهم كانت

صلاتهم إلى الركن ولهذا يقال أعدل القبل قبلتهم ومن كان بلده غربى هؤلاء كأهل الشام فإنهم يميلون إلى جهة المشرق قليلا بقدر بعدهم عن هذا الخط فكلما بعدوا ازدادوا في الانحراف ومن كان شرقي هؤلاء كأهل العراق كانت قبلته بالعكس ولهذا كان أهل تلك البلاد يجعلون القطب وما قرب منه خلف أفقائهم وأهل الشام يميلون قليلا فيجعلون ما بين الأذن اليسرى ونقرة القفا أو خلف الأذن اليسرى بحسب قرب البلد وبعده عن هؤلاء وأهل العراق يجعلون ذلك خلف الأذن اليمنى ومعلوم أن النبي والصحابة لم يأمرُوا أحدا بمراعاة القطب ولا ما قرب منه ولا الجدى ولا بنات نعش ولا غير ذلك ولهذا أنكر الإمام أحمد على من أمر بمراعاة ذلك وأمر أن لا تعتبر القبلة بالجدى وقال ليس في الحديث ذكر الجدى ولكن ما بين المشرق والمغرب قبلة وهو كما قال فإنه لو كان تحديد القبلة بذلك واجبا أو مستحبا لكان الصحابة أعلم بذلك وإليه أسبق ولكان النبي بين ذلك فإنه لم يدع من الدين شيئا إلا بينه فكيف وقد صرح بأن ما بين المشرق والمغرب قبلة ونهى عن إستقبال القبلة وإستدبارها بغائط أو بول ومعلوم بإتفاق المسلمين ان المنهى عنه من ذلك ليس هو أن يكون بين المتخلى وبين الكعبة خط مستقيم بل المنهى عنه أعم من ذلك وهو أمر بإستقبال القبلة في حال كما نهى عن إستقبالها في حال وإن كان النهى قد يتناول مالا يتناوله الأمر لكن هذا يوافق قوله ما بين المشرق والمغرب قبلة وأيضا فإن تعليق الدين بذلك يفضى إلى تنازع الأمة وإختلافها في دينها والله قد نهى عن التفرق والإختلاف فإن جماهير الناس لا يعلمون ذلك تحديدا وإنما هم فيه مقلدون لمن قرب ذلك فالتحديد في هذا متعذر أو متعسر ومثل هذا لا ترد به الشريعة والذين يدعون الحساب ومعرفة ذلك تجدهم أكثرهم يتكلمون في ذلك بما هو خطأ وبما إذا طولبوا بدليله رجعوا إلى مقدمات غير معلومة وأخبار من لا يوثق بخبره والذين ذكروا بعض ذلك من الفقهاء هم تلقوه عن هؤلاء ولم يحكموه فصار مرجع أتباع هؤلاء وهؤلاء إلى تقليد يتضمن خطأ في كثير من المواضع ثم يدعى هذا أن هذه القبلة التى عينها هى الصواب دون ما عينه الآخر ويدعى الآخر ضد ذلك حتى يصير الناس أحزابا وفرقا وكل ذلك مما نهى الله عنه ورسوله وسبب ذلك أنهم أدخلوا في دينهم ما ليس منه وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فإختلفوا في تلك البدعة التى شرعوا لأنها لا ضابط

لها كما يختلف الذين يريدون أن يعلموا طلوع الهلال بالحساب أو طلوع الفجر بالحساب وهو أمر لا يقوم عليه دليل حسابي مطرد بل ذلك متناقض مختلف فهؤلاء أعرضوا عن الدين الواسع والأدلة الشرعية فدخلوا في أنواع من الجهل والبدع مع دعواهم العلم والحدق كذلك يفعل الله بمن خرج عن المشروع إلى البدع وتنطع في الدين وقد ثبت في الصحيح صحيح مسلم عن الأحنف بن قيس عن ابن مسعود عن النبي أنه قال هلك المنتطعون قالها ثلاثا ورواه أيضا أحمد وأبو داود وأيضا فإن الله قال ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] وقال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] أى مستقبلها وقال النبي هذه القبلة والقبلة ما يستقبل ما صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل من ذبيحتنا فذلك المسلم له مالنا وعليه ما علينا وأجمع المسلمون على أنه يجب على المصلي إستقبال القبلة في الجملة فالمأمور به الإستقبال للقبلة وتولية الوجه شطر المسجد الحرام فينظر هل الإستقبال وتولية الوجه من شرطه أن يكون وسط وجهه مستقبلا لها كوسط الأنف وما يجاذيه من الجبهة والذقن ونحو ذلك أو يكون الشخص مستقبلا لما يستقبله إذا وجه إليه وجهه وإن لم يجاذه بوسط وجهه فهذا أصل المسألة ومعلوم أن الناس قد سن لهم أن يستقبلوا الخطيب بوجوههم ونهو عن إستقبال القبلة بغائط أو بول وامثال ذلك مما لم يشترط فيه أن يكون الإستقبال بوسط الوجه والبدن بل لو كان منحرفا إنحرافا يسيرا لم يقدر ذلك في الإستقبال والإسم إن كان له حد في الشرع رجع إليه وإلا رجع إلى حده في اللغة والعرف والإستقبال هنا دل عليه الشرع واللغة والعرف وأما الشارع فقال ما بين المشرق والمغرب قبلة ومعلوم أن من كان بالمدينة والشام ونحوهما إذا جعل المشرق عن يساره والمغرب عن يمينه فهو مستقبل للكعبة ببدنه بحيث يمكن أن يخرج من وجهه خط مستقيم إلى الكعبة ومن صدره وبطنه لكن قد لا يكون ذلك الخط من وسط وجهه وصدره فعلم أن الإستقبال بالوجه أعم من ان يختص بوسطه فقط والله أعلم^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٠٧-٢١٦.

الإسلام العام والخاص

والإسلام دين جميع المرسلين قال نوح عليه السلام ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢] وقال الله عن ابراهيم وبنيه ما تقدم وقال يوسف الصديق ﴿ تَوَقَّئِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال موسى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] وقال في التوراة ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٤] قال شيخ الإسلام وقد قررت في غير هذا الموضع الإسلام العام والخاص والايان العام والخاص كقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] وأما تنوع الشرائع وتعددتها فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] فأخبر أن لكل أمة وجهة ولم يقل جعلنا لكل أمة وجهة بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق بخلاف ما ذكره في الشرع والمناهج فانه قال ﴿ يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْنُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ [المائدة: ٤١] إلى قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم في الحدود والقصاص والديات أخبر أن التوراة ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا عام في النبيين جميعهم والربانيين والاحبار ثم لما ذكر الانجيل قال ﴿ وَلِيَحْكُرَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾

[المائدة: ٤٧] فامر هؤلاء بالحكم لأن الانجيل بعض ما في التوراة واقر الاكثر والحكم بما انزل الله فيه حكم بما في التوراة أيضا ثم قال ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجا أى سنة وسبيلا فالشرعة الشريعة وهى السنة والمنهاج الطريق والسبيل وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج إلى ما جعل له ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله اليه فالأول نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته والثانى وان كان حكما غير الحكم الذى أنزل نهى له ان يترك شيئا مما انزل فيها اتباع محمد الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله وان لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه وقال تعالى في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤] ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧] وذكر في أثناء السورة ﴿لَهَدَمْتَ صَوْمِعُ وَيَعُوصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] فبين انه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر في البقرة الوجهة التى يتوجهون اليها وقال في سورة الجاثية بعد أن ذكر بنى اسرائيل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] الآية وقال في النسخ ووجوب اتباعهم للرسول ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] وقال ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

عَلَيْهِمْ^٤ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ^٥ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧] وقد تقدم ما في البقرة وآل عمران من أمرهم بالايان بما
أنزل الله على محمد ﷺ وكذلك في سورة النساء وهو كثير في القرآن^(١).

٣- ما نسخ لم يبق من دين الإسلام

وإنما تكون عبادته بطاعته وطاعة رسله من يطع الرسول فقد أطاع الله فكل رسول
بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام وأما ما بدل منها فليس من دين
الإسلام وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول
الهجرة بضعة عشر شهرا ثم الامر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الإسلام فبعد
النسخ لم يبق دين الإسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام فمن قصد أن
يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام لانه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره
وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول إما أن تكون من الدين المبدل الذي ما شرعه الله قط
أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه كالتوجه إلى بيت المقدس فلهذا كانت السنة في
الإسلام كالإسلام في الدين هو الوسط وفي صحيح مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان اذا
قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من
الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم^(٢).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]

ان اهل الكتاب يعلمون ان الله بعث الرسول وانه حق من عند الله ولهذا كان النبي
في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسول الله
وكذلك من أسلم منهم كعبدالله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب والله الذي لا
إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١١٢.

(٢) النبوات ج: ١ ص: ٩٤-٩٥.

المخرجة في الصحيحين وغيرهما^(١).

ودلائل نبوة محمد قطعية يقينية

ان موسى والمسيح عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ وهذه السورة سورة البقرة مدنية واثبت ان الكتب السماوية السابقة التوراة والانجيل بشرت بمحمد ﷺ ودلائل نبوة محمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن فإن الظن لا يدفع اليقين لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمدا كان مكتوبا باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء كما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا تجزي بالسيئة السيئة ولكن تجزي بالسيئة الحسنة وتعفو وتغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة الموجهة فأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا بأن يقولوا لا إله إلا الله^(٢).

﴿وَلَمَّا تَبِعْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ

الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥]

﴿وَلَمَّا تَبِعْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ

الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥] وهذا يتناول

أهواء أهل الكتاب^(٣).

أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهوها

والهوى مصدر هوى يهوى هوى ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوى فاتباعه

كاتباع السبيل كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا تَبِعْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥] وكما في لفظ الشهوة فاتباع الهوى يراد به نفس

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٦٤.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١٤٩.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٥٧.

مسمى المصدر أي اتباع ارادته ومحبه التي هي هواه واتباع الارادة هو فعل ما تهواه النفس كقوله تعالى ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [نجم: ١٥] الي وقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] فلفظ الاتباع يكون للأمر الناهي وللأمر والنهي وللمأمور به والمنهي عنه وهو الصراط المستقيم كذلك يكون للهوى أمر ونهي وهو أمر النفس ونهيا كما قال تعالى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتباع الأمر هو فعل المأمور واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذه يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها وذلك يفعل ما تشتهيه وتهواه بل قد يقال هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء لأن الذي يشتهي ويهوى انما يصير موجودا بعد أن يشتهي ويهوى وإنما يذم الانسان اذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجود فهو حينئذ قد فعل ولا ينهى عنه بعد وجوده ولا يقال لصاحبه لا تتبع هواك وأيضا فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الانسان هو تابع لشهوته وهواه فليست الشهوة والهوى تابعة له فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس واذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهي والانسان يتبعه كالمرأة المطلوبة أو الطعام المطلوب وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضا كما في قوله ﷺ كل عمل ابن آدم له الا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي أي بترك شهوته وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها وإنما يثاب اذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة وحقيقة الأمر أنهما متلازمان فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه فإن ذلك من آثار الارادة واتباع الارادة هو امتثال أمرها وفعل ما تطلبه كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله فيبقى ذلك المثل كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة

للانسان الآمرة له ولهذا يقال العلة الغائية علة فاعلية فإن الانسان للعلة الغائية بهذا التصور والارادة صار فاعلا للفعل وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلا فيكون الانسان متبعا لها والشيطان يمد في الغي فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة كالمحبوب من الصور والطعام والشراب وتتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب والشيطان والنفس تحب ذلك وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج فإن أول الفكر آخر العمل وأول البغية آخر الدرك ولهذا يبقى الانسان عند شهوته وهواه أسيرا لذلك مقهورا تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه لا يمكنه مفارقتها البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه وتمثله لها في نفسها فو متبع للارادة وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور في نفسه والمشتهى الموجود في الخارج له محركان التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وأمر وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله بخلاف كل قاهر ينفصل عن الانسان فإنه يمكنه مفارقتها مع بقاء نفسه على حالها وهذا انما يفارقه بتغير صفة نفسه ولهذا قال النبي ﷺ ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنا وكلمة الحق في الغضب والرضا وقوله في الحديث هوى متبع فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس كقوله في الشح المطاع وجعل الشح مطاعا لأنه هو الأمر وجعل الهوى متبعا لأن المتبع قد يكون اماما يقتدى به ولا يكون أمرا^(١).

أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا
للنصوص

أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص كما
قال مجاهد أفضل العبادة الرأي الحسن وهو اتباع السنة ولهذا قال تعالى ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٢٨.

الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿سبأ: ٦﴾ ولهذا كان
 السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسننة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية ومسائل
 الأحكام العملية أهل الأهواء لأن الرأي المخالف للسننة جهل لا علم فصاحبه ممن اتبع
 هواه بغير علم ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع هواه بغير علم ويذم من يتبع هواه بغير
 هدي من الله كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾
 [التقصص: ٥٠] وقال تعالى ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾
 [الأنعام: ١١٩] وكل من اتبع هواه اتبعه بغير علم إذ لا علم بذلك إلا بهدي الله الذي بعث
 الله به رسوله كما قال تعالى ﴿فَأِمَّا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَاتَّبِعُوا مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى
 ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]
 ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه واتباع الهوى يكون في الحب والبغض كقوله
 تعالى ﴿يٰۤاُدُوْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
 إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فهنا يكون اتباع
 الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم قال تعالى ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
 شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا
 تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] فهنا
 يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها والحق هو العدل واتباع الهوى
 في خلاف ذلك هو من الظلم وقد نهى رسول الله عن اتباع أهواء الخلق وقال تعالى
 ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
 بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] فهنا عن اتباع أهواء الذين
 أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم وكذلك قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
 مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]

وقال تعالى ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال تعالى ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْبِهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] فقد نهاه عن اتباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب وحذره أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحق وذلك يتضمن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته وكذا أهل الأهواء من هذه الأمة وقد بين ذلك في قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجرات: ١٨-١٩] فقد أمره في هذه الآية باتباع الشريعة التي جعله عليها ونهاه عن اتباع ما يخالفها وهي أهواء الذين لا يعلمون ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل الأهواء كما سماهم السلف وقال تعالى ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧] وقال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقال تعالى ﴿قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] إلى قوله ﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [٤٩] فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠] وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦] وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَقَّوْنَهُمْ﴾ [محمد: ١٦-١٧] فذكر

الذين أوتوا العلم وهم الذين يعلمون أن ما أنزل إليه من ربه الحق ويفقهون ما جاء به وذكر المطبوع علي قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا الذين اتبعوا أهوائهم يسألونهم ماذا قال الرسول أنفا وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة بل يستشكل ذلك فلا يفقهه أو قرأه متعارضا متناقضا وهي صفة المنافقين ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] زيادة الهدى وهو ضد الطبع علي قلوب أولئك وآتاهم تقواهم وهو ضد اتباع أولئك الأهواء فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وقال تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]^(١).

من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل
الاهواء

فان من الناس من يكون حبه وبغضه وارادته وكرهاته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا من نوع الهوى فان اتبعه الانسان فقد اتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [التقصص: ٥٠] فان أصل الهوى محبة النفس ويتبع ذلك بغضها ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه فان ذلك قد لا يملك وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [التقصص: ٥٠] وقال النبي ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى وكلمة الحق في الغضب والرضا وثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والحب والبغض بتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض ووجد

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٢٠-٢٢.

وارادة وغير ذلك فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله بل قد يصعد به الأمر إلى أن يتخذ الهه هواه واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الاهواء في الشهوات فان الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التقصص: ٥٠] وقال تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] الآية إلى ان قال ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وقال تعالى ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] الآية وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وقال تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَلِنَظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وقال ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩] ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الاهواء كما كان السلف سمونهم أهل الاهواء وذلك ان كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه والعلم بالدين لا يكون الا بهدى الله الذى بعث به رسوله ولهذا قال تعالى في موضع ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقال في موضع آخر ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [التقصص: ٥٠] فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذى أنزله على

رسوله بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض لا يكون متقدما فيه بين يدي الله ورسوله فانه قد قال ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله ومجرد الحب والبغض هوى لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ولهذا قال ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله وهو هداه الذي بعث به رسوله وهو السبيل اليه^(١).

لطائف لغوية

وأما قول بعض الفقهاء ان الوجه مشتق من المواجهة فلا دليل عليه بل قد عارضه من قال هو مشتق من الوجاهة وكلاهما ضعيف وإنما المواجهة مشتق من الوجه كما أن المشافهة مشتق من الشفة والمناظرة بمعنى المقابلة مشتقة من النظر والمعاينة من العين وأما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه من الوجه الذي هو التوجه فهذا اشبه لأن توجهه هو فعله المختص به الذي لا يفتقر فيه إلى غيره بخلاف المواجهة فإنها تستدعي اثنين والانسان هو حارث همام وهمه هو توجهه وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أى شيء أرادته وتوجه اليه ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] وقول الخليل ونبينا والمؤمنين في الصلاة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] وقوله ﴿قَدْ زُرَىٰ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] يقول كثير من أهل العلم أن الوجه في مثل قوله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩] هو الوجه الظاهر كما أنه كذلك بالاتفاق في قوله

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٣٨ والاستقامة ج: ٢ ص: ٢٢٤.

﴿قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ^(١).

فان الكلام اذا كان فيه شرط متقدم وقسم كان جواب القسم يسد مسد جواب الشرط والقسم جميعا وادخلت اللام الموطئة على اداة الشرط ونظير اللام الموطئة في قوله ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] ونظير هذه الآية قوله ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقوله ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا﴾ [الإسراء: ٨٦] ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] ^(٢).

قوله ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ﴾ [البقرة: ١٤٥] فهو يتضمن نفي الفعل بغضا فيه وكراهة له بخلاف قوله لا أفعل فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر ^(٣).

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فإن في العالم من يكذب فيخبر بخلاف ما يعلم في كثير من الأمور ليس في العالم من يكذب في كل ما يقول وكذلك في العالم من كذب بكثير من الحق الذي يعلمه لكن لا يكذب بكل ما يقال له من الحسيات وغيرها فمن نفي الحقائق مع علمه بها ونفي العلم مع ثبوته فهو من الكاذبين ومن تجاهل وقال لا أدري فهو من الكاتمين ما معه من الحق مثل كاتم الشهادة ^(٤).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٣٠.

(٢) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٥٣.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٥٥.

(٤) الصفدية ج: ٢ ص: ٣٢٤.

اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته

أن الانبياء موسى والمسيح عليهما السلام بشرا بمحمد ودلائل نبوة محمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن فإن الظن لا يدفع اليقين لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمدا كان مكتوبا باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء كما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صحاب بالأسواق ولا تجزي بالسيئة السيئة ولكن تجزي بالسيئة الحسنة وتعفو وتغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة الموجهة فأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا بأن يقولوا لا إله إلا الله^(١).

ومما ينبغي أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد إما شهادتها بنبوته وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين الملحدون كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]^(٢).

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبتك فيه الكافرون وذلك من وجوه أحدها أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين ومثل هذا قوله تعالى ﴿وَسَلِّ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِن

(١) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١٤٨.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١٩٨.

قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿[الزُّحْرُفُ: ٤٥]﴾ لوجه الثاني أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرا مثلهم لم يرسل إليهم ملكا فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشرا معه ملك ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى ﴿وَمَا مَنَّ النَّاسُ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُوكَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٤-٩٥]﴾^(١).

وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم إنه منهم لا سيما إذا علم أنه لا بد من رسول منتظر وعلم أن لذلك الرسول صفات متعددة تميزه عن سواه فهذا قد يبلغ بصاحبه إلى العلم الضروري بأن هذا هو الرسول المنتظر ولهذا قال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ﴿[البقرة: ١٤٦]﴾^(٢).

فالتصديق الذي في القلب وعلمه يقتضي عمل القلب كما يقتضي الحس الحركة الإرادية لأن النفس فيها قوتان قوة الشعور بالملائم والمنافي والإحساس بذلك والعمل والتصديق به وقوة الحب للملائم والبغض للمنافي والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالة والمعادة وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور وإدراك المنافي يوجب الألم والغم وقد قال النبي كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به ودينا له لكن يعرض لها ما يفسدها ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ولهذا أمرنا الله أن نقول في الصلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿[الفاتحة: ٦-٧]﴾ وقال النبي ﷺ اليهود مغضوب عليهم

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٥٩.

(٢) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٢٥.

والنصارى ضالون لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته والنصاري لهم عبادة وفي قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها لكن بلا علم فهم ضلال هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد في الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن وإتباع الهوى فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي أهل الكتاب ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب^(١).

كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا

قال تعالى ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا^(٢).

حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه

أن الشخص إما أن يبين له أن ما بعث الله به رسوله حق ويعدل عن ذلك إلى اتباع هواه أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق فهذا متبع للظن والأول متبع لهواه اجتماع الأمرين قال تعالى في صفة الأولين ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۗ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى في صفة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٣.

الآخسرين ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]
 فالأول حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كما هو موجود في اليهود
 والثاني حال الذين يعملون بغير علم قال تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
 [الأنعام: ١١٩]^(١).

أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهم من عمل القلب

أن لفظ الإيمان إنما يستعمل في بعض الأخبار وهو مأخوذ من الأمن كما أن الإقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب أمن كما أن المقر صاحب إقرار فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فإذا كان عالماً بأن محمداً رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء فإن إبليس لم يكذب خبراً ولا نخبراً بل استكبر عن أمر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُنَالًا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبي ﷺ يقول اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من أعظم الجهل شرعاً وعقلاً وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالماً بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبراً عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٠٠.

تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الإيمان قول وعمل ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فإن الإرادة الجازمة إذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعاً وإنما ينتفي وجوب العقل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الإرادة وإلا جمع كما لها يجب وجود الفعل الاختياري فإذا اقر القلب إقراراً تاماً بأن محمداً رسول الله وأحبه محبة تامة امتنع مع ذلك أن لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن إن كان عاجزاً لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بهما وأبو طالب وإن كان عالماً بأن محمداً رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبة الله بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبته هو الرئاسة فلماذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْأَنْفَىٰ ۗ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكْهُ ۗ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۗ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١] وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته لأنه لم يعمل لله والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهم من عمل القلب كحب القلب فلا بد من إخلاص الدين لله والدين لا يكون ديناً إلا بعمل فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة^(١).

فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ولا بد فيه من شيئين تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٢٤-٣٢٥ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٧٠-٢٧٤ ومجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٠٨.

ورسوله وإخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريد القلب ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهي القلب وقال أبو هريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقول أبي هريرة تقريب وقول النبي أحسن بيانا فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم إختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسدت فسدت وهذا قال من قال من الصحابة عن المصلى العابد لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين لأندادهم وفي الآية قولان قيل يحبونهم كحب المؤمنين الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم لأوثانهم وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم وهذا هو الصواب والأول قول متناقض وهو باطل فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله وتستلزم الإرادة والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الإنسان محبا لله ورسوله مريدا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعلها فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه ومن هنا يظهر خطأ قول جهنم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل

الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى الله ورسوله ويعادى أولياء الله ويؤلى أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف ويكرم الكفار غاية الكرامة ويهين المؤمنين غاية الإهانة قالوا وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذى فى قلبه بل يفعل هذا وهو فى الباطن عند الله مؤمن قالوا وإنما ثبت له فى الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان فى الباطن قد يكون بخلاف ما اقر به وبخلاف ما شهد به الشهود فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر فى نفس الأمر معذب فى الآخرة قالوا فهذا دليل على إنتفاء التصديق والعلم من قلبه فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل والإيمان شيء واحد وهو العلم أو هو هو وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل فى الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وابى عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره بإستكباره وإمتناعه عن السجود لآدم لا لكونه كذب خبرا وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله فيهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فهؤلاء غلطوا فى أصلين أحدهما ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية فى القلب وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا فإن أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب فالأول لابد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار اصحاب اليمين ومن فعله وفعل الثانى كان من المقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما بل أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليه من أهله وماله ومثل خشية

الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى ﴿ هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿ [ق: ٣٢-٣٣] ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالة لله والمعادة لله والثاني ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمة الفطرة وجماهير النظر فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصدقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ومعلوم أن إتيان الأذلين له لا يقدر في صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابا على صاحبه^(١).

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أنكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٨٨ - ١٩١.

كان عذابا على صاحبه كما قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ
 أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى ﴿فَأَنَّهُمْ لَا
 يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُعِيتُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فإن اعترف العبد أن الله ربه
 وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه
 فيتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطبع أمره وقد يعصيه وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد
 الشيطان والأصنام ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل
 مؤمنا كما قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] فإن المشركين
 كانوا يقولون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥] إلى قوله ﴿قُلْ فَأَنَّى
 تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي
 الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر البر والفاجر
 وإبليس معترف بهذه الحقيقة وكذلك أهل النار قال إبليس ﴿انظرنى إلى يوم يُبعثون﴾
 [الأعراف: ١٤] وقال ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]
 وقال ﴿قَالَ فِعْرَانُكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] وقال ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ
 [الإسراء: ٦٢] وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره
 وكذلك أهل النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]
 وقال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أليسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بلىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠] فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقر بما أمر به
 من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس

إبليس وأهل النار وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشر أهل الكفر والإلحاد^(١).

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه

أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ولم تقم بها حجة ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي عنده شهادة من الله وكتمها وهو العلم الذي بينه الله فإنه خبر من الله وشهادة منه بما فيه وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لابراهيم وأهل بيته وكتموا إسلامهم وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ وبصفته وغير ذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ولهذا ذم من يكتم ويحرف فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفْرًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءِ اللَّهِ وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْكَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فأن صدقا وبيننا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما^(٢).

بين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الكافرين في قبلتهم

لما كان الكلام في المسألة الخاصة قد يكون مندرجا في قاعدة عامة بدأنا بذكر بعض

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦٥ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٥٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٨٧.

ما دل من الكتاب والسنة والإجماع على الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم في الجملة سواء كان ذلك عاما في جميع الأنواع المخالفة أو خاصا ببعضها وسواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب ثم أتبعنا ذلك بما يدل على النهي عن مشابهتهم في أعيادهم خصوصا وهنا نكتة قد نبهت عليها في هذا الكتاب وهي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة بمعنى أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة للعبد أو مفسدة وإن كان ذلك الفعل الذي حصلت به الموافقة أو المخالفة لو تجرد عن الموافقة والمخالفة لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة ولهذا نحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا فيها مصلحة لما يورث ذلك من محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم وإن كان ذلك يدعونا إلى موافقتهم في أمور أخرى إلى غير ذلك من الفوائد كذلك قد نتضرر بموافقتنا للكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة لأن ذلك الفعل الذي يوافق العبد فيه أو يخالف متضمن للمصلحة والمفسدة ولو لم يفعلوه لكن عبر عنه بالموافقة والمخالفة على سبيل الدلالة والتعريف فتكون موافقتهم دليلا على المفسدة ومخالفتهم دليلا على المصلحة واعتبار الموافقة والمخالفة على هذا التقدير من باب قياس الدلالة وعلى الأول من باب قياس العلة وقد يجتمع الأمران أعني الحكمة الناشئة من نفس الفعل الذي وافقناهم أو خالفناهم فيه ومن نفس مشاركتهم فيه وهذا هو الغالب على الموافقة والمخالفة المأمور بهما والمنهي عنهما فلا بد من التفطن لهذا المعنى فإن به يعرف معنى نهى الله لنا عن اتباعهم وموافقتهم مطلقا ومقيدا واعلم أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفصيلها إنما يقع بطريق الإجمال والعموم أو الاستلزام وإنما السنة هي التي تفسر الكتاب وتبينه وتدلل عليه وتعبر عنه فنحن نذكر من آيات الكتاب ما يدل على أصل هذه القاعدة في الجملة ثم نتبع ذلك الأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات بعدها ومن هذا الباب قوله سبحانه ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعَكَ أَهْوَاءَهُمْ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّيْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَلَيْكُمْ نَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ [البقرة: ١٤٥-١٥٠] قال غير واحد من السلف معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولوا قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة إذ الحجة اسم لكل ما يحتج به من حق وباطل ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] وهم قريش فإنهم يقولون عادوا إلى قبلتنا فيوشك أن يعودوا إلى ديننا فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجة في القبلة^(١).

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]

فان الوجه هو الجهة في لغة العرب يقال قصدت هذا الوجه وسافرت إلى هذا الوجه أى إلى هذه الجهة وهذا كثير مشهور فالوجه هو الجهة وهو الوجه كما في قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] أى متوليها فقوله تعالى ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] كقوله ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ﴾ فَمَّ وَجْهٌ اللَّهُ ﴿[البقرة: ١١٥] كلا الآيتين في اللفظ والمعنى متقاربتان وكلاهما في شأن القبلة والوجه والجهة هو الذى ذكر في الآيتين أنا نوليه نستقبله قلت والسياق يدل عليه لأنه قال ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ﴾ [البقرة: ١١٥] وأين من الظروف

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٥-١٦.

وتولوا أى تستقبلوا فالمعنى اى موضع استقبلتموه فهناك وجه الله فقد جعل وجه الله في المكان الذى يستقبله هذا بعد قوله ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وهى الجهات كلها كما في الآية الأخرى ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] فأخبر أن الجهات له فدل على ان الإضافة اضافة تخصيص وتشريف كأنه قال جهة الله وقبله الله ولكن من الناس من يسلم ان المراد بذلك جهة الله اى قبله الله ولكن يقول هذه الآية تدل على الصفة وعلى أن العبد يستقبل ربه كما جاء في الحديث اذا قام أحدكم إلى الصلاة فان الله قبل وجهه وكما في قوله لا يزال الله مقبلا على عبده بوجهه ما دام مقبلا عليه فاذا انصرف صرف وجهه عنه ويقول ان الآية دلت على المعنيين فهذا شىء آخر ليس هذا موضعه والغرض انه اذا قيل ﴿فَتَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه الذى ينكره منكره وتأويل آيات الصفات ولا هو مما يستدل به عليهم المثبتة فان هذا المعنى صحيح في نفسه والاية دالة عليه وإن كانت دالة على ثبوت صفة فذاك شىء آخر ويبقى دلالة قولهم ﴿فَتَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] على فتم قبله الله هل هو من باب تسمية القبلة وجهها باعتبار أن الوجه والجهة واحد أو باعتبار أن من استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله فهذا فيه مجوئ ليس هذا موضعها^(١).

وأما تنوع الناس في العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال فإنهم متنوعون في ذلك أيضا وقد قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] وقال تعالى ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧] وقال تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤] وقال تعالى ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٦-١٧ والجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤١٥.

(٢) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٤١.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]

كثير من المفسرين يقول في قوله ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وفي قوله ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ونحو ذلك إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره أي غيره قد يكون ممتريا ومطيعا لأولئك فنهى وهو لا يكون ممتريا ولا مطيعا لهم ولكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضا مخاطب بهذا وهو منهى عن هذا فالله سبحانه قد نهاه عما حرمه من الشرك والقول عليه بلا علم والظلم والفواحش وبنهى الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ولولا النهي والطاعة لما استحق ذلك ولا يجب أن يكون المأمور المنهى ممن يشك في طاعته ويجوز عليه أن يعصى الرب أو يعصيه مطلقا ولا يطيعه بل الله أمر الملائكة مع علمه أنهم يطيعونه ويأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه ولا يقال لا يحتاج إلى الأمر بل بالأمر صار مطيعا مستحقا لعظيم الثواب ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهى عنه وأنه لو شاء لفعله ليثاب على ذلك إذا تركه وقد يقتضى قيام السبب الداعى إلى فعله فينهى عنه فإنه بالنهي وإعانة الله له على الإمتثال يمتنع مما نهى عنه إذا قام السبب الداعى له إليه^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى في مواضع كثيرة جدا وقد بسطت الكلام في الرد على من أنكر قدرة الرب في غير مواضع كما قد كتبناه على الأربعين والمحصل وفي شرح الأصبهانية وغير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازى وغيره في مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس في هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٢٨.

وكذلك دخل في المقدور كما قال ذلك طائفة منهم إبن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئاً فإنه لا يدخل في المقدور كما ذكر ذلك إبن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذى عليه عامة النظر وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئاً ألبتة وأن كانوا متنازعين في المعدو فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بإمتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان فلم يدخل في قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادراً إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادراً إلا على ما أراده دون ما لم يردده ويحكى هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعرى ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضى أبى يعلى وإبن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئاً في الخارج ومنه قوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجوداً إن تصور أن يكون موجوداً قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوَّىٰ بِنَانِهِ﴾ [القيامة: ٤] وقال ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت في الصحيحين

أنها لما نزلت قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك فلما نزل ﴿أَوْ يَلِيْسَكُم شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّهٗ فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] إلى قوله ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمُوهَا﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠] ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] ونظائره كثيرة القدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البعد: ٥] وجاءت منصوبا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] و﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله ﴿فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من

القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله ﴿الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] إلى قوله ﴿فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده لله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد^(١).

فإن ما تعلق به المشيئة تعلق به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلق به القدرة من الموجودات تعلق به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] والشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كنال ينال نيلا ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن وكما يسمى المقدور قدرة والمخلوق خلقا فقوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد ومنه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ٢٠] يتناول ما كان شيئا في الخارج والعلم أو ما كان شيئا في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧-١٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٣.

إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها وإن فاعلها مستوجب لثناء الله ورضوانه إن الأصل في الصلاة في أول الوقت افضل من آخره ألا معنى يقتضي استحباب التأخير لأن الله تعالى قال ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] وقال ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة وقال تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنِ الْمُهَجِّرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال عن نبيه موسى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] وهذه الآيات تقتضي إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها وإن فاعلها مستوجب لثناء الله ورضوانه ولذلك يقتضي الاستباق إلى الخيرات وإلى أسباب المغفرة أمرا بها وثناء على أهلها وتفضيلا لهم على غيرهم والصلاة من افضل الخيرات واعظم أسباب المغفرة وعن محمد ابن عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن النبي ﷺ قال ثلاث يا علي لا تؤخرهن الصلاة إذا أتت والجنابة إذا حضرت والايام إذا وجدت لها كفؤا رواه احمد والترمذي وقال حديث حسن غريب وما أرى إسناده بمتصل لكن هذا الانقطاع هو من رواية ولده ومثل ذلك يكون من أقوى المراسيل فانهم اعلم بمحدثهم^(١).

فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة فلذلك قال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ

مُؤَيَّاتٍ﴾ [البقرة: ١٤٨]

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة ونهى عن الشرك والظلم والفواحش كما

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٩١.

أمرت ونهت الرسل قبله والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وأما السور المدنية ففيها هذا وفيها ما يختص به محمد من الشريعة والمنهاج فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وأما الشريعة والمنهاج فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة فلذلك قال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] لم يقل إنا جعلنا لكل وجهة كما قال في المنسك والشريعة والمنهاج^(١).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور وقال النبي ﷺ إنما شفاء العي السؤال وكان يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه كما ذكروا أن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحداً أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أوليائه وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَكَاثُرَ وَالْخَشْيَةَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٣] وقال ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] وقال ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال

(١) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٣٤٣.

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] ^(١).

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

قال أهل العلم والدين كأبي يزيد البسطامي وغيره لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي وقال الشافعي لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء فلا تغتروا به فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين وأولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي الذين ادعوا النبوة في آخر أيام النبي ﷺ وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعيه وكان العنسي قد استولى على أرض اليمن في حياة النبي ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين وكان قد طلب من أبي مسلم الخولاني أن يتابعه فامتنع فألقاه في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما كما جرى لآبراهيم الخليل صلوات الله عليه وذلك مع صلواته وذكره ودعائه لله مع سكينته ووقار وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية لا تصير النار عليهم بردا وسلاما بل قد يطفونها كما يطفئها الناس وذلك في حال اختلاط عقولهم وهيج شياطينهم وارتفاع أصواتهم وهذا إن كان لأحدهم حال شيطاني وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق أو دهن الضفادع وأنواعا من الأدوية كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبدون إخفاء اللاذن والسكر في يد أحدهم فانهم نوعان خاصتهم أهل حال شيطاني وعامتهم أهل حال بهتاني وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ويلتزم ما بعث الله به محمدا من الكتاب والسنة ويكون مع ذلك من مستحقى الزكاة المذكورين في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَةُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فُلُوهُنَّ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٥٠.

السَّيْلِ ﴿التوبة: ٦٠﴾ فأما من كان غنيا ليس من هذه الأصناف فلا يعطى من الزكاة لا سيما إذا كان مع غناه من شيوخ الضلال مثل شيوخ المضلين الأغنياء الذين ليسوا من الأصناف الثمانية فان هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة باجماع المسلمين وهؤلاء إذا قالوا للانسان تعطينا وإلا فانى أنلك في نفسك فانه قد تعينهم شياطين على اضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس وغيرها ويخلصون دينهم لله فلا يدعون إلا الله ولا يعبدون غيره ولا يندرون إلا لله ويحرمون ما حرم الله ورسوله فهؤلاء جند الله الغالبون وحزب الله المفلحون فانه يؤيدهم وينصرهم وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء واستغاثتهم بالله أن يفعلوا شيئا من تلك الأحوال الشيطانية بل تهرب منهم تلك الشياطين وهؤلاء معترفون بذلك يقولون أحوالنا ما تنفذ قدام أهل الكتاب والسنة وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعامه وغيرهم فهؤلاء من أهل الضلال والغي الذين يجب نهيمهم واستتابتهم ومنعهم من طاعة الشيطان والشرك والبدع والفجور وأمرهم بما أمر الله به ورسوله واتباع الكتاب والسنة ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فان الله تعالى يقول في كتابه ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَضَلَّ لَنَا يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥] وقال تعالى ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي وَالْأَيْمَنَ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢] (١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٦٧-٦٦٩.

إذا سألت فاستئذ بالله وإذا استعنت فاستعن بالله

فلا يزول فقر العبد وفاقه إلا بالتوحيد فإنه لا بد له منه وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا في طلب ما لم يحصل له والله تعالى ﴿لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وإذا حصل مع التوحيد الإستغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله والعبد مفتقر دائما إلى التوكل على الله والإستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته فلا بد أن يشهد دائما فقره إلى الله وحاجته في أن يكون معبودا له وأن يكون معيناً له فلا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه قال تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فدلّت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ويجعل ناسا خائفين منهم ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة: ٤٤] فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه قال تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِشُونِي﴾ [البقرة: ١٥٠] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [النحل: ٥١] وبعض الناس يقول يارب إنى أخافك وأخاف من لا يخافك فهذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فإتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ولم يسلطه عليك فإنه قال ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك كما قال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وفي الآثار يقول الله أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي فمن أطاعني

جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى وأطيعون أعطفهم عليكم وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله في قصائده في مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنى أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ويدخل في العبادة الخشية والإنابة والإسلام والتوبة كما قال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]^(١).

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٥٧-٥٩.

كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى وقال في الخوف والخشية والتقوى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] ^(١).

قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكروه له فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره كما قد يكره الشافع المشفوع إليه وكما يكره السائل المسؤول إذا ألح عليه وأذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه كما قال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨] والرهبة تكون من الله كما قال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] ^(٢).

ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما في الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] ^(٣).

و بعض الناس يقول يارب اني أخافك وأخاف من لا يخافك وهذا كلام ساقط لا يجوز

أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسِرَ وَاخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤] بل يجب عليه أن يخاف الله فخوف الله أمر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٠٨.

(٢) زيارة القبور ج: ١ ص: ٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥.

به وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه وقال تعالى ﴿لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُون﴾ [النحل: ٥١] وبعض الناس يقول يارب اني أخافك وأخاف من لا يخافك وهذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله فان من لا يخاف الله أحس وأذل أن يخاف فانه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه والله أعلم^(١).

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]

فبمحمد تبين الكفر من الايمان والريح من الخسران والهدى من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد فإن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله وجعلهم أمة وسطا أي عدلا خيارا ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذي جعله لهم مثل الإيمان بجميع كتب الله وجميع رسله كما قال تعالى فما أنزله الله في السور المدنية من شرائع دينه وما سنه الرسول لأمته فإن الله سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة وأمتن على المؤمنين بذلك وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٠٦ ومجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٥٧.

وَيُزَكِّكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٥١﴾ وقال تعالى ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤] قال غير واحد من السلف الحكمة هي السنة لأن الذي كان يتلى في بيوت أزواجه رضي الله عنهن سوى القرآن هو سننه ولهذا قال ﷺ إلا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي بالسنة كما ينزل بالقرآن فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن^(١).

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة^(٢).

والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة

قال تعالى ﴿فَإِن نُّنزِعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وهو الرد إلى كتاب

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٦.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٤٥.

الله أو إلى سنة الرسول بعد موته وقوله ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ﴾ [النساء: ٥٩] شرط والفعل نكرة في سياق الشرط فإى شىء تنازعوا فيه ردوه إلى الله والرسول ولو لم يكن بيان الله الرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد اليه والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك في غير موضع وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] وكان يذكر في بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فأيات الله هي القرآن اذ كان نفس القرآن يدل على انه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله والحكمة قال غير واحد من السلف هي السنة وقال أيضا طائفة كمالك وغيره هي معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهي تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق والباطل وتعليم الحق دون الباطل وهذه السنة التي فرق بها بين الحق والباطل وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر وقد جاء عنه ﷺ انه قال تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا وهذا كثير في الحديث والآثار يذكرونه في الكتب التي تذكر فيها هذه الآثار كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصنفونه في السنة مثل ابن بطه واللالكائى والطلمنكى وقبلهم المصنفون في السنة كاصحاب احمد مثل عبد الله والاثرم وحرث الكرماني وغيرهم ومثل الخلال وغيره^(١).

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجات في المعاد الا باتباع رسوله

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجات في المعاد الا باتباع رسوله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٣] وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿[النساء: ١٣-١٤] فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٧٥-١٧٦.

ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وإنما تعبدهم بطاعته واطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال ﷺ من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ في حديث العرياض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعش منكم بعدي فسيروا اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعًا من القرآن كقوله تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ط وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ط﴾ [النساء: ٨٠] وقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ط وَلَوْ أَنْهَمُ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤-٦٥] وقوله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببًا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فما أوحاه الله إليه يهدي الله به به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رَضَوْنَكَ، سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[المائدة: ١٥-١٦]﴾ فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغبي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق إلى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهور نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعِظْ قَوْمَكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥٠] ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [١٥١] ﴿فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢] وقال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [ال عمران: ١٦٤] قال تعالى ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظْمِ بَدَنِ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وقال تعالى عن الخليل ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى ﴿وَأذْكُرْ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي

وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان منقولاً بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدى والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفي الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك إلى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب لهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيق الطعام والشراب وترك معاشرته الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حبه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حبيب إلى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدى ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصاً في أعمال الدين يعملها لله كان

من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] وقد فسر النبي البشرى في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي ﷺ عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الريان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما إلى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأترون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الإسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأترونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتماد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول كما قال تعالى ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ط فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن الا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من

هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاته الله ورسوله وماداة من عدل عنه قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وأهل العلم الماثور عن الرسول أعظم الناس قياما به الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصددهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ؕ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ؕ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا ؕ وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ؕ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ؕ وَعَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيافته عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجانب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعدا فليتبوا مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة

ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلا من أصحاب النبي ﷺ وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه^(١).

الرد على دعوة النصارى بان محمد ارسل إلى قومه والعرب فقط

وأما احتجاجهم بقوله تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] وهذا في عمومه نزاع فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَّوَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ [الأنعام: ٨-٩] وأما أن يكون الخطاب للعرب وعلى التقديرين فإن ما تضمن ذكر أنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم فإنه إن كان خطابا للإنس كلهم فهو أيضا مرسل إلى الجن وليس من جنسهم فكيف يمتنع إذا كان خطابا للعرب بما امتن به عليهم أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به قال تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤-١١.

أُولِيَاءَ أَوْلِيَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[الأحقاف: ٢٩-٣٢]﴾^(١).

عموم رسالة محمد ﷺ

فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعاً ظاهراً معروفاً عندهم فهو منقول عن الرسول نقلاً متواتراً بل معلوماً بالاضطرار من دينه فإن الصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق ووجوب العدل والصدق وتحريم الشرك والفواحش والظلم بل وتحريم الخمر والميسر والربا وغير ذلك منقول عن النبي نقلاً متواتراً كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك ومن هذا الباب عموم رسالته وأنه مبعوث إلى جميع الناس أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقلين الإنس والجن وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك وأنهجاهدهم وأمر بجهادهم فالمسلمون عندهم منقولاً عن نبيهم نقلاً متواتراً ثلاثة أمور لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها والسنة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن كما قال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]^(٢).

فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنة المتواترة

أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمداً كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقاً وعملاً فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة كما قال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٤١.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١١.

تَعَلُّونَ ﴿البقرة: ١٥١﴾^(١).

وقال ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنن المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعاً وكون المغرب ثلاث ركعات وكون الصبح ركعتين ومثل الجهر في العشاءين والفجر والمخافتة في الظهر والعصر ومثل كون الركعة فيها سجدتين وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعا ورمي الجمرات كل واحدة سبع حصيات وأمثال ذلك وأيضا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي أنه قال إن ربي قال لي إني منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا يقول ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب القديمة فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلا متواترا محفوظة في الصدور والقرآن ما زال محفوظا في الصدور نقلا متواترا^(٢).

وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن بل كما تواتر عنه في شريعته ما ليس في القرآن وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه كذلك وتواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن وهو من براهينه وآياته وقد قال تعالى في غير موضع ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فالحكمة نزلت عليه وهي منقولة في غير القرآن وقد تواتر عنه كون الصلوات خمسا والفجر ركعتين المغرب ثلاثا والباقي اربعا اربعا والرباعية في السفر ركعتان وتواتر عنه سجود السهو كذلك متواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المتواترة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلية مفصلة كأنما رآها بعينه لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي^(٣).

(١) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٩.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٣.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٦٨.

والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول وباتباعه وطاعته
مطلقا

قد أمرنا الله تعالى بإتباع ما أنزل إلينا من ربنا وبإتباع ما يأتي منه من الهدى وقد
أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] والحكمة من الهدى قال تعالى ﴿وإن تُطِيعُوهُ
تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث
بها الرسول وباتباعه وطاعته مطلقا وقال تعالى واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله
والحكمة وقال تعالى ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] وقال
تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال
تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢-٣]
وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] وقوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى
يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ نَسِيًّا لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَافِيًّا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ
الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] فهذه النصوص
توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوبا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات
توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوبا بعينه في حديث عن الرسول غير

الكتاب فعلينا ان نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر فإن الرسول بلغ الكتاب والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] والأحاديث كثيرة عن النبي في وجوب اتباع الكتاب وفي وجوب اتباع سنته كقوله لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من امري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه آلا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا وانه مثل القرآن أو أعظم هذا الحديث في السنن والمسانيد مأثور عن النبي ﷺ من عدة جهات من حديث أبي ثعلبة وأبي رافع وأبي هريرة وغيرهم وفي صحيح مسلم عنه من حديث جابر أنه قال في خطبة الوداع وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى وسنة نبيه وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أو في أنه قيل له هل أوصى رسول الله قال لا قيل فكيف كتبه على الناس الوصية قال أوصى بكتاب الله وسنة رسول الله تفسر القرآن كما فسرت أعداد الصلوات وقدر القراءة فيها والجهر والمخافتة وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبتها وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار ونحو ذلك وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها وقد يكون من سنته ما يظن أنه مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن فهذه السنة أيضا مما يجب اتباعه عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين إلا من نازع في ذلك من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قاتلهم يوم القيامة وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة في وصفهم وذمهم والأمر بقتلهم عن النبي ﷺ قال أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم من عشرة أوجه كأنها هي التي أشار إليها أحمد بن حنبل فإن مسلما أخذ عن أحمد وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه وهؤلاء أولهم قال للنبي يا محمد اعدل فانك لم تعدل

فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه لكنهم يوجبون اتباع ما بلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم ولهذا قال النبي ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل وقال لقد خبت وخسرت إن لم أعدل أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمنى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ [آل عمران: ١٦١] وفي الجملة فالقرآن يوجب طاعته في حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه في هذا أو هذا كما قال تعالى في حكمه ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ^(١).

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام لا يحتاج إلى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبي وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] ^(٢).

أن الرسول بين للناس الادلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة في دعوة ابراهيم وفي قوله تعالى ﴿ كَمَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٨٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٤.

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ [البقرة: ١٥١] (١).

وأصل زكاة النفس بالتوحيد واخلاص الدين لله

وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو

به النفس كما قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وكذلك

ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى ﴿رَكُوعًا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾

[النور: ٢١] وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ

﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧] وهي عند المفسرين التوحيد (٢).

فتلاوة الآيات يحصل بها العلم

فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب

والحكمة فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فإن الآيات

هي العلامات والدلالات فاذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما

أخبر والإقرار بوجوب طاعته وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة

الله وحده وطاعته فالتزكية تكون بطاعة أمره كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت

آيات القرآن آيات وقيل انها آيات الله كقوله ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾

[البقرة: ٢٥٢] لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به

وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضا على أن الرسول صادق اذ كانت مما لا يستطيع

الانس والجن أن يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع

وأیضا فهي نفسها فيها من بينات الادلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه

متعددة ثم قال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] وهذا لمن يعلم ذلك منهم

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٧٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩.

وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦] ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل انها دلائل للرب وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الانبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والانباء جاءت بالآيات والنذر وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا لَا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٤٣] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤] وقال تعالى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [ال عمران: ١٨٤] ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الانبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك من شابههم مثل ابن درباس وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي وهو المشهور عن أهل الحديث والفقهاء الذين يذمون الكلام وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين الحنبلي المتكلم وبين طائفة من أصحاب أحمد وكذلك بين أبي الفرج بن الجوزي وطائفة منهم أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع^(١).

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٧٣.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

فلا تأتي الرسل صلوات الله عليهم بما يعلم نقيضه ولكن قد تأتي بما لم يكن يعلم
كما قال ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] ^(١).

والشكر يكون بالقول وهو الحمد ويكون بالعمل

ولما قال سبحانه ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ذكر التكبير والشكر كما في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا
لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢] والشكر يكون بالقول وهو الحمد ويكون بالعمل كما قال
تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] فقرن بتكبير الأعياد الحمد فليل الله أكبر الله
أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد لأنه قد طلب فيه التكبير والشكر ولهذا
روى في الأثر أنه يقال فيه الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ليجمع بين
التكبير والحمد حمد الشكر كما جمع بين التحميد تحميد الثناء والتكبير في قوله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]
فأمر بتحميده وتكبيره ومعلوم أن الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن أربع
سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وهي شطران فالتسبيح قرين التحميد
ولهذا قال النبي كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان
الله وبجمده سبحان الله العظيم اخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة ^(٢).

فالمؤمن دائما في نعمة من ربه تقتضي شكرا وفي ذنب يحتاج إلى استغفار
في الصحيحين أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر
الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا وقال ﷺ لا يتمنين

(١) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٣٠-٢٣١.

أحدكم الموت إما محسن فيزداد إحسنا وإما مسيئا فلعله أن يستعقب المأمون دائما في نعمة من ربه تقتضي شكرا وفي ذنب يحتاج إلى إستغفار وهو في سيد الإستغفار يقول أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وقد علم تحقيق قوله ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكرا وما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكرا للذنوبه يوجب توبة وإستغفارا وقد جعل الله ﴿الْيَلَّ وَالنَّهَارَ خِلفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] فيتوب ويستغفر من ذنوبه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] لربه على نعمه وكل ما يفعله الله بالعبد من نعمة وكل ما يخلفه الله فهو نعمة الله عليه فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر وإذا نظر إلى نفسه إستغفر والتذكر قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه وقد يدخل فيه تذكر آلائه ونعمه فإن ذلك يدعو إلى الشكر قال تعالى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩] في غير موضع فقد أمر بذكر نعمه فالمتذكر يتذكر نعم ربه ويتذكر ذنوبه وأيضا فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه فإن الشكر ثابت في الدنيا والآخرة وذكر التذكر لأنه أصل للإستغفار والشكر وغير ذلك فذكر المبدأ وذكر النهاية وهذا المعنى يجمع ما قيل والله سبحانه أعلم والتذكر إسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره كما قال ﴿أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] أي قامت الحجة عليكم بالذير الذي جاءكم وبتعميركم عمرا يتسع للتذكر وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع كقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١] والمطلوب بذكرها شكرها كما قال ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّوْا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥١] وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١] يتناول كل من خوطب بالقرآن

وكذلك قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فالرسول من أنفس من خطب بهذا الكلام إذ هي كاف الخطاب ولما خطب به أولا قريش ثم العرب ثم سائر الأمم صار يخص ويعم بحسب ذلك وفيه ما يخص قريشا كقوله ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [الفهم رحلة الشتاء والصيف] [قريش: ١-٢] وقوله ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وفيه ما يعم العرب ويخصهم كقوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢] والأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب ثم قال ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة كما قال ذلك مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد وغيرهما فإن قوله ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٣] أي في الدين دون النسب إذ لو كانوا في النسب لكانوا من الأميين وهذا كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي ﷺ عنهم فقال لو كان الإيمان معلقا بالثريا لتناولوه رجال من أبناء فارس فهذا يدل على دخول هؤلاء لا يمنع دخول غيرهم من الأمم وإذا كانوا هم منهم فقد دخلوا في قوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فالمنة على جميع المؤمنين عربهم وعجمهم سابقهم ولاحقهم والرسول منهم لأنه إنسى مؤمن وهو من العرب أخص لكونه عربيا جاء بلسانهم وهو من قريش أخص والخصوص يوجب قيام الحجة لا يوجب الفضل إلا بالإيمان والتقوى لقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش وهم ليسوا من ربيعة ولا مضر بل من قحطان وأكثر الناس على أنهم من ولد هود ليسوا من ولد إبراهيم وقيل إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال إرموا فإن أباكم كان راميا وأسلم من خزاعة وخزاعة من ولد إبراهيم وفي هذا كلام ليس هذا موضعه إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسبا من كل ربيعة ومضر مع كثرة

هذه القبائل ومع هذا هم أفضل من جمهور قريش إلا من السابقين الأولين من المهاجرين وفيهم قرشي وغير قرشي ومجموع السابقين ألف وأربعمائة غير مهاجري الحبشة فقله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يخص قريشا والعرب ثم يعم سائر البشر لأن القرآن خطاب لهم والرسول من أنفسهم والمعنى ليس بملك لا يطيقون الأخذ منه ولا جنى ثم يعم الجن لأن الرسول أرسل إلى الإنس والجن والقرآن خطاب للثقلين والرسول منهم جميعا كما قال ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ اللَّهُ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس فإن الإنس والجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين فإنهم يأكلون ويشربون وينكحون وينسلون ويغتذون وينمون بالأكل والشرب وهذه الأمور مشتركة بينهم وهم يتميزون بها عن الملائكة فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ولا تنسل فصار الرسول من أنفس الثقلين بإعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة حتى كان الرسول مبعوثا إلى الثقلين دون الملائكة وكذلك قوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] هو كقوله ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِمَكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] ثم قال ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢] والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها وقال ﴿يَبْنِي إِسْرَاءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] في غير موضع وقال للمؤمنين ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به ومما أمروا به تذكرة قصص الأنبياء المتقدمين كما قال ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١] ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٥١] ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: ٥٤] ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ﴾ [مريم: ٥٦] وقال ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ﴿وَأذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ﴾

وَالْيَسَعَ ﴿ص: ٤٨﴾ ومما أمروا به تذكرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب قال تعالى ﴿إِنَّا
أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ﴾ ﴿ص: ٤٦﴾^(١).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾
[طه: ١٢٤]

فان الله تعالى قال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه
قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي
وان ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم وان تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وان
تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وان اتانى يمشى أتيته هرولة فهذا الذكر يختص بمن ذكره
فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ومن اعرض عن
الذكر الذى أنزله أعرض عنه كما قال ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١٣٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَد كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ
ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا ط وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي ﴿طه: ١٢٤-١٢٦﴾ ومثله قوله ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ
مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقد فسروا هذا النسيان بأنه وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفي
الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال أظننت أنك ملاقى قال لا قال فاليوم أنساك كما
نسيته فهذا يقتضى أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته هو متعلق بمشيئته وقدرته ايضا
وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمل ولما عمل علم ما عمل
ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا جماع الفرقان بين الحق
والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى وطريق السعادة والنجاة وطريق الشاوة
والهلاك ان يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨٧-١٩١.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٣٤-١٣٥.

لطائف لغوية

أنه سبحانه لما قال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] أوجب ذلك اختصاص كل قوم بوجهتهم وبشرعتهم وذلك أن اللام تورث الاختصاص فإذا كان لليهود عيد وللنصارى عيد كانوا مختصين به فلا نشركهم فيه كما لا نشركهم في قبلتهم وشريعتهم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨] قدير منزه عن العجز والضعف^(٢).

وأما لفظ وجهة مثل قوله ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] فقد يظن أيضا أنه مصدر كالوجه كالوعدة مع الوعد وانها تركت صحيحة فلم تحذف فاؤها وليس كذلك لأنه لو كان مصدرا لحذفت وأوه وهو الجهة وكان يقال ولكل جهة أو وجه وإنما الفعل هنا بمعنى المفعول كالقبلة والبدعة والذبيحة ونحو ذلك فالقبلة ما استقبل والوجهة ما توجه اليه والبدعة ما ابتدع والذبيحة ما ذبح ولهذا صح ولم تحذف فاؤه لأن الحذف إنما هو من المصدر لا من بقية الأسماء كالصفات وما يشبهها مثل أسماء الأمكنة والأزمنة والآلات والمفاعيل وغير ذلك^(٣).

وأما قول بعض الفقهاء ان الوجه مشتق من المواجهة فلا دليل عليه بل قد عارضه من قال هو مشتق من الوجاهة وكلاهما ضعيف وإنما المواجهة مشتق من الوجه كما أن المشافهة مشتق من الشفة والمناظرة بمعنى المقابلة مشتقة من النظر والمعانية من العين وأما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه من الوجه الذي هو التوجه فهذا أشبه لأن توجهه هو فعله المختص به الذي لا يفتقر فيه إلى غيره بخلاف المواجهة فإنها تستدعي اثنين والانسان هو حارث همام وهمه هو توجهه وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أي شيء أرادته وتوجه اليه ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٩٣.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٢٩.

[البقرة: ١١٢] وقول الخليل ونبينا والمؤمنين في الصلاة ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] وقوله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠] يقول كثير من أهل العلم أن الوجه في مثل قوله ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩] هو الوجه الظاهر كما أنه كذلك بالاتفاق في قوله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠] ^(١).

والحجة هي ما يحتج به الخصم وإن كان باطلا فليس من شرط لفظ الحجة أن تكون حقا بل إذا كانت حقا سميت بينة وبرهانا ودليلا ولهذا قال تعالى ﴿لِيَأْخُذَ اللَّهُ الْحِسَابَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [البقرة: ١٥٠] وهم المشركون يحتجون عليكم بحجة باطلة فيقولون قد رجع إلى قبلتنا فيوشك أن يرجع إلى ديننا وبهذا فسر الآية علماء الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن قال من المتأخرين إن إلا بمعنى الوأو وقالوا إن المراد لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم قولهم من الباطل الذي يظهر فساده من وجوه كثيرة وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُمْ جُجُنُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقال في الحق ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣] وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعا من النار ^(٢).

فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل كقوله ﴿لِيَأْخُذَ اللَّهُ الْحِسَابَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [البقرة: ١٥٠] فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل كقوله ﴿لِيَأْخُذَ اللَّهُ الْحِسَابَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) الصنفية ج: ٢ ص: ٣١٦-٣١٧.

الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴿[البقرة: ١٥٠]﴾ فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلتكم فسوف يعود إلى ملتكم فهذه حجة داحضة من الظالمين^(١).

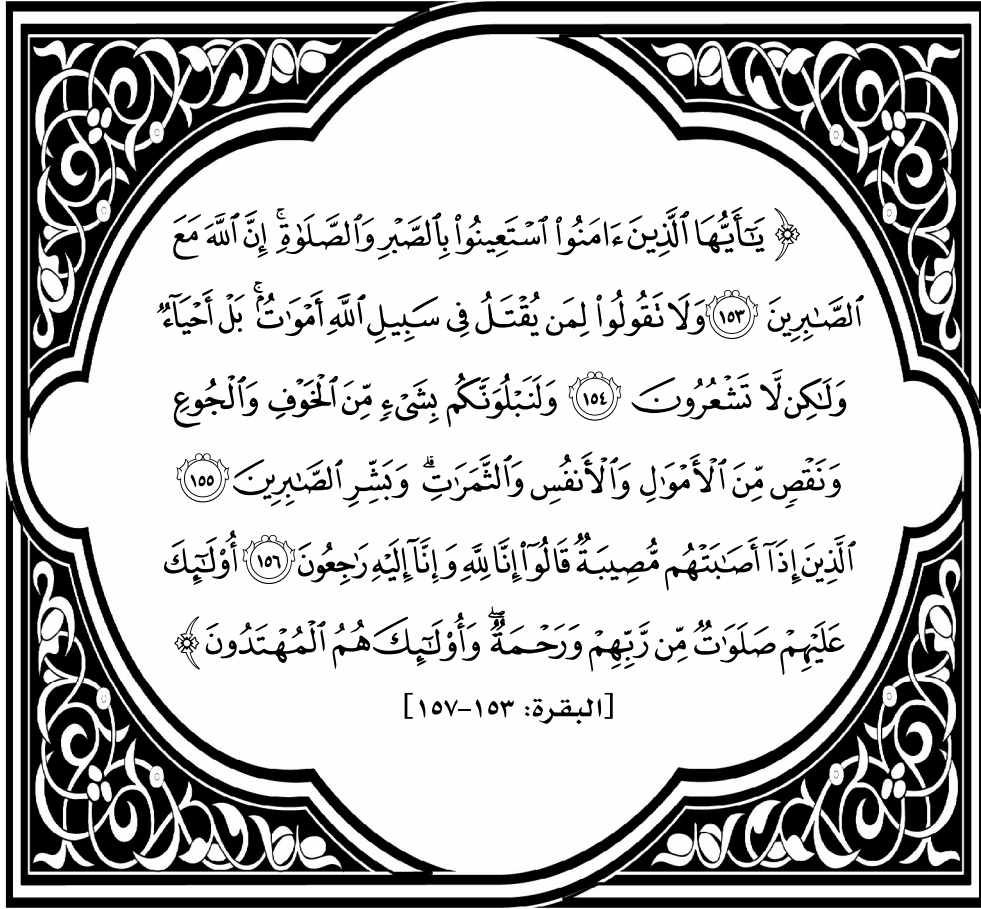
و الخشية في القرآن مطلقة تتناول خشية الله وخشية عذابه في الدنيا والآخرة^(٢).

وقال تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وجواب الشرط مع الشرط كالسبب مع مسببه ومثله في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة^(٣).

(١) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧٤.

(٣) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٦٦.



الصلاة عماد الدين

أن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي في الصلاة والجهاد وكان اذا عاد مريضاً يقول اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا ولما بعث النبي معاذ إلى اليمن قال يا معاذ إن أهم أموركم عندي الصلاة وكذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله ان أهم أموركم عندي الصلاة فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وذلك لأن النبي قال الصلاة عماد الدين فاذا اقام المتولى عماد الدين فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهى التى تعين الناس على ما سواها من الطاعات كما قال الله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال سبحانه وتعالى

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقال للنبي
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلنَّفَّاثِينَ﴾ [طه: ١٣٢] وقال
تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] (١).

قد ثبت عن النبي بأن العبد اقرب ما يكون من ربه وهو ساجد وقد قال النبي
استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء الا
مؤمن وفي الصحيح عن ابن مسعود عن النبي انه سئل أى الأعمال أفضل قال الصلاة
على مواقيتها وفي الحديث عن النبي أنه قال أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته
وآخر شيء وصى به النبي امته الصلاة وكان يقول جعلت قره عيني في الصلاة وكان
يقول ارحنا يا بلال بالصلاة ولم يقل ارحنا منها فمن لم يجد قره عينه وراحة قلبه في
الصلاة فهو منقوص الايمان قال الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال النبي ﷺ راس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه
الجهاد في سبيل الله (٢).

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على
المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله
عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه
ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجهه الله من العبادات
والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به
النبي ﷺ أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول
ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب ذهب الدين كله وهي
عمود الدين فمتى ذهب سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٦١ والسياسة الشرعية ج: ١ ص: ٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٤٠.

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها وبالصبر تارة كقوله تعالى ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] ^(١).

فان النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر

الحسنات تعلق بعلمتين احدهما ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة والثانية ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة وكذلك السيئات تعلق بعلمتين إحدهما ما تتضمنه من المفسدة والمضرة والثانية ما تتضمنه من الصد عن المنفعة والمصلحة مثال ذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فبين الوجهين جميعا فقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] بيان لما تتضمنه من دفع المفسد والمضار فان النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه لا سيما على وجه الخصوص أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر كما يحسه الانسان من نفسه ولهذا قال تعالى ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] فإن القلب يحصل له من الفرح والسرور وقرّة العين ما يغنيه عن اللذات المكروهة ويحصل له من الخشية والتعظيم لله والمهابة وكل واحد من رجائه وخشيته ومحبته ناه عنها ^(٢).

والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة

والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة كما قال الحسن ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم والمؤلم ان كان مما يمكن دفعه أثار الغضب وان كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن ولهذا يجرم الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٩٢.

العجز ولهذا جمع النبي في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود قال قال النبي ما تعدون الرقوب فيكم قالوا الرقوب الذى لا يولد له قال ليس ذلك بالرقوب ولكن الرقوب الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا ثم قال ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذى لا تصرعه الرجال فقال ليس بذلك ولكن الصرعة الذى يملك نفسه عند الغضب فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب قال الله تعالى في المصيبة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] وقال تعالى في الغضب ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]^(١).

الإسلام هو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه فإنه لا يقبل دين إلا دين الإسلام وهو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه ويسلم لما يأمر به ويحبه وهذا نفعه وندعو إليه وذاك نسلمه ونتوكل فيه عليه فنرضى بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد نبيا ونقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] مثل قوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله تعالى ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [١١٤] وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥]^(٢).

متى يكون الصبر واجبا

ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك منالصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر في

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٧٩.

كتابه في اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]^(١).

يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا

وأعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الاخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثانى الاحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وكقوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ﴾ (١١٣) ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥] وقوله تعالى ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وكذلك في سورة ق ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية إذا عرف الانسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوه كتابه واخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة الاحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبى انه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ مامنكم من احد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٨ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٤ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٥٤.

إلا شيئاً قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فان لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي قال لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منبسط ولو ان تفرغ من دلوك في إناء المستفي وفي السنن عن النبي ان أنقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروى عنه انه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفِّرُ ۚ كَفُورٌ ۝٩﴾ وَلَيْنَ أَذْقْتَهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿هود: ٩-١١﴾ وقال لنبيه ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣-١٣٤] وقال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٦] وقال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۗ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] قال الحسن البصرى رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح^(١).

أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل ﴿وَأَقِيمُوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٦١-٣٦٤ والسياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١١.

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴿البقرة: ٤٣﴾ وإذا ذكرت المناسك قيل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْرَسْ﴾
 [الكوثر: ٢] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وإن ذكر
 الصوم قيل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فإن
 الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال ﷺ صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر^(١).

الكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر

وفي الصحيح عن النبي أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى
 هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير
 الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو
 به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق
 والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان إتبع لما يأمر الله به
 ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل
 وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى
 الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار
 المحاربيين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العافية وقد
 قرن الصبر بالأعمال الصالحة وخصوصا فقال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ
 اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] وفي إتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله
 وطاعة لأمره وقال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:
 ٤٥] وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]
 فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر^(٢).

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٨٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٧٧ ومجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٥ والزهد والورع والعبادة
 ج: ١ ص: ١٠٩.

فعامة الاشضاع التى فى القرآن إما عملان وإما وصفان فى عمل
وقد ذكر الله سبحانه فى البقرة والنساء الأقسام الأربعة فى العطاء إما أن لا يعطي
فهو البخيل المذموم فى النساء أو يعطى مع الكراهة والمن والأذى فلا يكون بتثيت وهو
المذموم فى البقرة أو مع الرياء فهو المذموم فى السورتين فبقي القسم الرابع ابتغاء رضوان
الله وتثيتا من أنفسهم ونظيره الصلاة أما أن لا يصلي أو يصلي رياء أو كسلان أو يصلي
مخلصا والأقسام الثلاثة الأول مذمومة وكذلك الزكاة ونظير ذلك الهجرة والجهاد فإن
الناس فيهما أربعة أقسام وكذلك ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]
فى الثبات والذكر وكذلك ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البعد: ١٧] فى الصبر والرحمة
أربعة أقسام وكذلك ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] فهم فى الصبر والصلاة
فعامة هذه الاشضاع التى فى القرآن إما عملان وإما وصفان فى عمل انقسم الناس فيها
قسمة رباعية ثم ان كانا عمليين منفصلين كالصلاة والصبر والصلاة والزكاة ونحو ذلك
نفع احدهما ولو ترك الآخر وان كانا شرطين فى عمل كالاخلاص والتثيت لم ينفع
احدهما فإن المن والأذى محبط كما أن الرياء محبط كما دل عليه القرآن ومن هذا تقوى
الله وحسن الخلق فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] والبر
والتقوى والحق والصبر وأفضل الإيمان السماحة والصبر بخلاف الاشضاع فى الذم كالافك
والاثم والاختيال والفخر والشح والجبن والاثم والعدوان فإن الذم ينال احدهما مفرد
أو مقرونا لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته فقد لا تحصل المنفعة الا بتمامة
والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر فى الجملة غالبا^(١).

والمعية فى كتاب الله على وجهين عامة وخاصة

والمعية فى كتاب الله على وجهين عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٩٦-٩٧.

فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوثُ مِنْ تَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ [المجادلة: ٧] فهذه المعية عامة لكل متناجين وكذلك الأولى عامة لجميع الخلق ولما أخبر سبحانه في المعية أنه رابع الثلاثة وسادس الخمسة قال النبي ﷺ ما ظنك باثنين الله ثالثهما فإنه لما كان معهما كان ثالثهما كما دل القرآن على معنى الحديث الصحيح وإن كان هذه معية خاصة وتلك عامة وأما المعية الخاصة فكقوله تعالى لما قال لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] فهذا تخصيص لهما دون فرعون وقومه فهو مع موسى وهارون دون فرعون وكذلك لما قال النبي ﷺ لأبي بكر ﴿لَا تَخْرَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان معناه إن الله معنا دون المشركين الذين يعادونهم أو يطلبونهما كالذين كانوا فوق الغار ولو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهذا تخصيص لهم دون الفجار والظالمين وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] تخصيص لهم دون الجازعين وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ [المائدة: ١٢] وقال ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] ^(١).

فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إله يوم القيامة والكتاب هو الحاكم بين الناس شرعا ودينا وينصر القائم نصرا وقدرنا وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨] إلى قوله ﴿وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] وقال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٧٣-٣٧٤.

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿[الحديد: ٢٥]﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] والميزان هو العدل به يعرف العدل وأنزل الحديد لينصر الكتاب فان قام صاحبه بذلك كان سعيدا مجاهدا في سبيل الله فان الله نصر الكتاب بأمر من عنده وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] إلى قوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله لأبي بكر ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وكل من وافق الرسول في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك وله نصيب من قوله ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه وقال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] إلى آخر السورة وقال تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [التقصص: ٨٣]^(١).

فإن الله مع الصابرين بالهداية والنصر والإعانة^(٢).

فإن اللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والاحزان ليس دفعه اياه وقت الصلاة فقط كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]^(٣).

ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٧.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٤٠٥.

(٣) الاستقامة ج: ٢ ص: ١٤٦.

بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكييفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانصافات: ١٨٠-١٨٢] فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ^(١).

موت النفس فراقها للبدن

وأعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري قالوا إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والارادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي والحياة مشتق من الحياة فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٦ والعقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٧.

القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي ﷺ الحياء من الإيمان وقال الحياء والعبي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف الرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حيائه وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيه وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضر ولهذا كان الحيي يظهر عليه التأثير بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حياً فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] مع أنهم موتى داخلون في قوله آل عمران ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وفي قوله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] فالموت المثلث غير الموت المنفي النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتاً وكانت الحياة موجودة فيهما قال تعالى الزمر ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلِهَا الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول الحمد لله الذي أحيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور وفي حديث آخر الحمد لله الذي رد على روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاهَا لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمتها وان أرسلتها فاحفظها لما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم اموت واحياً^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١١١ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ١٣.

ان الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد
وأما ما أخبر الله به من حياة الشهيد ورزقه وما جاء في الحديث الصحيح من
دخول أرواحهم الجنة فذهب طوائف إلى أن ذلك مختص بهم دون الصديقين وغيرهم
والصحيح الذى عليه الأئمة وجماهير أهل السنة ان الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة
ليس مختصا بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ويختص الشهيد بالذكر لكون
الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد
والشهادة كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وان كان قتلهم لا
يجوز مع عدم خشية الاملاق^(١).

الأدلة على عذاب القبر

أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقا زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن
وهو غلط بل القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن وبين النعيم
والعذاب في البرزخ وهو سبحانه تعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى وأن
الناس يكونون أزواجا ثلاثة كما قال تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ
﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا
﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ [الواقعة: ١-٧] ثم إنه في آخرها القيامة الصغرى بالموت وأنهم ثلاثة
أصناف بعد الموت فقال ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ
الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦] فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم
لا يمكنهم رجوعها وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ وفي سورة القيامة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٣٣٢.

ذكر أيضا القيامتين فقال ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ٢] ثم قال ﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢] وهي نفس الإنسان وقد قيل إن النفس تكون لوامة وغير لوامة وليس كذلك بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وأما في الآخرة فهذا إثبات النفس ثم ذكر معاد البدن فقال ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينًا عَلَّمَ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ ﴿٤﴾ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ٣-٦] ووصف حال القيامة إلى قوله ﴿تُظَنُّ أَنْ يُعَلَّ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥] ثم ذكر الموت فقال ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦] وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك ﴿بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والتراقي متصلة بالحلقوم ثم قال ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧] يرقبها وقيل من صاعد يصعد بها إلى الله والأول أظهر لان هذا قبل الموت فإنه قال ﴿وَتَظَنُّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨] فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقيا يرقبه وأيضا فصعدوا لا يفتقر إلى طلب من يرقى بها فإن الله ملائكة يفعلون ما يؤمرون والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني ولهذا قال النبي في صفة المتوكلين لا يسترقون والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي ولهذا قال ﴿وَتَظَنُّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨] ثم قال ﴿وَأَلْفَتِ السَّاقُ السَّاقَ بِالسَّاقِ﴾ ﴿٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠] فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق ولا بدن الميت فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك وكذلك سورة ق هي في ذكر وعيد القيامة ومع هذا قال فيها ﴿وَجَاءَتِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] ثم قال بعد ذلك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] فذكر القيامتين الصغرى والكبرى وقوله ﴿وَجَاءَتِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب وهو الحق الذي أخبرت به الرسل ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت

فإن هذا مشهور لم ينازع فيه ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال جاءت بالحق وقوله ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ نَجِئِدُ﴾ [ق: ١٩] فلإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقية ملائكته وهذا كقوله ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين ما بعد الموت كما قال النبي أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه وإلا فنفس الموت مجرد عما بعده أمر مشهور لم ينازع فيه احد حتى يسمى يقينا وذكر عذاب القيامة والبرزخ معا في غير موضع ذكره في قصة آل فرعون فقال وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦] وقال في قصة قوم نوح ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] مع إخبار نوح لهم بالقيامة في قوله ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨] وقد ذكرنا في غير موضع أن الرسل قبل محمد أنذروا بالقيامة الكبرى تكذيبا لمن نفي ذلك من المتفلسفة وقال عن المنافقين ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] قال غير واحد من العلماء المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ ثم يردون إلى عذاب عظيم في الآخرة وقال تعالى في الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣-٩٤] وهذه صفة حال الموت وقوله ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] دل على وجود النفس التي تخرج من البدن وقوله ﴿الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] دل على وقوع الجزاء عقب الموت وقال تعالى في الأنفال ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلِكَةَ يَصْرِيحُ وَجُوهُهُمْ وَأَْبْرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١] وهذا ذوق له بعد الموت وقال تعالى ﴿فَكَيْفَ

إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ [محمد: ٢٧] وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي ﷺ لما أتى المشركين يوم بدر في القلب ناداهم يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقد وجدت ما وعدنى ربي حقا وهذا دليل على وجودهم وسماعهم وإنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم وقال تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] وهذا خطاب لهم إذا توفتهم الملائكة وهم لا يعينون الملائكة إلا وقد يتسوا من الدنيا ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه بل هو شاهد يعلم أن الذى يخاطب الملائكة هو النفس والمخاطب لا يكون عرضا وقال تعالى في النحل ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨-٢٩] وهذا إلقاء للسلم إلى حين الموت وقول للملائكة ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وهذا إنما يكون من النفس وقد قال في النحل ﴿الَّذِينَ نُوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال في فصلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] وقد ذكروا أن هذا التنزل عند الموت وقال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] وقال قبل ذلك في سورة البقرة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمَوْتُ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ١٥٤﴾ وأيضاً قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ [الزمر: ٤٢] (١).

لابد من الفتنة لكل من الداعى إلى الايمان

فما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان الذى يخلص الله به أهل الصدق والايمن من أهل النفاق والبهتان اذ قد دل كتابه على أنه لابد من الفتنة لكل من الداعى إلى الايمان والعقوبة لذوى السيئات والطغيان قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ [العنكبوت: ١-٤] فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب وأن مدعى الايمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب وأخبر في كتابه أن الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله فقال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴿١٤﴾ [الحجرات: ١٤] إلى قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات: ١٥] وأخبر في كتابه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة الذى يعبد الله فيها على حرف وهو الجانب والطرف الذى لا يستقر من هو عليه بل لا يثبت الايمان الا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١] وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وأخبر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٦٤-٢٦٨.

سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]

وهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الإيمان الصابرون على الإمتحان كما قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى قوله تعالى ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٤﴾ فَآَنَّهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]

فإذا أنعم الله على الإنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى الله له من القضاء خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له والصابر الشكور هو المؤمن الذى ذكره الله في غير موضع من كتابه ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال وكل واحد من السراء والضراء فيحقه يفضى إلى قبيح المآل فكيف اذا كان ذلك في الأمور العظيمة التى هى من محن الأنبياء والصديقين وفيها تثبت أصول الدين وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان^(١).

والشجاعة هي قوة القلب وثباته

والشجاعة ليست هي قوة البدن فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب وانما هي قوة القلب وثباته فأن القتال مداره على قوة البدن وصنعتة للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢١٢-٢١٤ ومجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٧٤ ومجموع الفتاوى ج:

٢٥ ص: ٣٠٨ ومجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥١١-٥١٢.

يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد وقد تقدم ان جماع ذلك هو الصبر فإنه لا بد منه والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة كما قال الحسن رحمه الله ما تجرع عبد جرعة اعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم والمؤلم ان كان مما يمكن دفعه اثار الغضب وان كان مما لا يمكن دفعه اثار الحزن ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ ما تعدون الرقوب فيكم قالوا الرقوب الذي لا يولد له قال ليس ذاك بالرقوب ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً ثم قال ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا يصرعه الرجال فقال ليس بذلك ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب قال الله تعالى في المصيبة ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] (١).

الواجب عند المصائب الصبر والاسترجاع

فالواجب عند المصائب الصبر والاسترجاع كما يحبه الله ورسوله قال الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين عن النبي ﷺ أنه قال ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكر مصيبتة وإن قدمت فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها ورواية الحسين وابنته التي شهدت مصرعه لهذا الحديث اية فإن مصيبة الحسين هي ما يذكر وإن قدمت فيشرع للمسلم أن يحدث لها استرجاعاً وأما ما يكرهه الله ورسوله من لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى

(١) الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٧٣.

الجاهلية فهذا محرم تبرأ النبي ﷺ من فاعله كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية وتبرأ من الصالقة والحالقة والشاقة فالصالقة التي ترفع صوتها عند المصيبة والحالقة التي تخلق شعرها والشاقة التي تشق ثبايها وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب وسربالا من قطران ورفع إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نائحة فأمر بضربها فليل يا أمير المؤمنين إنه قد بدا شعرها فقال إنه لا حرمة لها أنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتأمراً بالجزع وقد نهى الله عنه وتفتن الحي وتؤدي الميت وتبيع عبرتها وتبكي بشجو غيرها إنها لا تبكي على ميتكم إنما تبكي على أخذ دراهمكم^(١).

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]

أن ما أصابه من المصائب مكفر الذنوب ويؤجر العبد على صبره عليها وويرفع درجته برضاه بما يقضيه الله عليه منها قال الله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ورجته برضاه بما يقضيه الله عليه منها قال الله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١] قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفي الصحيحين عن النبي أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وفي المسند أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر يا رسول الله نزلت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك الأواء فذلك ما تجزون به وفيه أيضا المصائب حطة تحط الخطايا عن صاحبها كما تحط الشجرة القائمة ورقها والدلائل على أن المصائب كفارات كثيرة إذا صبر عليها أثيب على صبره فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر وأما نفس المصيبة فهي من فعل الله لا من فعل العبد وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها وفي المسند أنهم دخلوا على أبي عبيدة بن الجراح وهو مريض فذكروا أنه يؤجر على مرضه فقال مإلى من الأجر ولا مثل هذه ولكن المصائب

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٥٥١.

حطة فبين لهم أبو عبيدة رضى الله عنه أن نفس المرض لا يؤجر عليه بل يكفر به عن خطاياهم وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب فيكون فيه أجر بهذا الاعتبار ومن الناس من يقول لا بد فيه من التعويض والأجر والإمتنان وقد يحصل له ثواب بغير عمل كما يفعل عنه من أعمال البر وأما الصبر على المصائب ففيها أجر عظيم قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] (١).

فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث في حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] فإن قيل ففي الأنبياء من قد قتل كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق وفي أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ويسلطه على مذنبين كما سلط بخت نصر على بني إسرائيل وكما يسלט كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين قيل أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد شهيدا قال تعالى ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ فإِنَّهُمْ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨] ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٦٣-٣٦٤.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولهذا قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا لِأَحَدٍ أَلْحُسَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] أي إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا وهذا غاية ما يكون من النصر إذ كان الموت لا بد منه فالموت على الوجه الذي يحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت إما أنهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء علمين بأن لهم السعادة في الآخرة وفي الدنيا بانتصار طائفتهم وبقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء بخلاف من هلك من الكفار فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكاً لا يرجون معه سعادة الآخرة ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين وقيل فيهم يوم القيامة هم من المقبوحين وقيل فيهم ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَتَكِينٍ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩] وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة وانهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياهم نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له فإذا ضيعوا عهده ظهر أولئك عليهم فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر

موجب للعلم بأن المدار علة للدائر وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي وانه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا ومن هذا ظهور بخت نصر على بني إسرائيل فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهد موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهد موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما^(١).

البدء المنكرة في يوم عاشوراء

والذي أمر الله به ورسوله في المصيبة إذا كانت جديدة إنما هو الصبر والاحتساب والاسترجاع كما قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية وقال أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب وسربالا من قطران وفي المسند عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين عن النبي ﷺ أنه قال ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته وإن قدمت فيحدث لها استرجاعا إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها وهذا من كرامة الله للمؤمنين فإن مصيبة الحسين وغيره إذا ذكرت بعد طول العهد فينبغي للمؤمن أن يسترجع فيها كما أمر الله ورسوله ليعطي من الأجر مثل أجر المصاب يوم أصيب بها وإذا كان الله تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة فكيف مع طول الزمان فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغى من إتخاذ يوم عاشوراء مأتما وما يصنعون فيه من الندب والنياحة وإنشاد قصائد الحزن ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب وإثارة الشحنة

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤١٤-٤١٦.

والحرب وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين وكثرة الكذب والفتن في الدنيا ولم يعرف طوائف الإسلام أكثر كذبا وفتنا ومعاونة للكفار على أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية فإنهم شر من الخوارج المارقين وأولئك قال فيهم النبي ﷺ يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان وهؤلاء يعاونون اليهود والنصارى والمشركين على أهل بيت النبي ﷺ وأمتة المؤمنين كما أعانوا المشركين من الترك والتتار على ما فعلوه ببغداد وغيرها بأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ولد العباس وغيرهم من أهل البيت والمؤمنين من القتل والسي وخراب الديار وشر هؤلاء وضررهم على أهل الإسلام لا يحصيه الرجل الفصيح في الكلام فعارض هؤلاء قوم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد والكذب بالكذب والشر بالشر والبدعة بالبدعة فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب وتوسيع النفقات على العيال وطبخ الأظعمة الخارجة عن العادة ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسما كمواسم الأعياد والأفراح وأولئك يتخذونه مأتما يقيمون فيه الأحزان والأتراح وكلا الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة وإن كان أولئك أسوأ قصدا وأعظم جهلا وأظهر ظلما لكن الله يأمر بالعدل والإحسان وقد قال النبي ﷺ إنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة ولم يسن رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون في يوم عاشوراء شيئا من هذه الأمور لا شعائر الحزن والترح ولا شعائر السرور والفرح ولكنه ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال ما هذا فقالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى من الغرق فنحن نصومه فقال نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه وكانت قريش أيضا تعظمه في الجاهلية واليوم الذي أمر الناس بصيامه كان يوما واحدا فإنه قدم المدينة في شهر ربيع الأول فلما كان في العام القابل صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه ثم فرض شهر رمضان ذلك العام فنسخ صوم عاشوراء وقد تنازع العلماء هل كان صوم ذلك اليوم واجبا أو مستحبا على قولين مشهورين أصحهما أنه كان واجبا ثم إنه بعد ذلك كان يصومه من يصومه استحبابا ولم يأمر النبي

ﷺ العامة بصيامه بل كان يقول هذا يوم عاشوراء وأنا صائم فيه فمن شاء صام وقال صوم عاشوراء يكفر سنة وصوم يوم عرفة يكفر سنتين ولما كان آخر عمره ﷺ وبلغه أن اليهود يتخذونه عيداً قال لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع ليخالف اليهود ولا يشابههم في اتخاذه عيداً وكان من الصحابة والعلماء من لا يصومه ولا يستحب صومه بل يكره إفراده بالصوم كما نقل ذلك عن طائفة من الكوفيين ومن العلماء من يستحب صومه والصحيح أنه يستحب لمن صامه أن يصوم معه التاسع لأن هذا آخر أمر النبي ﷺ لقوله لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر كما جاء ذلك مفسراً في بعض طرق الحديث فهذا الذي سنه رسول الله ﷺ وأما سائر الأمور مثل اتخاذه طعام خارج عن العادة إما حبوب وإما غير حبوب أو تجديد لباس وتوسيع نفقة أو اشتراء حوائج العام ذلك اليوم أو فعل عبادة مختصة كصلاة مختصة به أو قصد الذبح أو إدخار لحوم الأضاحي ليطبخ بها الحبوب أو الاكتحال والاختضاب أو الاغتسال أو التصافح أو التزاور أو زيارة المساجد والمشاهد ونحو ذلك فهذا من البدع المنكرة التي لم يسنها رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا الثوري ولا الليث بن سعد ولا أبو حنيفة ولا الأوزاعي ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل ولا إسحاق بن راهويه ولا أمثال هؤلاء من أئمة المسلمين وعلماء المسلمين^(١).

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]

فأولياء الله ضد أعدائه يقربهم منه ويدنيههم إليه ويتولاهم ويتولونه ويحبهم ويرحمهم ويكون عليهم منه صلاة وأعداؤه يبعدهم ويلعنهم وهو إبعاد منه ومن رحمته ويغضبهم ويغضب عليهم وهذا شأن المتولين والمتعادين فالصلاة ضد اللعنة والرحمة والرضوان ضد الغضب والسخط والعذاب ضد النعيم قال تعالى في حق الصابرين ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وقال تعالى في حق المنافقين ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٩٩-٣٠٢ ومنهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ١٥٢.

مَصِيرًا ﴿[الفتح: ٦] وقال تعالى في حق المجاهدين ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] وقال تعالى في قاتل المؤمن متعمدا ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] ^(١).

أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون ^(٢).

لطائف لغوية

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارس العلم التسييح ^(٣).

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٩٨.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

(٣) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

الشارع عن مسمائها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا إلى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۙ﴾ [العلق: ٩-١٠] وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتك يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۙ﴾ [العلق: ٩-١٠] فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا

وذلك لم يرد^(١).

أصلى الإيمان هما الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما في مواضع كثيرة كقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]^(٢).
وقد جاء في الكتاب والسنة الفاظ من نحو لقاء الله كقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْهَدُوا﴾ [البقرة: ١٥٩] عامة الأسماء يتنوع مسماتها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى يَتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما في قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ۗ أَحْبَبْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الإسلام واذا أطلق الهدى كان كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا^(٤).
﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] ورحمته اسم جامع لكل خير

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١١٧.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٦٦.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

ودار الرحمة الخالصة هي الجنة^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]

لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء

وقد قال الامام أحمد رضى اله عنه وغيره من الأئمة لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُورِي يَمُوسَى﴾ [طه: ١١] فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك وقال تعالى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك وكذلك قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك وكذا قوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] أخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يجبر انه تكلم في وقت معين ونادى في وقت معين وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال نبداً بما بدأ الله به فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة^(١).

مسائل فقهية

١ - أن العمرة ليست واجبة

العمرة في وجوبها قولان مشهوران للعلماء هما قولان للشافعي وروايتان عن أحمد والمشهور عن أصحابهما وجوبها ولكن القول بعدم وجوبها قول الأكثرين كمالك وأبي حنيفة وكلا القولين منقول عن بعض الصحابة والأظهر أن العمرة ليست واجبة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٨٨.

وأن من حج ولم يعتمر فلا شيء عليه سواء ترك العمرة عامداً أو ناسياً لأن الله إنما فرض في كتابه حج البيت بقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ولفظ الحج في القرآن لا يتناول العمرة بل هو سبحانه إذا أراد العمرة ذكرها مع الحج كقوله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨] فلما أمر بالإتمام أمر بإتمام الحج والعمرة وهذه الآية نزلت عام الحديبية سنة ست بانفاق الناس وآية آل عمران نزلت بعد ذلك سنة تسع أو عشر وفيها فرض الحج ولهذا كان أصح القولين أن فرض الحج كان متأخراً ومن قال انه فرض سنة ست فإنه احتج بأية الإتمام وهو غلط فإن الآية إنما أمر فيها بإتمامها لمن شرع فيهما لم يأمر فيها بابتداء الحج والعمرة والنبي ﷺ اعتمر عمرة الحديبية قبل أن تنزل هذه الآية ولم يكن فرض عليه لا حج ولا عمرة ثم لما صدده المشركون أنزل الله هذه الآية فأمر فيها بإتمام الحج والعمرة وبين حكم المحصر الذي تعذر عليه الإتمام ولهذا اتفق الأئمة على أن الحج والعمرة يلزمان بالشروع فيجب إتمامهما وتنازعا في الصيام والصلاة والإعتكاف وأيضا فإن العمرة ليس فيها جنس من العمل غير جنس الحج فإنها إحرام وطواف وسعي وإحلال وهذا كله موجود في الحج والحج إنما فرضه الله مرة واحدة لم يفرضه مرتين ولا فرض شيئا من فرائضه مرتين لم يفرض فيه وقوفين ولا طوافين بل الفرض طواف الإفاضة وأما طواف الوداع فليس من الحج وإنما هو لمن أراد الخروج من مكة ولهذا لا يطوف من أقام بمكة وليس فرضاً على كل أحد بل يسقط عن الحائض ولو لم يفعله لأجزاه دم ولم يبطل الحج بتركه بخلاف طواف الفرض والوقوف وكذلك السعي لا يجب إلا مرة واحدة والرمي يوم النحر لا يجب إلا مرة واحدة ورمي كل جمرة في كل يوم لا يجب إلا مرة واحدة وكذلك الخلق والتقصير لا يجب إلا مرة واحدة فإذا كانت العمرة ليس فيها عمل غير أعمال الحج وأعمال الحج إنما فرضها الله مرة لا مرتين علم أن الله لم يفرض العمرة والحديث المأثور في أن العمرة هي الحج الأصغر قد احتج به بعض من أوجب العمرة وهو إنما يدل على أنها لا تجب لأن هذا الحديث دال على حجين أكبر وأصغر كما دل على ذلك القرآن في قوله ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وإذا كان كذلك فلو أوجبناها

لأوجنا حجین أكبر وأصغر والله تعالى لم يفرض حجین وإنما أوجب حجاً واحداً والحج المطلق إنما هو الحج الأكبر وهو الذي فرضه الله على عباده وجعل له وقتاً معلوماً لا يكون في غيره كما قال ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] بخلاف العمرة فإنها لا تختص بوقت بعينه بل تفعل في سائر شهور العام ولأن العمرة مع الحج كالوضوء مع الغسل والمغتسل للجنازة يكفيه الغسل ولا يجب عليه الوضوء عند جمهور العلماء فكذلك الحج فإنهما عبادتان من جنس واحد صغرى وكبرى فإذا فعل الكبرى لم يجب عليه فعل الصغرى ولكن فعل الصغرى أفضل وأكمل كما أن الوضوء مع الغسل أفضل وأكمل وهكذا فعل النبي ﷺ وأصحابه لكنه أمرهم بأمر التمتع وقال دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة كما قد بسط في موضع آخر والله أعلم^(١).

أن العمرة أيضاً واجبة نص عليه أحمد في مواضع فقال في رواية الأثرم وبكر بن محمد وإسحق بن إبراهيم وأبي طالب وحرب والفضل العمرة واجبة والعمرة فريضة وذكر بعض أصحابنا عنه رواية أخرى أنها سنة لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ولم يذكر العمرة ولو كانت واجبة لذكرها كما ذكرنا لما أمر بإتمامها وبالسعي فيها في قوله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله سبحانه ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] وكذلك أمر خليفه عليه السلام بدعاء الناس إلى الحج بقوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] إلى قوله ﴿وَيَذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨] والاختصاص بأيام معلومات هو للحج فقط دون العمرة فعلم أنه لم يأمرهم بالعمرة وإن كانت حسنة مستحبة لأنه ﷺ لما ذكر معاني الإسلام قال ﴿حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال في حديث جبريل الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ٧-٩.

البيت إن استطعت إليه سبيلا ولم يذكر العمرة وسأله ضمام بن ثعلبه عن فرائض الإسلام إلى أن قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال صدق ثم ولى ثم قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي ﷺ إن صدق ليدخلن الجنة ولو كانت العمرة واجبة لانكر قوله لا أزيد عليهن ولم يضمن له الجنة مع ترك أحد فرائض الإسلام ولأن النبي ﷺ لما حج حجة الوداع كان معه من المسلمين ما لا يحصيهم إلا الله تعالى وكل قد جاء يؤدى فرض الله تعالى عليه فلما قضى أيام منى بات بالمحصب بعد النفر وخرج من الغد قافلا إلى المدينة ولم يعتمر بعد ذلك ولم يأمر من معه بالعمرة ولا بأن يسافروا لها سفرة أخرى وقد كان فيهم المفرد والقارن وهم لا يرون أنه قد بقي عليهم فريضة أخرى بل قد سمعوا منه أن الحج لا يجب إلا في عام واحد وقد فعلوه فلو كانت العمرة واجبة كالحج لبين لهم ذلك أو لأقام ريثما أن يعتمر من لم يكن إعتمر وعن الحجاج بن ارطاة ع محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال أتى النبي ﷺ أعرابي فقال أخبرني عن العمرة أواجبة هي فقال رسول الله ﷺ لا وإن تعتمر خير لك رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه الدارقطني من غير طريق الحجاج وعن أبي هريرة موقوفا ومرفوعا أنه قال العمرة تطوع قال الدارقطني والصحيح أنه موقوف على أبي هريرة وعن طلحة بن عبيد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول الحج جهاد والعمرة تطوع رواه ابن ماجه وفي طريقه الحسن بن يحيى الخشني عن عمر بن قيس أخبرني طلحة بن يحيى عن عمه إسحق بن طلحة عن طلحة بن عبيد الله وعن أبي صالح الحنفي أن رسول الله ﷺ قال الحج جهاد والعمرة تطوع رواه الشافعي وسعيد وربما احتج بعضهم بقوله دخلت العمرة في الحج وليس بشيء ولأن العمرة بعض الحج فلم تجب على الأفراد كالطواف وهذا لأن الحج لم يجب على وجه التكرار وإنما وجب مرة واحدة فلو وجبت العمرة لكان قد وجب على الإنسان حجتان صغرى وكبرى فلم يميز كما لم يجب عليه حج وطواف وكل ما يفعله المعتمر فقد دخل في الحج فليس في العمرة شيء يقتضي إفراده بالإيجاب لكن جعل الله المناسك على ثلاث درجات أتمها هو الحج المشتمل على الإحرام والوقوف والطواف والسعي والرمي والإحلال وبعده العمرة المشتملة على الإحرام والطواف والسعي والإحلال وبعده

الطواف المجرد ولأنها نسك غير مؤقت الإبتداء والإنتهاء فلم تجب كالطواف ولأنها عبادة غير مؤقتة من جنسها فرض مؤقت فلم تجب كصلاة النافلة وهذا لأن العبادات المحضة إذا وجبت وقتت كما وقتت الصلاة والصيام والحج فإذا شرعت في جميع الأوقات علم أنها شرعت رحمة وتوسعه للتقرب إلى الله تعالى بأنواع شتى من العبادة وسبل متعددة لئلا يمتنع الناس من التقرب إلى الله تعالى في غالب الأوقات ووجه الأول ما احتج به بعضهم من قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وعن أبي رزين العقيلي أنه أتى النبي ﷺ فقال إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن فقال حج عن أبيك واعتمر رواه الخمسة وقال الترمذي حديث حسن صحيح وفي رواية لأحمد إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير فأمره بفعلهما عن أبيه ولولا وجوبهما على الأب لما أمره بفعلهما عنه لكن يمكن أن يقال إنما سأله عن جواز الحج والعمرة عن أبيه لأن الابن لا يجب ذلك عليه وفاقا وعن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد قال نعم عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والدارقطني باسناد شرط الصحيح لكن في لفظ أحمد والنسائي الا نخرج فنجاهد معك وكلمة على تقتضي الإيجاب لا سيما وقد سأله عما يجب على النساء من الجهاد فجعله جهادهن كما روي عن أم سلمة رضي الله عنهما قالت قال رسول الله ﷺ الحج جهاد كل ضعيف رواه أحمد وابن ماجه واحتج أحمد بمحدث أبي رزين ومحدث ذكره عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال أوصني فقال تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج وتعتصر قال وعن ابن عباس وابن عمر أنها واجبة وهذا أمر والأمر للإيجاب لا سيما وهو إنما أمره بمباني الإسلام ودعائه قال جابر بن عبد الله ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وعليه عمرة واجبة ذكره ابن أبي موسى وفي حديث عمر عن النبي ﷺ فقال يعني جبريل عليه السلام لما جاء في صورة الأعرابي يا محمد ما الإسلام فقال الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج وتعتصر وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان رواه الجوزقي في كتابه المخرج على الصحيحين والدارقطني وقال هذا إسناد صحيح أخرجه مسلم بهذا الإسناد وهذه الزيادة وإن لم تكن

في أكثر الروايات فإنها ليست مخالفة لها لكن هي مفسرة لما أجمل في بقية الروايات فإن الحج يدخل فيه الحج الأكبر والأصغر كما أن الصلاة يدخل فيها الوضوء والغسل وإنما ذكر ذلك بالاسم الخاص تبيينا خشية أن يظن أنه ليس داخلا في الأول وقد روى الدارقطني باسناد ضعيف عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت وروى القاضي بإسناده عن قتيبة عن ابن لهيعة عن عطاء عن جابر قال قال رسول الله ﷺ الحج والعمرة فريضتان واجبتان وروى سعيد بن ابي عروبة في المناسك عن قتادة أن نبي الله ﷺ قال إنما هي حجة وعمرة فمن قضاهما فقد قضى الفريضة ومن أصاب بعد ذلك فهو تطوع وعن قتادة أن عمر بن الخطاب رحمه الله قال يا أيها الناس كتب عليكم الحج يا أيها الناس كتب عليكم العمرة يا أيها الناس كتب عليكم أن يأخذ أحدكم من ماله فيبتغي به من فضل الله فإن فيه الغنى والتصديق وأيم الله لأن أموت وأنا ابتغي بما لي في الأرض من فضل الله عز وجل أحب إلى من أموت على فراشي وأيضا فإن العمرة هي الحج الأصغر بدليل قوله سبحانه ﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ [التوبة: ٣] فإن الصفة إذا لم تكن مبينة لحال الموصوف فإنها تكون مقيدة له ومميزة له عما يشاركه في الاسم فلما قال يوم الحج الأكبر علم أن هناك حجا أصغر لا يختص بذلك اليوم لأن الحج الأكبر له وقت واحد لا يصح في غيره والحج الأصغر لا يختص بوقت وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال الحج الأكبر يوم النحر والحج الأصغر العمرة وأيضا ففي كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن وأن العمرة الحج الأصغر رواه الدارقطني من حديث الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده وهذا الكتاب ذكر هذا فيه مشهور مستفيض عند أهل العلم وهو عند كثير منهم أبلغ من خبر الواحد العدل المتصل وهو صحيح بإجماعهم وإذا كان النبي ﷺ قد بين أنها الحج الأصغر كما دل عليه كتاب الله عز وجل علم أنها واجبة لأن قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] وسائر الأحاديث التي فيها ذكر فرض الحج إما أن يعم الحجين الأكبر والأصغر كما أن قول النبي ﷺ لا يقبل الله صلاة بغير طهور يعم نوعي الطهور الأكبر والأصغر وإما أن

تكون مطلقة ولا يجوز أن يكون المفروض مطلق الحج لأن ذلك يحصل بوجود الأكبر أو الأصغر فيلزم أن تكفيه العمرة فقط وذلك غير صحيح فيجب أن يكون عاما ولا يجوز أن يعني الحج الأكبر فقط لأنه يكون تخصيصا للعام وتقييدا للمطلق وذلك لا يجوز إلا بدليل ولو أريد ذلك لقيد كما قيد في قوله يوم الحج الأكبر بل الناس إلى التقييد هنا أحوج لأن هذا ذكر للمفروض الواجب والإسم يشملها وذاك أمر بالنداء يوم الحج الأكبر والنداء لا يمكن إلا في المجتمع والإجتماع العام وإنما يقع في الحج الأكبر لاسيما وقوله يوم والحج الأصغر لا يختص به وبهذا يجب عن كل موضع أطلق فيه ذكر الحج وأما المواضع التي عطف فيها فللبيان والتفسير وقطع الشبهة لئلا يتوهم متوهم أن حكم العمرة مخالف لحكم الحج وأنها خارجة عنه في هذا الموضع لأنها كثيرا ما تذكر بالاسم الخاص وكثيرا ما يكون لفظ الحج لا يتناولها وأما الأحاديث فضعيفة وأما كونها لا تختص بوقت وكونها بعض الحج فلا يمنع الوجوب وأيضا فإنها عبادة تلزم بالشروع ويجب المضي في فاسدها فوجبت بالشرع كالحج وعكس ذلك الطواف^(١).

٢- السعي بين الصفا والمروة واجب

وقد اختلفت الرواية عن أحمد في السعي بين الصفا والمروة فروى عنه أنه ركن لا يتم الحج والعمرة إلا به قال في رواية الأثرم فيمن انصرف ولم يسع يرجع فيسعى وإلا فلا حج له وقال في رواية ابن منصور إذا بدأ بالصفا والمروة يرجع قبل البيت لا يجزئه وقال في رواية أبي طالب في معتمر طاف فواقع أهله قبل أن يسعى فسدت عمرته وعليه مكانها ولو طاف وسعى ثم وطىء قبل أن يخلق أو يقصر فعليه دم إنما العمرة الطواف والسعي والحلاق وروى عنه أنه سنة قال في رواية أبي طالب فيمن نسى السعي بين الصفا والمروة أو تركه عامدا فلا ينبغي له أن يتركه وأرجو أن لا يكون عليه شيء وقال في رواية الميموني السعي بين الصفا والمروة تطوع والحاج والقارن والمتمتع عند عطاء واحد إذا طافوا ولم يسعوا وقال في رواية حرب فيمن نسى السعي بين الصفا والمروة حتى أتى منزله لا شيء عليه وقال القاضي في المجرد وغيره هذا واجب يجبره دم هذا هو

(١) شرح العمدة ج: ٢ ص: ٩٠-٩٩.

الذي ذكره الشيخ في كتابه فمن قال إنه تطوع احتج بقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فأخبر أنهما من شعائر الله وهذا يقتضي أن الطواف بهما مشروع مسنون دون زيادة على ذلك إذ لو أراد زيادة لأمر بالطواف بهما كما قال ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨] ثم قال ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] ورفع الجناح وإن كان لإزالة الشبهة التي عرضت لهم في الطواف بهما كما سيأتي إن شاء الله فإن هذه الصيغة تقتضي إباحة الطواف بهما وكونهما من شعائر الله يقتضي استحباب ذلك فعلم أن الكلام خرج مخرج النذب إلى الطواف بهما واماطة الشبهة العارضة فأما زيادة على ذلك فلا ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وإذا نذب الله إلى أمر وحسنه ثم ختم ذلك بالترغيب في التطوع كان دليلا على أنه تطوع وإلا لم يكن بين فاتحة الآية وخاتمتها نسبة وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ أن لا يطوف بهما وعن عطاء في قراءة ابن مسعود أو في مصحف ابن مسعود أن لا يطوف بهما رواهما أحمد في النسخ والمنسوخ وعن أنس قال كانت الأنصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] متفق عليه لفظ مسلم ولفظ البخاري عن عاصم بن سليمان قال سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة قال كنا نرى من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فذكر إلى بهما فهذا أنس بن مالك قد علم سبب نزول الآية وقد كان يقول إنه تطوع فعلم أنه فهم من الآية أنها خرجت مخرج النذب والترغيب في التطوع وأما من قال إنها واجبة في الجملة وهو الذي عليه جمهور أصحابنا فإن الله قال هما ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وكل ما كان من شعائر الله فلا بد من نسك واجب بهما كسائر الشعائر من عرفة ومزدلفة ومنى والبيت فإن هذه الأمكنة جعلها الله يذكر

فيها اسمه ويتعبد فيها له وينسك حتى صارت أعلاما وفرض على الخلق قصدها واتيانها فلا يجوز أن يجعل المكان شعيرة لله وعلمها له ويكون الخلق مخيرين بين قصده والأعراض عنه لأن الأعراض عنه مخالف لتعظيمه وتعظيم الشعائر واجب لقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] والتقوى واجبة على الخلق وقد أمر الله بها ووصى بها في غير موضع وذم من لا يتقي الله ومن استغنى عن تقواه وتوعده وإذا كان الطواف بهما تعظيما لهما وتعظيمهما من تقوى القلوب والتقوى واجبة كان الطواف بهما واجبا وفي ترك الوقوف بهما ترك لتعظيمهما كان ترك الحج بالكلية ترك لتعظيم الأماكن إلى شرفها الله وترك تعظيمها من فجور القلوب بمفهوم الآية وأما قوله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فنفس تدل على أنه لم يقصد بذلك مجرد اباحة الوقوف بحيث يستوي وجوده وعدمه لأنهما جعلهما من شعائر الله ثم قال ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] والحكم إذا تعقب الوصف بحرف الفاء علم أنه علة فيكون كونهما من شعائر الله موجبا لرفع الحرج ثم اتبع ذلك بما يدل على الترغيب وهو قوله ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية نعم هذه الصفة لا تستعمل إلا فيما يتوهم حظره كقوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وقوله ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَبَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: ٩٣] الآية فإن الحرم للميتة موجود حال الاضطراب والموجب للصلاة موجود حال السفر كذلك هنا كانت هاتان الشعيرتان قد انعقد لهما سبب من أمور الجاهلية خيف أن يحرم التطوف بهما لذلك وقد تقدم عن أنس أنهم كانوا يكرهون الطواف بهما حتى أنزل الله هذه الآية وعن الزهري عن عروة قال سألت عائشة فقلت رأيت قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفاء والمروة قالت بشس ما قلت يا ابن أخي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح أن لا يطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند

المشلل فكان من أهل يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة فلما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقالوا يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية قالت عائشة رضي الله عنها وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال إن هذا لعلم ما كنت سمعته ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهل لمائة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة فلما ذكر طواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا يا رسول الله كنا نطوف بالصفا وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية قال أبو بكر فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كلاهما في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة والذين يطوفون ثم تخرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت متفق عليه وعن هشام بن عروة عن أبيه قال قلت لعائشة وأنا حديث السن رأيت قول الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما فقالت عائشة كلا لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمائة وكانت مائة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] متفق عليه وفي لفظ لمسلم إنما أنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أهلوا أهلوا لمائة في الجاهلية فلا يجلب لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة وفي لفظ له إن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا هم وغسان يهلون لمائة فتخرجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة وكان ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمائة لم يطف بين الصفا والمروة وقد روى الأزرقى عن ابن اسحاق أن عمرو بن لحي نصب بين الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير

ونصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديدا وهي التي كانت الأزد وغسان يحجونهما ويعظمونهما فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يلقوا إلا عند مناة وكانوا يهلون لها ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين الذين عليهما نهيك مجاود الرياح ومطعم الطير فكان هذه الحى من الأنصار يهلون لمناة قال وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن كان بدينها من أهل يثرب وأهل الشام وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد وذكره باسناده عن ابن السائب قال كانت صخرة لهذيل وكانت بقديد قد تبين أن الآية قصد بها رفع ما توهم الناس أن الصفا والمروة من جملة الأحجار التي كان أهل الجاهلية يعظمونها أما الأنصار في الجاهلية فكانوا يتركون الطواف بهما لأجل الصنم الذي كانوا يهلون له ويحلون عنده مضاهاة بالصنمين الذين كانا على الصفا والمروة وأما غيرهم فلكون أهل الجاهلية غير الأنصار كانوا يعظمونهما ولم يجر لهما ذكر في القرآن وهذا السبب يقتضي تعظيمهما وتشريفهما مخالفة للمشركين وتعظيما لشعائر الله فإن اليهود والنصارى لما عرضوا عن تعظيم الكعبة قال الله ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وأوجب حجها على البيت فإذا كانت الصفا والمروة مما عرض عنه بعض المشركين وهو من شعائر الله كان الأظهر إيجاب العبادة عنده كما وجبت العبادة عند البيت ولذلك سن النبي ﷺ مخالفة المشركين حيث كانوا يفيضون من المزدلفة فأفاض من عرفات وصارت الأفاضة من عرفات واجبة ووقف إلى غروب الشمس فصار الوقوف بها واجبا فقد رأينا كل مكان من الشعائر أعرض المشركون عن النسك فيه أوجب الله النسك فيه وأما قوله ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٥٨] فإن التطوع في الأصل مأخوذ من الطاعة وهو الإستجابة والإنقياد يقال طوعت الشيء فتطوع أي سهلته فإن التطوع في الأصل مأخوذ من الطاعة وهو الإستجابة والإنقياد يقال طوعت الشيء فتطوع أي سهلته فتسهل كما قال ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠] وتطوعت الخير إذا فعلته بغير تكلف وكرهية ولما كانت مناسك الحج عبادة محضة وانقيادا صرفا وذلا للنفوس وخروجها عن العز والأمور المعتادة وليس فيها حظ للنفوس فرمما قبحتها الشيطان في عين الانسان ونهاه عنها ولهذا قال

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قال رجل من أهل العلم هو طريق الحج وقال بعد أن فرض ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] لعلمه أن من الناس من قد يكفر بهذه العبادة وإن لم يكفر بالصلاة والزكاة والصيام فلا يرى حجه برا ولا تركه اثما ثم الطواف بالصفة والمروة خصوصا فإنه مطاف بعيد وفيه عدو شديد وهو غير مألوف في غير الحج والعمرة فرمما كان الشيطان أشد تنفيرا عنهما فقال سبحانه ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٥٨] فاستجاب الله وانقاد له وفعل هذه العبادة طوعا لا كرها عبادة الله وطاعة له ولرسوله وهذا مبالغة في الترغيب فيهما ألا ترى أن الطاعة موافقة الأمر وتطوع الخير خلاف تكرهه فكل فاعل خير طاعة لله طوعا لا كرها فهو متطوع خيرا سواء كان واجبا أو مستحبا نعم ميز الواجب بأخص اسميه فقيل فرض أو واجب وبقى الاسم العام في العرف غالبا على أدنى القسمين كلغة الدابة والحيوان وغيرهما وأيضا فإن النبي ﷺ طاف في عمره وفي حجته والمسلمون معه بين الصفا والمروة وقال لتأخذوا عني مناسككم والطواف بينهما من أكبر المناسك وأكثرها عملا وخرج ذلك منه مخرج الإمثال لأمر الله بالحج في قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وفي قوله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ [البقرة: ١٩٦] ومخرج التفسير والبيان لمعنى هذا الأمر فكان فعله هذا على الوجوب ولا يخرج عن ذلك إلا هيئات في المناسك وتتمات وأما جنس تام من المناسك ومشعر من المشاعر يقتطع عن هذه القاعدة فلا يجوز أصلا وبهذا احتج أصحاب رسول الله ﷺ قال عمرو بن دينار سألتنا ابن عمر عن رجل قدم بعمرة فطاف بالبيت ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته فقال قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وبين الصفا والمروة سبعا وقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة متفق عليه وزاد البخاري وسألنا جابر بن عبد الله فقال لا يقربنها حتى يطوف بالصفة والمروة وأيضا فما روى ابن عمر وعائشة أن النبي ﷺ قال لأصحابه من كان منكم أهدي فإنه لا يجل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن أهدي فليطف بالبيت وبالصفة والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج وليهد وذكر الحديث متفق عليه وهذا أمر من النبي ﷺ وهو للإيجاب لا سيما في العبادات المحضة وفي ضمنه أشياء كلها واجب

وعن عائشة قالت أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدي إذ اطاف بالبيت وبين الصفا والمروة أن يحل متفق عليه فأمره بالحل بعد الطوافين فعلم أنه لا يجوز التحلل قبل ذلك وعن أبي موسى قال أهلت باهلال النبي ﷺ قال هل معك من هدي قلت لا فأمرني فطفت بالبيت وبالصفا والمروة ثم أمرني فأهلت وفي لفظ فطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم حل متفق عليه ثم من قال هو واجب يجب بتركهما هدي قال قد دلت الأدلة على وجوبهما لكن لا يبلغ مبلغ الركن لأن المناسك إما وقوف أو طواف والركن من جنس الوقوف نوع واحد فكذلك الركن من جنس الطواف يجب أن يكون طوافا واحدا لأن أركان الحج لا يجوز أن تتكرر من جنس واحد كما لا يتكرر وجوبه بالشرع ولأن الركن يجوز أن يكون مقصودا بإحرام فإنه إذا وقف بعرفة ثم مات فعل عنه سائر الحج وتم حجه وإذا خرج من مكة قبل طواف الزيارة رجع إليها محرما للطواف فقط والسعي لا يقصد بإحرام فهو كالوقوف بمزدلفة ورمى الجمار ولأن نسبة الطواف بهما إلى الطواف بالبيت كنسبة الوقوف بمزدلفة إلى وقوف عرفة لأنه وقوف بعد وقوف وطواف بعد طواف ولأن الثاني لا يصح إلا تبعا للأول فإنه لا يجوز الطواف بهما إلا بعد الطواف بالبيت ولا يصح الوقوف بمزدلفة إلا إذا أفاض من عرفات وقد دل على ذلك قوله ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] وقوله ﴿فَإِذَا

أَفْضَظْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: ١٩٨] الآية فإذا كان الوقوف المشروع بعد عرفة ليس بركن فالطواف المشروع بعد طواف البيت أولى أن لا يكون ركنا لأن الأمر بذلك في القرآن أظهر وذلك لأن ما يفعل إلا تبعا لغيره يكون ناقصا عن درجة ذلك المتبوع والناقص عن الركن هو الواجب ولهذا كل ما يفعل بعد الوقوف بعرفة تبعا له فهو واجب وطرد ذلك أركان الصلاة فإن بعضها يجوز أن ينفرد عن بعض فإن القيام يشرع وحده في صلاة الجنائز والركوع ابتداء في صلاة المسبوق والسجود عند التلاوة والسهو ولو عجز عن بعض أركان الصلاة أتى بما بعده فعلم أنه ليس بعضها تبعا لبعض وهنا إذا فاته الوقوف بعرفة لم يجوز فعل ما بعده ولأنه لو كان ركنا لشرع من جنسه ما ليس بركن كالوقوف من جنسه الوقوف بمزدلفة ولأنه لو كان لتوقت أوله واخره كالأحرام والطواف

والوقوف والسعي لا يتوقت ومن قال إنه ركن احتج على ذلك بما روت صفية بنت شيبة أخبرتني حبيبة بنت أبي تجرة إحدى نساء بني عبد الدار قالت نظرت إلى رسول الله ﷺ يسعى بين الصفا والمروة فرأيته يسعى وإن ميزره ليدور من شدة السعي حتى أقول إنني لأرى ركبتيه وسمعته يقول اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي وفي رواية رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور به أزاره وهو يقول اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي رواه أحمدورواه أيضا عن صفية امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول كتب عليكم السعي فاسعوا وأيضا فإن النبي ﷺ أمر به كما أمر بالطواف بالبيت في قرن واحد وأمره على الوجوب كما تقدم وما ثبت وجوبه تعين فعله ولم يجز أن يقام غيره مقامه إلا بدليل وأيضا فإنه نسك يختص بمكان يفعل في الحج والعمرة فكان ركنا كالطواف بالبيت وذلك لأن تكرره في النسكين دليل على قوته واختصاصه بمكان دليل على وجوب قصد ذلك الموضع وقد قيل نسك يتكرر في النسكين فلم ينب عنه الدم كالطواف والاحرام وأيضا فإن الأصل في جميع الأفعال أن يكون ركنا لكن ما يفعل بعد الوقوف لم يكن ركنا لأنه لو كان ركنا لفات الحج بفواته والحاج إذا أدرك عرفة فقد أدرك الحج والسعي لا يختص بوقت وأيضا فإن أفعال الحج على قسمين مؤقت وغير مؤقت فالمؤقت إما أن يفوت بفوات وقته أو يجبر بدم لكون وقته إذا مضى لم يمكن فعله وأما غير المؤقت إذا كان واجبا فلا معنى لنيابة الدم عنه لأنه يمكن فعله في جميع الأوقات والطواف والسعي ليسا بمؤقتين في الانتهاء فالحاق أحدهما بالآخر أولى من الحاقه بالمزدلفة ورمى الجمار لأن ذلك يفوت بخروج وقته وبهذا يظهر الفرق بينه وبين توابع الوقوف^(١).

٣- يستحب الطواف في جميع الأحوال عموما

ومن خصائص الطواف انه مشروع بنفسه منفردا أو في ضمن العمرة وفي ضمن الحج وليس في أعمال المناسك ما يشرع منفردا عن حج وعمرة الا الطواف فان أعمال

(١) شرح العمدة ج: ٣ ص: ٦٢٣-٦٣٦.

المناسك على ثلاث درجات منها ما لا يكون الا في حج وهو الوقوف بعرفة وتوابعه من المناسك التي بمزدلفة ومنها ما لا يكون الا في حج أو عمرة وهو الاحرام والاحلال والسعى بين الجبلين كما قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] ومنها ما يكون في الحج وفي العمرة ويكون منفردا وهو الطواف والطواف ايضا هو اكثر المناسك عملا في الحج فانه يشرع للقادم طواف القدوم ويشرع للحاج طواف الوداع وذلك غير الطواف المفروض طواف الافاضة الذى يكون بعد التعريف ويستحب ايضا الطواف في اثناء المقام بمنى ويستحب في جميع الحول عموما^(١).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]

قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] نفي الجناح لأجل الشبهة التي عرضت لهم من الطواف بينهما لأجل ما كانوا عليه في الجاهلية من كراهة بعضهم للطواف بينهما والطواف بينهما مأمور به باتفاق المسلمين وهو إما ركن وإما واجب وإما سنة مؤكدة^(٢).

فأهل الإشراف متفرقون وأهل الإخلاص متفقون وقد قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ [هود: ١١٨-١١٩] فأهل الرحمة مجتمعون متفقون والمشركون فرقوا دينهم وكانوا شيعا ولهذا تجد ما أحدث من الشرك والبدع يفترق أهله فكان لكل قوم من مشركي العرب طاغوت يتخذونه ندا من دون الله فيقربون له ويستعينون به ويشركون به وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء بل قد يكون لأهل هذا الطاغوت شريعة ليست للآخرين كما كان أهل المدينة يهلون لمناة الثالثة الأخرى ويتخرجون من الطواف بين الصفا والمروة حتى أنزل

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ٢٥٢.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١٤٦ ومجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٠.

الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وهكذا تجد من يتخذ شيئاً من نحو هذا الشرك كالذين يتخذون القبور وآثار الأنبياء والصالحين مساجد تجد كل قوم يقصدون بالدعاء والاستعانة والتوجه من لا تعظمه الطائفة الأخرى بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته التي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه مع أنه قد جعل لهم الأرض كلها مسجداً وطهوراً وإن حصل بينهم تنازع في شيء مما يسوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك لهم تفرقاً ولا اختلافاً بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران وأن المجتهد المخطيء له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له والله هو معبودهم وحده إياه يعبدون وعليه يتوكلون وله يخشون ويرجون وبه يستعينون ويستغيثون وله يدعون ويسألون^(١).

لطائف نفوية

أن الاعتمار افتعال من عمر يعمر والاسم فيه العمرة قال تعالى ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال تعالى ﴿أَجْعَلْتُم سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: ١٩] وعمارة المساجد إنما هي بالعبادة فيها وقصدها لذلك كما قال النبي إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالآيمان لان الله يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] والمقيم بالبيت أحق بمعنى العمارة من القاصد له ولهذا قيل العمرة هي الزيارة لان المعتمر لا بد أن يدخل من الحل وذلك هو الزيارة وأما الأولى فيقال لها عمارة ولفظ عمارة أحسن من لفظ عمرة وزيادة اللفظ يكون لزيادة المعنى^(٢).

أنا وجدنا المأمورات المعطوف بعضها على بعض ما كان منها مرتبطاً ببعضه ببعض وجب فيه الترتيب كقوله ﴿أَرْكَعُوا وَسُجِدُوا﴾ [الحج: ٧٧] وقوله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وما لم يكن مرتبطاً لم يجب فيه الترتيب كقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ٢٦٢.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ ﴿البقرة: ٤٣﴾ وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٩٦﴾ وَإِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ ﴿التوبة: ٦٠﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ ﴿الأنفال: ٤١﴾ وروى جابر أن النبي ﷺ لما طاف واستلم الركن ثم خرج وقال إن
الصفة والمروة من شعائر الله فابدأوا بما بدأ الله به هذا لفظ النسائي فيما أن يكون اللفظ
عاما وإن كان السبب خاصا فيكون حجة منجهة العموم وإما أن يكون خاصا فإنما وجب
الابتداء بالصفة لأن الله بدأ به في خبره فلأن يجب الابتداء بالوجه الذي بدأ الله به في أمره
أولى^(١).

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها
الشارع عن مسمائها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن
الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة
والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوية لكن زاد في أحكامها
ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة
ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة
إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة
لا مطلقة كما يستعمل نظائرها كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]
فذكر حجا خاصا وهو حج البيت وكذلك قوله ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨]
فلم يكن لفظ الحج متناولا لكل قصد بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير
تغيير اللغة والشاعر إذا قال وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا
كان متكلمة باللغة وقد قيد لفظه بحج سب الزبرقان المزعفرا ومعلوم أن ذلك الحج
المخصوص دلت عليه الإضافة فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه
الإضافة أو التعريف باللام فاذا قيل الحج فرض عليك كانت لام العهد تبين أنه حج
البيت^(٢).

(١) شرح العمدة ج: ١ ص: ٢٠٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩.

جماع معنى الحج في أصل اللغة قصد الشيء وإتيانه ومنه سمي الطريق محجة لأنه موضع الذهاب والمجيء ويسمى ما يقصد الخصم حجة لأنه يأتيه وينتحيه ومنه في الاشتقاق الأكبر الحاجة وهو ما يقصد ويطلب للمنفعة به سواء قصده القاصد لمصلحته أو لمصلحة غيره ومنه قول النبي ﷺ من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه وقول في حاجة الله وحاجة رسوله ومعلوم أنه إنما يقصد ويؤتى ما يعظم ويعتقد الانتفاع به وإذا كان كذلك فلا بد أن يكثر اختلاف الناس إليه فكذلك يقول بعض أهل اللغة الحج القصد ويقول بعضهم هو القصد إلى من يعظم ويقول بعضهم كثرة القصد إلى من يعظمه ورجل محجوج ومكا محجوج أي مقصود مأتي ومنه قوله وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفران قال ابن السكيت يقول يكثرون الاختلاف إليه وقوله قالت تغيرتم ثم بعدي فقلت لها لا والذي بيته يا سلم محجوج ثم غلب في الاستعمال الشرعي والعرفي على حج بيت الله سبحانه وتعالى وإتيانه فلا يفهم عند الإطلاق إلا هذا النوع الخاص من القصد لأنه هو المشروع الموجود كثيرا وذلك كقوله تعالى ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقال تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] وقال سبحانه ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقد بين المحجوج في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله تعالى ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فإن اللام في قوله البيت لتعريف الذي تقدم ذكره في أحد الموضعين وعلمه المخاطبون في الموضع الآخر فيه لغتان قد قرىء بهما الحج والحج والحجة بفتح الحاء وكسرها ثم حج البيت له صفة معلومة في الشرع من الوقوف بعرفة والطواف بالبيت وما يتبع ذلك فإن ذلك كله من تمام قصد البيت فإذا أطلق الإسم في الشرع انصرف إلى الأفعال المشروعة إما في الحج الأكبر أو الأصغر^(١).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] عليم منزه عن الجهل^(٢).

(١) شرح العمدة ج: ٢ ص: ٧٥

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ
 بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
 اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ
 أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا
 وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
 ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
 ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ
 فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
 الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
 مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
 وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٩-١٦٤]

أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعْنُونَ ﴿البقرة: ١٥٩﴾^(١).

فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فإن الآيات هي العلامات والدلالات فاذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والإقرار بوجوب طاعته وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته فالتزكية تكون بطاعة مرة كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت آيات القرآن آيات وقيل انها آيات الله كقوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢] لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضا على أن الرسول صادق اذ كانت مما لا يستطيع الانس والجن أن يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع وأيضا فهي نفسها فيها من بينات الادلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه متعددة ثم قال ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا﴾ [الكهف: ٥٦] ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل انها دلائل للرب وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الانبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والانبياء جاءوا بالآيات والنذر وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] بالبينات والزبر وقال تعالى ﴿فَإِنْ

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٧٢.

كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤]

ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الانبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالاته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك من شابههم مثل ابن درباس وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي وهو المشهور عن أهل الحديث والفقهاء الذين يذمون الكلام وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين الحنبلي المتكلم وبين طائفة من أصحاب أحمد وكذلك بين أبي الفرج بن الجوزي وطائفة منهم أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع^(١).

أن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج

وكذلك أهل العلم الذين يحفظون على الأمة الكتاب والسنة صورة ومعنى مع أن حفظ ذلك واجب على الأمة عموماً على الكفاية منهم ومنه ما يجب على أعيانهم وهو علم العين الذي يجب على المسلم في خاصة نفسه لكن وجوب ذلك عينا وكفاية على أهل العلم الذين رأسوا فيه أو رزقوا عليه أعظم من وجوبه على غيرهم لأنه واجب بالشرع عموماً وقد يتعين عليهم لقدرتهم عليه وعجز غيرهم ويدخل في القدرة استعداد العقل وسابقة الطلب ومعرفة الطرق الموصلة إليه من الكتب المصنفة والعلماء المتقدمين وسائر الأدلة المتعددة والتفرغ له عما يشغل به غيرهم ولهذا مضت السنة بأن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج يعني ان ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له اضعاف لقول النبي من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم رواه ابو داود وقال عرضت على أعمال أمتي حسننها وسيئها فرأيت في مساوي أعمالها الرجل يؤتيه الله آية

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٧٣.

من القرآن ثم ينام عنها حتى ينساها وقال من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا رواه مسلم وكذلك الشروع في عمل الجهاد فان المسلمين اذا صافوا عدوا أو حاصروا حصنا ليس لهم الانصراف عنه حتى يفتحوه ولذا قال النبي ﷺ ما ينبغي لنبى اذا لبس الأمتة ان ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه فالمرصدون للعلم عليهم لامة حفظ علم الدين وتبليغه فاذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيعوا حفظه كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] فان ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها فلعنهم اللاعنون حتى البهائم كما ان معلم الخير يصلى عليه الله وملائكته ويستغفر له كل شئ حتى الحيتان في جوف البحر والطير في جو السماء وكذلك كذبهم في العلم من أعظم الظلم وكذلك اظهارهم للمعاصى والبدع التى تمنع الثقة بأقوالهم وتصرف القلوب عن اتباعهم وتقتضى متابعة الناس لهم فيها هى من اعظم الظلم ويستحقون من الذم والعقوبة عليها مالا يستحقه من أظهر الكذب والمعاصى والبدع من غيرهم لأن أظهر غير العالم وان كان فيه نوع ضرر فليس هو مثل العالم في الضرر الذى يمنع ظهور الحق ويوجب ظهور الباطل فإن إظهار هؤلاء للفجور والبدع بمنزلة اعراض المقاتلة عن الجهاد ودفع العدو ليس هو مثل اعراض آحاد المقاتلة لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم كلاهما ذنب عظيم وليس هو مثل ترك ما تحتاج الأمة اليه مما هو مفوض اليهم فان ترك هذا أعظم من ترك أداء المال الواجب إلى مستحقة وما يظهرونه من البدع والمعاصى التى تمنع قبول قولهم وتدعو النفوس إلى موافقتهم وتمنعهم وغيرهم من اظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أشد ضررا للأمة وضررا عليهم من إظهار غيرهم لذلك ولهذا جبل الله قلوب الامة على انها تستعظم جبن الجندى وفشله وتركه للجهاد ومعاونته للعدو اكثر مما تستعظمه من غيره وتستعظم إظهار العالم الفسوق والبدع اكثر مما تستعظم ذلك من غيره بخلاف فسوق الجندى وظلمه وفاحشته وبخلاف قعود العالم عن الجهاد بالبدن

ومثل ذلك ولاة الأمور كل بحسبه من الوالى والقاضى فان تفریط أحدهم فيما عليه رعايته من مصالح الأمة أو فعل ضد ذلك من العدوان عليهم يستعظم أعظم مما يستعظم ذنب يخلص أحدهم^(١).

فرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا

قيل واللعن انما يستوجه من هو كافر لكن ليس هذا جيدا على الاطلاق ويؤيده ايضا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفَعُوْا وَيَقُوْلُوْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوْا هَتُوْلَآءِ اَهْدَىٰ مِّنَ الْاٰدِيْنَ ؕ اٰمَنُوْا سَبِيْلًا ۗ﴾^(٥١) وَلَتَيْكَ الْاٰدِيْنَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللّٰهُ فَلَنْ نَّجِدَ لَهُ نَصِيْرًا ﴿٥٢﴾ [النساء: ٥١-٥٢] ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره لكان له نصير ويوضح ذلك انه قد نزل في شان ابن الاشرف وكان من لعنته ان قتل لانه كان يؤذي الله ورسوله واعلم انه لايرد على هذا انه قد لعن من لا يجوز قتله لوجوه احدها ان هذا قيل فيه لعنه الله في الدنيا والاخرة فبين انه سبحانه اقصاه عن رحمته في الدارين وسائر الملعونين انما قيل فيهم لعنه الله أو عليه لعنة الله وذلك يحصل باقصائه عن الرحمة في وقت من الأوقات وفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا الثاني ان سائر الذين لعنهم الله في كتابه مثل الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ومثل الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ومثل من يقتل مؤمنا متعمدا اما كافر أو مباح الدم بخلاف بعض من لعن في السنة^(٢).

إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد

قال تعالى ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كُوْنُوْا قَوّٰمِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلٰى اَنْفُسِكُمْ اَوْ اَوْلَادِيْنَ وَالْاَقْرَبِيْنَ اِنْ يَكُنْ غَنِيًّا اَوْ فَقِيْرًا فَاَللّٰهُ اَوْلٰىٰ بِهٖمَا فَلَا تَتَّبِعُوْا الْهَوٰى اَنْ تَعْدِلُوْا وَاِنْ تَلَوْا اَوْ تُعْرَضُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا ۗ﴾ [النساء: ١٣٥] واللي هو تغيير الشهادة والإعراض

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٨٧ - ١٨٩.

(٢) الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١٢.

كتمانها والله تعالى قد أمر بالصدق والبيان ونهى عن الكذب والكتمان فيما يحتاج إلى معرفته وإظهاره كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وقال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] ومن أعظم الشهادات ما جعل الله أمة محمد شهداء عليه حيث قال ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ؕ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ؕ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ؕ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] والمعنى عند الجمهور أن الله سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن وفي القرآن وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠] لا سيما الكتمان إذا لعن آخر هذه الأمة أولها كما في الأثر إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد (١).

ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة

قال تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل

(١) منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٦-١٨.

فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا^(١).

أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ولم تقم بها حجة ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي عنده شهادة من الله وكتمها وهو العلم الذي بينه الله فإنه خبر من الله وشهادة منه بما قد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لابراهيم وأهل بيته وكتموا إسلامهم وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ وبصفته وغير ذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعُنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] والشهادة لابد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ولهذا ذم من يكتم ويحرف فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفْرًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءِ اللَّهِ وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما^(٢).

التقية هي شعار النفاق

فالنفاق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الايمان لم ينفعه ذلك وكان من أهل الخسران بل كان في الدرك الأسفل من النار قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٨٦- ١٨٧.

وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَمَسُّهُمُ الْبُرْءُ وَلَا يَمَسُّهُمُ الْإِيمَانُ إِذَا جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَخُورٌ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

[البقرة: ٨-٩] الآيات فان الله أنزل في أول سورة البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين وقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] السورة وقال تعالى ﴿لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] والملاحدة يظهر من موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك وهم شر من المنافقين فان المنافقين نوعان نوع يظهر الايمان ويبطن الكفر ولا يدعى أن الباطن الذي يبطنه من الكفر هو حقيقة الايمان والملاحدة تدعى أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الايمان وإن الانبياء والأولياء هم من جنسهم يبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل فهم يجمعون بين ابطان الكفر وبين دعواهم ان ذلك الباطن هو الايمان عند أهل العرفان فلا يظهر للمستجيب لهم ان باطنه طعن في الرسول والمؤمنين وتكذيب له بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله وان الذي فعله هو الغاية في الكمال وأنه لا يفعله الا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة وهذا قد يبطنه طوائف حقا باطنا وظاهرا فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الايمان وقد علم بالاضطرار أن النفاق ضد الايمان ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيع والرفض لأن الرفض هو أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول وهم يجعلون التقية من أصول دينهم ويكذبون على أهل البيت كذبا لا يحصيه الا الله حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال التقية ديني ودين آبائي والتقية هي شعار النفاق فان حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وهذا حقيقة النفاق ثم اذا كان هذا من اصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن علي أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون هذا قالوه على سبيل التقية ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية الفلاسفة من الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم فجعلوا ما يقوله الرسول هو من هذا الباب أظهر به خلاف ما أبطن وأسر به خلاف ما اعلن فكان حقيقة قولهم أن الرسول هو امام المنافقين وهو الصادق

المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربى مبين قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧] وقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم: ٩٧] فالرسول ﷺ هو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربى مبين قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧] فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين يقال بان الشيء وأبان واستبان وتبين وبين كلها أفعال لازمة وقد يقال أبان غيره وبينه وتبينه واستبانه ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم بل قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتمونه وذم كاتميه فقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبَيِّنْتُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠] وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] فقد لعن كاتميه وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب فكيف يكون قد بينه للناس وهو قد كتم الحق وأخفاه وأظهر خلاف ما أبطن فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما ومن نسب الانبياء إلى الكذب والكتمان مع كونه يقول انهم انبياء فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم تناقضا وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق بعض الصوفية والفقراء وبعض أهل الكلام والفلسفة يسلك مسلك الباطنية في بعض الأمور لا في جميعها حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص أو حل الخمر وغيرها من المحرمات لهم أو ان لبعضهم طريقا إلى الله عز وجل غير متابعة الرسول وقد يحتج بعضهم بقصة موسى والخضر

ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة وهم في هذا ضالون من وجهين أحدهما ان الخضر لم يخرج عن الشريعة بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى ولهذا لما بين له الأسباب أقره على ذلك ولو لم يكن جائزا لما أقره ولكن لم يكن موسى يعلم الأسباب التي بها أبيحت تلك فظن ان الخضر كالمملك الظالم فذكر ذلك له الخضر والثاني ان الخضر لم يكن من امة موسى ولا كان يجب عليه متابعتة بل قال له انى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه وذلك ان دعوة موسى لم تكن عامة فان النبي كان يبعث إلى قومه خاصة ومحمد ﷺ بعث إلى الناس كافة بل بعث إلى الانس والجن باطنا وظاهرا فليس لأحد ان يخرج عن طاعته ومتابعتة لا في الباطن ولا في الظاهر لا من الخواص ولا من العوام^(١).

فقد قال النبي من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ولا يؤمر العالم بما يوجب لعنة الله عليه والله أعلم^(٢).

بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمة

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع فقبل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارا عن جميع

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٦٣-٢٦٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٦٦ ومجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٥٩.

الأمّة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة وأخبر ﷺ ان الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضا وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق أيضا بل قد يكون الانحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمّة ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين قال الله سبحانه ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُنِيتَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩] فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح وهو خلق مذموم مطلقا وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم وقال الله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٣٦-٣٧] فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر فلذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ مِمَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٤﴾ الآية وقوله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿البقرة: ١٤﴾ فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم تارة بخلا به وتارة اعتياضا عن إظهاره بالدنيا وتارة خوفا أن يحتج عليهم بما أظهره منه وهذا قد ابتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتمون العلم بخلا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه وتارة اعتياضا عنه برياسة أو مال ويخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم وليس الغرض تفصيل ما يجب وما يحتسب بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به.

فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله

فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿آل عمران: ٨٩﴾ في التائب من الردة وقال في كاتم العلم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ١٦٠﴾ وقال ﴿وَإِذْ جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿الأنعام: ٥٤﴾ وقال في القذف ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النور: ٥﴾ وقال ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿الضرقان: ٧٠-٧١﴾ وقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿طه: ٨٢﴾ ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر رسول الله ﷺ المسلمين بهجرهم حتى نساءهم ثمانين ليلة

وقال النبي ﷺ في الغامدية لما رجحها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله وقد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وإذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره أم كفره وجزعه وطاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فأدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له وو فقه الله في هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط^(١).

أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك في الصحيحين عن النبي أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفي الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفي الصحيح عنه أنه قال لعنه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمان وفي الصحيحين عنه أنه قال لو فد عبد القيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٢٣-٣٢٤.

وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفي حديث في المسند قال الإسلام علانية والإيمان في القلب فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والالتقياد وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبت الملك خبت جنوده وفي الصحيحين عنه أنه قال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهي القلب^(١).

والتوحيد الذي جاء به الرسول تضمن إثبات الألوهية لله وحده جميع المسلمين يعتقدون أن كل ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن وهو المختص بالقدم والأزلية والذي جاء به الكتاب والسنة هو توحيد الإلهية فلا إله إلا هو فهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهذا أول ما دعا إليه الرسول وآخره حيث قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وإني رسول الله وقال لعنه أبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقال لقنوا موتاكم لا إله إلا الله وكل هذه الأحاديث في الصحاح وهذا من أظهر ما يعلم بالإضطرار من دين النبي ﷺ وهو توحيد الإلهية أنه لا إله إلا الله^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٤.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٢١.

والتوحيد الذي جاء به الرسول تضمن إثبات الأهمية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات قال جابر بن عبد الله في حديثه الصحيح في سياق حجة الوداع فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك وكانوا في الجاهلية يقولون لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فأهل النبي ﷺ بالتوحيد كما تقدم قال تعالى ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] (١).

لا إله إلا الله هي حقيقة الأمر كله

وذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عبده عابداً لغير الله مشركاً بالله عادلاً به جامعاً له نداً فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسوله وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إنني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً وهي رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دمايتهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فأخبر سبحانه أنه يوحى إلى كل رسول بنفي الألوهية عما

(١) درء التعارض ج: ١ ص: ٢٢٤.

سواه وإثباتها له وحده^(١).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]

فان الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته

(هذا ضمن رده على من ينكر صفات الله الاختيارية مثل المشيئة والكلام

والارادة) وقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ونحو ذلك فاذا لم يكن له فعل يقوم به باختياره امتنع ذلك

كله فانه من المعلوم بصريح العقل أنه اذا خلق السموات والارض فلا بد من فعل يصير

به خالقا والا فلو استمر الامر على حال واحدة لم يحدث فعل لكان الامر على ما كان

قبل أن يخلق وحينئذ فلم يكن المخلوق موجودا فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق

موجودا ان كان الحال في المستقبل مثل ما كان في الماضى لم يحدث من الرب فعل هو

خلق السموات والأرض وقد قال تعالى ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ

أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] ومعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق فدل على أن الخلق لم

يشهده وهو تكوينه لها واحداثه لها غير المخلوق الباقى وأيضا فانه قال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالخلق لها كان في ستة أيام وهى موجودة بعد المشيئة

فالذى اختص بالمشيئة غير الموجود بعد المشيئة وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]

فان الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته فان لم يكن له رحمة الا نفس

ارادة قديمة أو صفة أخرى قديمة لم يكن موصوفا بأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء

قال الخليل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٠-٢١]

فالرحمة ضد التعذيب والتعذيب فعله وهو يكون بمشيئته كذلك الرحمة تكون بمشيئته كما

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٥٦.

قال ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] (١).

جميع المسلمين يعتقدون أن كل ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن وهو المختص بالقدم والأزلية والذي جاء به الكتاب والسنة هو توحيد الإلهية فلا إله إلا هو فهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهذا أول ما دعا إليه الرسول وآخره حيث قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وإني رسول الله وقال لعنه أبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقال لقنوا موتاكم لا إله إلا الله وكل هذه الأحاديث في الصحاح وهذا من أظهر ما يعلم بالإضطرار من دين النبي ﷺ وهو توحيد الإلهية أنه لا إله إلا الله (٢).

لطائف لغوية

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال ما من نبي من الانبياء الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۚ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فالبيّنات جمع بيّنة وهي الأدلة والبراهين التي هي بيّنة في نفسها وبها يتبين غيرها يقال بين الأمر أي تبين في نفسه ويقال بين غيره فالبين اسم لما ظهر في نفسه ولما أظهر غيره وكذلك المبين كقوله فاحشة مبينة أي متبينة فهذا شأن الأدلة فان مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية وبها يتبين غيرها فيستدل على الخفي بالجلي والهدى مصدر هداة هدى والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه وهو ضد الضلالة فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدي الناس فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق عرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده وأنه لا يجوز عبادة غيره وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٦٠.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٢١.

والبيانات فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك فليس ما يجبر به ويأمر به من الهدى قولاً مجرداً عن دليله ليؤخذ تقليداً واتباعاً للظن بل هو مبين بالآيات البيّنات وهي الأدلة اليقينية والبراهين القطعية وكان عند أهل الكتاب من البيّنات الدالة على نبوة محمد وصحة ما جاء به أمور متعددة كبشارات كتبهم وغير ذلك فكانوا يكتُمونه^(١).

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الزمر: ٦٨] إلى قوله ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ٦٨ يَضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿[الزمر: ٦٨-٧٠] وهو عائد إلى قوله يلقى ويضعف ويخلد وقال سبحانه ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ ١٥٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا ﴿[البقرة: ١٥٩-١٦٠] وقال تعالى ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ٨٧ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿آل عمران: ٨٧-٨٩] وقال تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣] إلى قوله ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٣٣ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ ﴿[المائدة: ٣٣-٣٤] فهذا استثناء قد تعقب عدة جهل وقد ثبت بما روى عن الصحابة أن قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٥] في آية القذف عائد إلى الجملتين وقال النبي لا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ولا يجلس على تكرمته الا باذنه وقال النبي لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى وهذا كثير في الكتاب والسنة بل من تأمل غالب الاستثناءات الموجودة في الكتاب والسنة التي تعقبت جملاً وجدها عائدة إلى الجميع هذا في الاستثناء فاما في الشروط والصفات فلا يكاد يحصيها الا الله^(٢).

﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى﴾ [البقرة: ١٥٩] عامة الأسماء يتنوع مسماهها بالاطلاق

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ١٦٧.

والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الضاحية: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى لِّلشَّاقِقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وانما هداهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما في قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجْتِنِبَهُ وَهَدِنَهُ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الإسلام واذا أطلق الهدى كان كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا^(١).

﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] وقال ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: ٦] أي هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا فهما يتعاقبان^(٢).

والباء للسبب كما في مثل قوله تعالى ﴿وَمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَآخِيكَ بِهِ الرِّجْسُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]^(٣).

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله ﴿قَدْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٥٢٤.

(٣) رسالة في دخول الجنة ج: ١ ص: ١٤٥.

بَيْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨] ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء^(١).

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة^(٢).
ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله

رسوله
ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شئ وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكييفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١.

لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ﴾^(١)

والله قد أخبر في كتابه انه يجعل في هذه المصنوعات آيات والآية مثل العلامة والدلالة فدل بها خلقه وجعلها آيات تكون تبصره وذكرى لكل عبد منيب كما قال ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ﴾ [البقرة: ١٦٣] إلى قوله ﴿لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وتارة يسميها نفسها آية كما قال تعالى ﴿وَأَيَّةٌ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣] وهذا الذي ذكره الله في كتابه هو الحق^(٢).

توحيد الإلهية متضمن لشيئين

والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له وهو متضمن لشيئين أحدهما القول العملي وهو إثبات صفات الكمال له وتنزيهه عن النقائص وتنزيهه عن أن يماثله احد في شيء من صفاته فلا يوصف بنقص بحال ولا يماثله أحد في شيء من الكمال كما قال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد سورة الإخلاص فالصمدية تثبت له الكمال والاحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه فلا يدعو إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يرجو إلا إياه ويكون الدين كله لله قال تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين سورة الكافرون وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه لا شريك له في الملك^(٣).

(١) العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٧٩.

(٣) الصفدية ج: ٢ ص: ٢٢٨.

الآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ان القضايا الكلية العامة لا توجد في الخارج كلية عامة وانما تكون كلية في الازهان لا في الاعيان واما الموجودات في الخارج فهي امور معينة كل موجود له حقيقة تخصه يتميز بها عما سواه لا يشاركه فيها غيره فحينئذ لا يمكن الاستدلال بالقياس على خصوص وجود معين وهم معترفون بذلك وقائلون ان القياس لا يدل على امر معين وقد يعبرون عن ذلك بأنه لا يدل على جزئي وانما يدل على كلي والمراد بالجزئي ما يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه وكل موجود له حقيقة تخصه يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها فاذن القياس لا يفيد معرفة امر موجود بعينه وكل موجود فانما هو موجود بعينه فلا يفيد معرفة شيء من حقائق الموجودات وانما يفيد امورا كلية مطلقة مقدرة في الازهان لا محققة في الاعيان وقد بسطنا الكلام على هذا وغيره في غير هذا الموضوع وبين ان ما يذكره النظار من الادلة القياسية التي يسمونها براهين على اثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه وانما يدل على امر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه فانا اذا قلنا هذا محدث وكل محدث فلا بد له من محدث أو ممكن والممكن لا بد له من واجب انما يدل هذا على محدث مطلق أو واجب مطلق ولو عين بأنه قديم ازلي عالم بكل شيء وغير ذلك فكل هذا انما يدل فيه القياس على امر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه وانما يعلم عينه بعلم اخر يجعله الله في القلوب وهم معترفون بهذا لان النتيجة لا تكون ابلغ من المقدمات والمقدمات فيها قضية كلية لا بد من ذلك والكلي لا يدل على معين وهذا بخلاف ما يذكره الله في كتابه من الآيات كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] وغير ذلك فانه يدل على المعين كالشمس التي هي اية النهار وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢] والدليل اتم من القياس فان الدليل قد يكون بمعين على معين كما

يستدل بالنجم وغيره من الكواكب على الكعبة ف الآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره فان كل ما سواه مفتقر اليه نفسه فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه^(١).

يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب

أهل السنة وجمهورهم فيقولون بما دل عليه الشرع والعقل قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا لَا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] سورة البقرة ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب^(٢).

ومن الناس من ينكر القوى والطبائع كما هو قول أبي الحسن ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الاسباب أيضا ويقولون ان الله يفعل عندها لا بها فيقولون ان الله لا يشبع بالخبز ولا يروى بالماء ولا ينبت الزرع بالماء بل يفعل عنده لابه وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة واجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس فان الله قال في كتابه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا لَا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] فأخبر أنه ينزل الماء بالسحاب ويخرج الثمر بالماء وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال ﴿وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٤٥ ومجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٣٤.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١١٤.

[ق: ٩] وقال ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] وقال ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ومثل هذا في القرآن كثير والناس يعلمون بحسبهم وعقلهم أن بعض الأشياء سبب لبعض كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان كما قال ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وإن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشي ومثل ذلك كثير ولبسظ هذه المسائل موضع آخر^(١).

قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩] وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل بعض مخلوقاته ببعض كما قال تعالى ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] وكما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بِبَيْتِ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقًا أَلَا سُقْنَاهُ لِيَكْدِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وكما قال ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيِّنَّا فِيهَا مِنَ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] فمن قال من أهل الكلام إن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها فعبارته مخالفة لكتاب الله تعالى والأمور المشهورة كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدين^(٢).

العلماء متفقون على اثبات حكمة الله في خلقه وامره واثبات الاسباب والقوى

وهذا الاصل قد تقابلوا فيه الفلاسفة والمبتدعة من اهل الكلام فأولئك يقولون ليس لشيء من حركات الفلك تأثير في هذا العالم ولا شيء منها سبب في حدوث شيء

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٨.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٠٠ ومجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٨٣.

بل يطردون هذا في جميع الموجودات فلا يجعلون الله خلق شيئا لسبب ولا لحكمة ولا يجعلون للانسان قدرة تؤثر في مقدورها ولا لشيء من الاجسام طبيعة ولا غريزة بل يقولون فعل عنده لا به وخالفوا بذلك الكتاب والسنة واجماع السلف والائمة وصرائح العقول فان الله تعالى يقول ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يذكر سبحانه انه فعل هذا بهذا كما ذكر انه انزل الماء بالسحاب وانه احيا الارض بالماء والعلماء متفقون على اثبات حكمة الله في خلقه وامره واثبات الاسباب والقوى كما قد ذكرنا اقوالهم في موضعها وليس من السلف من انكر كون حركات الكواكب قد تكون من تمام اسباب الحوادث كما ان الله جعل هبوب الرياح ونور الشمس والقمر من اسباب الحوادث وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال ان الشمس والقمر ايتان من آيات الله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته ولكنهما ايتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده فاذا رايتموهما فافزعوا إلى الصلوة وامر رسول الله ﷺ عند الكسوف بالصلوة والذكر والدعاء والصدقة والعताقة والاستغفار وكذلك عند سائر الآيات التي يخوف الله بها عباده وقوله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته رد لما كان قد توهمه بعض الناس من ان كسوف الشمس كان لاجل موت ابراهيم ابن النبي ﷺ وكان قد مات وكسفت الشمس فتوهم بعض الجهال من المسلمين ان الكسوف كان لاجل هذا فبين لهم النبي ﷺ ان الكسوف لا يكون سببه موت احد من اهل الارض ونفي بذلك ان يكون الكسوف معلولا عن ذلك وظنوا ان هذا من جنس اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ كما ثبت ذلك في الصحيح فنفي النبي ﷺ ذلك

وبين ان ذلك من آيات الله التي يخوف بها عباده والتخويف انما يكون بما يكون سببا للشر قال تعالى ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] فلو كان الكسوف وجوده كعدمه بالنسبة إلى الحوادث لم يكن سببا لشر وهو خلاف نص الرسول وايضا في السير ان النبي ﷺ نظر إلى القمر وقال لعائشة يا عائشة تعوذني بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب والاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر وامر ﷺ عند انعقاد اسباب الشر بما يدفع موجبا بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلوة والدعاء والذكر والاستغفار والتوبة والاحسان بالصدقة والعناقة فان هذه الاعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه كما في الحديثان الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض فيعتلجان وهذا كما لو جاء عدو فانه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهد له واذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء فكذلك الاعمال الصالحة والدعاء وهذا ما اتفق عليه الملل واساطين الفلاسفة حتى يذكر عن بطليموس انه قال واعلم ان ضجيج الاصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الافلاك الدائرات وكسوف الشمس انما يكون وقت استقرار القمر اخر الشهر وخسوف القمر انما يكون ليالي الابدان الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كما ان الهلال قد يكون ليلة الثلاثين أو الحادي والثلاثين هذا الذي اجري الله به عادته في حركات الشمس والقمر وما ذكره بعض الفقهاء من تقدير اجتماع الكسوف وصلوة العيد فهذا لم يقله احد من الصحابة ولا ذكره اكثر العلماء لا احمد ولا غيره ولكن ذكره طائفة من الفقهاء من اصحاب الشافعي واحمد وغيرهما تبعا لما ذكره الشافعي وانه رضي الله عنه لما تكلم فيما اذا اجتمع صلوتان كيف يصنع وذكر انه يقدم ما يفوت على ما لا يفوت ذكر من جملة التقدير صلوة العيد والكسوف طردا للقاعدة مع اعراضه عن كون ذلك يقع أو لا يقع كما يقدر الفقهاء مسائل كثيرة لطرد القياس مع اعراضهم عن وقوع ذلك في الوجود بل يقدرون ما يعلمون انه لا يقع عادة كعشرين جدة وفروع الوصايا فجاء بعض الفقهاء فأخذ يكابر ويقول ان هذا قد يقع وذكروا عن الواقدي انه قال ابراهيم مات يوم العاشر وذلك اليوم كسفت الشمس وهذا كله باطل والواقدي ليس بحجة بالاجماع اذا اسند ما ينقله فكيف اذا كان مقطوعا وقول القائل انها كسفت يوم العاشر بمنزلة قوله طلع الهلال في عشرين من الشهر لكن هذه عادة ظاهرة يعرفها الناس

كلهم وتلك عادة يعرفها من استقراها وعرف اسبابها ومجاري النيرين من الناس التكلم بلا علم في الشرعيات وفي العقليات وضرره فليس لاحد ان يتكلم بلا علم بل يحذر ممن يتكلم في الشرعيات بلا علم وفي العقليات بلا علم فان قوما ارادوا بزعمهم نصر الشرع بعقولهم الناقصة واقيستهم الفاسدة فكان ما فعلوه مما جرا الملحدين اعداء الدين عليه فلا للاسلام نصروا ولا لاعدائه كسروا واقوام يدعون انهم يعرفون العلوم العقلية وانها قد تخالف الشريعة وهم من اجهل الناس بالعقليات والشرعيات واكثر ما عندهم من العقليات امور قلدوا من قالها لو سئلوا عن دليل عقلي يدل عليها لعجزوا عن بيانه والجواب عما يعارضه ثم من العجائب انهم يتركون اتباع الرسل المعصومين الذين لا يقولون الا الحق ويعرضون عن تقليدهم ثم يقلدون في مخالفة ما جاءوا به من يعلمون هم انه ليس بمعصوم وانه قد يخطيء تارة ويصيب اخرى وهؤلاء عندهم امور معلومة من الحسابيات مثل وقت الكسوف والخسوف ومثل كرية الافلاك ووجود السحاب من البخاري ونحو ذلك من الامور الطبيعية والرياضية فيحتجون بها على من يظن انه من اهل الشرع فيسرع ذلك المنتسب إلى الشرع برد ما يقولونه بجهله فيكون رد ما قالوه من الحق سببا لتنفيرهم عما جاء به الرسول من الحق بسبب مناظرة هذا الجاهل والله تعالى امرنا ان لا نكذب ولا نكذب بحق وانما مدح سبحانه من يصدق فيتكلم بعلم ويصدق ما يقال له من الحق قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٦٨] ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [النزمر: ٣٣] وهاتان صفتان لنوع واحد وهو من يجي بالصدق ويصدق بالحق اذا جاءه فهذا هو المحمود عند الله واما من كذب أو كذب بما جاءه من الحق فذلك مذموم عند الله تعالى وكذلك قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ۗ عِلْمٌ ۗ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ۗ سُلْطَانًا ۖ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ ۗ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ

شَيْئًا ﴿[النجم: ٢٨] ومثل هذا متعدد في كتاب الله تعالى ثم ان حركات الافلاك وان كانت من جملة الاسباب فليس الحوادث كلها صادرة عن حركة الفلك بل فوق ذلك من مخلوقات الله امور اخر وملائكة الله الذين يدبر بهم امر السماء والارض وهم ﴿فَالْمَدْرَبَاتُ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] و﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] التي اقسام الله بها في كتابه^(١).

الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع

ومن قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد إقتران عادي كإقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز قال بعض الفضلاء تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ثم أن هؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يقول أنه شيع بالخبز وروى بالماء بل يقول شبعت عنده ورويت عنده فإن الله يخلق الشيع والري ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله تعالى يقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] الآية وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَشَّرْنَا فِيهَا مِنَ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْأَحْسَنِينَ وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٢٧٠ - ٢٧٥ ومجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٣٠.

مَاءٌ مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ [ق: ٩] وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩٩] وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧] وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبْدِئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [النحل: ١٠-١١] وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَعِجُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ [البقرة: ٢٦] إلى قوله ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] ومثل هذا في القرآن كثير وكذلك في الحديث عن النبي ﷺ كقوله لا يموتن أحد منكم إلا أذنتموني به حتى أصلي عليه فإن الله جعل بصلاتي عليه بركة ورحمة وقال ﷺ إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نورا ومثل هذا كثير ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدره في خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرًا حصل بدون ذلك وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبي أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن أنه قيل يارسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئًا فقال هي من قدر الله ولهذا قال من قال من العلماء الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات وجعل هذا سببا لهذا فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرًا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرًا بدون السبب كما قال النبي إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وقال عملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فبينما أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمل ويختم له به وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمل ويختم له به كما قال ﷺ إنما الأعمال بالخواتيم وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة وجميع السيئات تغفر بالتوبة ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى وأحدث عمداً قبل كمال الصلاة بطل عمله وبالجملة فالذي عليه سلف الأمة وأئمتها ما بعث الله به رسلاً وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكوني وحكمه الديني وإرادته الكونية والدينية كما قال في الآية الأولى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأأنعام: ١٢٥] وقال نوح عليه السلام ﴿وَلَا تَفْعَلُوا نَصِيحَةً إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال تعالى في الإرادة الدينية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] وقال ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيتته يقرون بأنه لا إله إلا هو لا يستحق العبادة غيره ويطيعونه ويطيعون رسله ويحبونه ويرجونه ويخشونه ويتكلمون عليه وينبئون إليه ويوالون أوليائه ويعادون أعداءه ويقرون بحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين رضاه بذلك وبغضه لما أنهى عنه وللكافرين وسخطه لذلك ومقتته له ويقرون بما إستفاض عن

النبي ﷺ من أن الله أشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما إستيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته فهو إلههم الذي يعبدونه وربهم الذي يسألونه كما قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يجب كل محب محبوبه^(١).

التوكل مقرون بالعبادة والعبادة فعل المأمور

وفي خطبة النبي الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا فجمع بين حمده والاستعانة به والإستغفار له فقد تبين أن الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه وأما قولهم (قول السلف) محو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها كما أن أولئك الطبيعيين جعلوها عللا مقتضية وكما أن المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها والأقول الثلاثة باطلة فإن الله يقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِمَن لَّيَّمْتُمْ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] وأمثال ذلك فمن قال يفعل عندها لا بها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في إختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر وأما قولهم الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٦٥-٣٦٦ ومجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٣٧-١٤١ ومجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٨١.

في الشرع بل هو أيضا قدح في العقل فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيظ بها فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار فهو من أعظم الناس جهلا وأشدهم كفرا بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيظ بها من العبادات وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات ومع هذا فقد قال خير الخلق أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ولما قال لهم ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا يارسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له إما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له فمن قال ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت أو لم أدع وتوكلت أو لم أتوكل فهو بمنزلة من يقول ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي آمنت أو لم أؤمن وأطعت أم عصيت ومعلوم أن هذا ضلال وكفر وأن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان لكن لا ريب أن ما جعل الله سببا له بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببا له وهو قادر على أن يفعله سبحانه بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أوامر إستحباب من جلب المنافع أ ودفع المضار قادح في الشرع خارج عن العقل ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها وظنوا أن هذا من تمام التوكل والتوكل مقرون بالعبادة في قوله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] والعبادة فعل المأمور فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالا ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به^(١).

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب كما جعل المطر سببا لإنبات النبات قال الله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٧٥ - ١٧٨.

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].^(١)

هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعا لهذه السموات والارض
الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والارض لم يخلق هذا
الليل وهذا النهار قبل هذه السموات والارض بل خلق هذا الليل وهذا النهار تبعا لهذه
السموات والارض فان الله اذا اطلع الشمس حصل النهار واذا غابت حصل الليل
فالنهار بظهورها والليل بغروبها فكيف يكون هذا الليل وهذا النهار قبل الشمس
والشمس والقمر مخلوقان مع السموات والارض وقد قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الانبيا: ٣٣] وقال تعالى ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُدرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] قال ابن عباس وغيره من
السلف في فلكة مثل فلكة المغزل فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر في
الفلك والفلك هو السموات عند أكثر العلماء بدليل أن الله ذكر في هاتين الآيتين ان
الشمس والقمر في الفلك وقال في موضع آخر ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا
﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥-١٦] فأخبر أنه جعل الشمس والقمر
في السموات وقال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] بين أنه خلق السموات والارض وأنه خلق
الظلمات والنور لأن الجعل هو التصيير يقال جعل كذا اذا صيره فذكر أنه خلق
السموات والارض وأنه جعل الظلمات والنور لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس
والقمر المخلوقة في السموات وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسما قائما بنفسه
ولكنه صفة وعرض قائم بغيره فالنور هو شعاع الشمس وضوءها الذي ينشره الله في
الهواء وعلى الارض وأما الظلمة في الليل فقد قيل هي كذلك وقيل هي أمر وجودي

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٣٧.

فهذا الليل وهذا النهار اللذان يختلفان علينا اللذان يولج الله أحدهما في الآخر فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخلف أحدهما الآخر يتعاقبان كما قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وقال تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] بين سبحانه أنه جعل لكل شيء قدرا واحدا لا يتعداه فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر وتلحقه بل لها مجرى قدره الله لها وللقمر مجرى قدره الله له كما قال تعالى ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٩] ثم قال ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] أى لا يفوته ويتقدم امامه حتى يكون بينهما برزخ بل هو متصل به لا هذا ينفصل عن هذا ولا هذا ينفصل عن هذا ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فالقصد أن هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعا لهذه السموات والارض^(١).

الموجود والمحدث الممكن لا بد له من موجد قديم واجب بنفسه
فمن المعلوم بالمشاهدة والعقل وجود موجودات ومن المعلوم أيضا ان منها ما هو حادث بعد ان لم يكن كما نعلم نحن انا حادثون بعد عدمنا وان السحاب حادث والمطر والنبات حادث والدواب حادثة وامثال ذلك من الآيات التى نبه الله تعالى عليها بقوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود بذاتها فان ما وجب وجوده بنفسه امتنع عدمه ووجب قدمه وهذه كانت معدومة ثم وجدت فدل وجودها بعد عدمها على انها يمكن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٩٧.

وجودها ويمكن عدمها فان كليهما قد تحقق فيها فعلم بالضرورة اشتغال الوجود على وجود محدث ممكن فنقول حينئذ الموجود والمحدث الممكن لا بد له من موجد قديم واجب بنفسه فانه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الانسان نفسه وهذا من أظهر المعارف الضرورية فان الانسان بعد قوته ووجوده لا يقدر أن يزيد في ذاته عضوا ولا قدرا فلا يقصر الطويل ولا يطول القصير ولا يجعل رأسه أكبر مما هو ولا أصغر وكذلك أبواه لا يقدران على شيء من ذلك ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لا بد له من محدث وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان فان الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصره لقال من ضربني فلو قيل له لم يضربك أحد لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدث بل يعلم أنه لا بد للحادث من محدث فاذا قيل فلان ضربك بكى حتى يضرب ضاربه فكان في فطرته الاقرار بالصانع وبالشرع الذى مبناه على العدل ولهذا قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء اسارى بدر قال وجدت النبي يقرأ في المغرب بالطور قال فلما سمعت هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] أحسست بفؤادى قد انصدع وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الانكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها يقول ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] أى من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم وهم يعلمون ان كلا النقيضين باطل فتعين أن لهم خالقا خلقهم سبحانه وتعالى^(١).

إنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾

[طه: ٥٤] أى العقول وقال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ﴾ [الزجر: ٥] أى لذي عقل وقال

تعالى ﴿وَأَنْتُمْ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال ﴿إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٥٧-٣٥٩.

الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] (١).

كل من عمل سوءا فهو جاهل

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الأبواب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون (٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

﴿وَاللَّهُمُّ لِلَّهِ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
 بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
 كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ
 بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَنَّا الْقُرُونُ مِن قَبْلِ
 كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ
 كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
 ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْتِنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْلَوْكَ ءَابَاءُهُمْ لَا
 يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ
 إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ
 طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
 الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا
 إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ
 وَيَسْتُرُونَ بِهِ ءِثْمًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿البقرة: ١٦٣-١٧٦﴾

ول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله هو تحقيق قول لا إله إلا الله

فهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيتته وقدرته وخلقّه وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك بالله فأعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله هو تحقيق قول لا إله إلا الله فإن المسلمين وإن اشتهروا في الإقرار بها فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلا لا نقدر أن نضبطه حتى أن كثيرا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربّه ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملية فإن المشركين ما كانوا يقولون إن العالم خلقه اثنان ولا أن مع الله ربا ينفرد دونه بخلق شيء بل كانوا كما قال الله عنهم ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وقال تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وكانوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٥٢.

مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى يجعلونهم شفعاء لهم إليه ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفي ويحبونهم كحب الله والإشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

فمن أحب مخلوقا كما يجب الخالق فهو مشرك به قد اتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله وإن كان مقرا بأن الله خالقه ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقا لله وبين من أحب مخلوقا مع الله فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يجب معه غيره لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحذور أحب ذلك فكان حبه لما يحبه تابعا لحبة الله وفرعا عليه وداخلا فيه بخلاف من أحب مع الله فجعله ندا يرجوه ويخافه أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ويتخذة شفيعا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُم وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] وقد قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ ما عبدوهم قال أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم وقال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنسٰنِ خَدُوْلًا ﴿٢٩﴾ [الزمر: ٢٧-٢٩] فالرسول وجبت طاعته لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فالللال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله وهو إذا

أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخله في طاعة الرسول قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم بل جعل طاعة أولي الأمر داخله في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة الله وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من أطاعهم مطيعا لله بل لا بد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية الله وينظر هل أمر الله به أم لا سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله قال تعالى ﴿وَقَدْ لُوهُمُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُلُّهُمُ لِلَّهِ﴾ [الأَنْفَال: ٣٩] وقال النبي ﷺ لما قيل له يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأبي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ثم إن كثيرا من الناس يجب خليفة أو عالما أو شيئا أو أميرا فيجعله ندا لله وإن كان قد يقول إنه يجب لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندا وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ويدعوه ويستغيث به ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحمله ويمرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالتوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ويكون في أعمال القلب ولهذا قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله والتوكل من تمام التوحيد وهذا كلفظ الإيمان فإنه إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة وقيل الإيمان قول وعمل أي قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة

الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] ففرق بين إيمانه ب الله وإيمانه للمؤمنين لأن المراد بصدق المؤمنين إذا أخبروه وأما إيمانه ب الله فهو من باب الإقرار به ومنه قوله تعالى عن قول فرعون وملئه ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] أي نقر لهما ونصدقهما ومنه قوله ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥] ومنه قوله تعالى ﴿فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ومن المعنى الآخر قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] وقوله ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله ﴿وَلَكِنَّ الْإِبْرَءَمَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابَ وَالنَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي أقر بذلك ومثل هذا في القرآن كثير^(١).

والتوحيد الذي جاء به الرسول تضمن إثبات الألهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات فليس كل من أقر أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابدا له دون ما سواه داعيا له دون ما سواه راجيا خائفا منه دون ما سواه يوالي فيه ويعادي فيه ويطيع رسله ويأمر بما أمر به وينهي عما

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٢٠-٣٢٣.

نهى عنه وعامة المشركين أقرؤا بأن الله خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أندادا قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشرك أو من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسله^(١).

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل وقال تعالى ﴿ فَاقْرَأْ وَجَهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن مَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣٠] مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [٣١] مِنَ الدِّينِ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢] وقد قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [التاويرات: ٥٦] فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٦] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت: ٦-٧] أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦] في موضعين من كتابه وهذا أول الكلمات

(١) درء التعارض ج: ١ ص: ٢٢٧-٢٢٨.

العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال أنا الله لا إله إلا أنا أهلك الذي أخرجتك من أرض مصر من التبعيد لا يكون لك إله غيري لا تتخذ صوراً ولا تماثلاً ما في السموات من فوق ومن في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لمن ولا تعبدن إنني إنا ربك العزيز وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية في الناموس فعبادة الله وحده لا شريك له وإن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون كموسى والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَكِيدٌ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ويسخط بعض الأمور ويمقتها والجهمية والقدرية إنما لم تفرق بين ما يشاؤه وما يحبه لأنهم لا يشبتون الله محبة لبعض الأمور المخلوقة دون بعض وفرحاً بتوبة التائب وكان أول من أنكر هذا الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى وقال ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولا اتخذ إبراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً ثم نزل عن المنبر فذبحه فإنه الخلة من توابع المحبة فمن كان من أصله أن الله لا يجب ولا يجب لم يكن للخلة عنده معنى والرسول صلوات الله عليهم أجمعين إنما جاءوا بإثبات هذا الأصل وهو أن الله يجب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ويسخط بعض الأمور ويمقتها وأن أعمال العباد ترضية تارة وتسخطه أخرى قال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] وقال تعالى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨] وقال ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] عن ابن عباس أغضبونا قال ابن قتيبة الأسف الغضب يقال أسفت أسفاً أي غضبت وقال الله تعالى

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٠.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بارض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة ينتظر الموت فاستيقظ فإذا هو بدابته عليها طعامه وشرابه فالحه أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته والفرح إنما يكون بحصول المحبوب والمذنب كالعبد الأبق من مولاه الفار منه فإذا تاب فهو كالعائد إلى مولاه وإلى طاعته وهذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ يبين من محبة الله وفرحه بتوبة العبد ومن كراهته لمعاصيه ما يبين أن ذلك أعظم من التمثيل بالعبد الأبق فإن الإنسان إذا فقد الدابة التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة فإنه يحصل عنده ما الله به عليم من التأذي من جهة فقد الطعام والشراب والمركب وكون الأرض مفازة لا يمكن الخلاص منها وإذا طلبها فلم يجدها يئس واطمأن إلى الموت وإذا استيقظ فوجدها كان عنده من الفرحة ما لا يمكن التعبير عنه بوجود ما يحبه ويرضاه بعد الفقد المنافي لذلك وهذا يبين من محبة الله للتوبة المتضمنة للإيمان والعمل الصالح ومن كراهته لخلاف ذلك ما يرد على منكر الفرق من الجهمية والقدرية فإن الطائفتين تجعل جميع الأشياء بالنسبة إليه سواء ثم القدرية يقولون هو يقصد نفع العبد لكون ذلك حسنا ولا يقصد الظلم لكونه قبيحا والجهمية يقولون إذا كان لا فرق بالنسبة إليه بين هذا وهذا امتنع أن يكون عنده شيء حسن وشيء قبيح وإنما يرجع ذلك إلى أمور إضافية للعباد فالحسن بالنسبة إلى العبد ما يلائمه وما ترتب عليه ثواب يلائمه والقبيح بالعكس ومن هنا جعلوا المحبة والإرادة سواء فلو أثبتوا أنه سبحانه يحب ويفرح بحصول محبوبه كما أخبر به الرسول تبين لهم حكمته وتبين أيضا أنه يفعل الأفعال لحكمة فإن الجهمية قالوا إذا كانت الأشياء بالنسبة إليه سواء امتنع أن يفعل لحكمة والمعتزلة قالوا يفعل لحكمة تعود إلى العباد فقالت لهم الجهمية تلك الحكمة يعود إليه منها حكم أو لا يعود فالأول خلاف الأصل الذي أصلتموه والثاني ممتنع فيمتنع أن أحدا يختار الحسن على القبيح إن لم يكن له من فعل الحسن معنى يعود إليه فيكون فعل الحسن يناسبه بخلاف القبيح فإذا قدر نفي ذلك امتنع أن يفعل لحكمة ثم

إن هذه الصفة من أعظم صفات الكمال وكذلك كونه محبوبا لذاته هو أصل دين الرسل فإنهم كلهم دعوا إلى عبادة الله وحده وأن لا إله إلا هو والإله هو المستحق أن يعبد والعبادة لا تكون إلا بتعظيم ومحبة وإلا فمن عمل لغيره لعوض يعطيه إياه ولم يكن يجب لم يكن عابدا له وقد قال تعالى ﴿مُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهؤلاء الذين ينفون أن الله يجب ويجب آخر أمرهم أنه لا يبقى عندهم فرق بالنسبة إلى الله بين أوليائه وبين أعدائه ولا بين الإيمان والكفر ولا بين ما أمر به وما نهى عنه ولا بين بيوته التي هي المساجد وبين الحانات ومواضع الشرك وغاية ما يثبتونه من الفرق أن هذا علم على لذة تحصل للإنسان وهذا علم على ألم يحصل للإنسان فإن كانوا من الصوفية الذين يجعلون الكمال في فناء العبد عن حظوظه دخلوا في مقام الفناء في توحيد الربوبية الذي يقولون فيه العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ويجعلون هذا غاية العرفان فيبقى عندهم لا فرق بين أولياء الله وأعدائه ولا بين الإيمان والكفر به ولا بين حمده والثناء عليه وعبادته وبين سبه وشتمه وجعله ثالث ثلاثة ولا بين رسول الله وبين أبي جهل ولا بين موسى وفرعون وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع وإن كان من المتكلمين الذين يقولون ما ثم إلا ما هو حظ للعبد من المخلوقات صاروا مسخرين في العبادات مستثقلين لها وفي قلوبهم مرتع للشيطان فإنه يقع لهم لم لا ينعم بالثواب بدون هذا التكليف فإذا أجابوا أنفسهم بأن هذا ألد كان هذا من أبرد الأجوبة وأسمجها فإن هذا إنما يقال في المناظرين وأما رب العالمين فلا أحد إلا وهو مقر بفضله وإحسانه ثم يقال قد حصل بطلب الألد من شقاوة الأكثرين ما كان خلقهم في الجنة ابتداء بلا هذا الألد أجود لهم وهو قادر على خلق لذات عظيمة إلى أمثال هذه الأجوبة وإن كان من المرجئة الذين إيمانهم بالوعيد ضعيف استرسلت نفسه في المحرمات وترك الواجبات حتى يكون من شر الخلق بخلاف من وجد حلاوة الإيمان بمحبة الله وعلمه بأنه يجب العبادات وأنه يجب أفعالا وأشخاصا ويغض أفعالا وأشخاصا ويرضى عن هؤلاء ويغضب على هؤلاء ويفرح بتوبة التائبين إلى غير ذلك مما أخبر به الرسول فإن هذا هو الإسلام الذي به يشهد العبد أن لا إله إلا الله ومن لم يقل بالفرق فلم يجعل

الله معبودا محبوبا وإنما يشهد أن لا رب إلا هو والمشركون كانوا يقرون بهذه الشهادة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله والرسول عليهم الصلاة والسلام بعثوا بتوحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية وأما توحيد الربوبية مجردا فقد كان المشركون يقرون بأن الله وحده خالق السموات والأرض كما أخبر الله بذلك عنهم فيغير موضع من القرآن قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [النزمر: ٣٨] وقال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وهذا قد بسطناه في موضع آخر وهؤلاء يدعون محبة الله في الإبتداء ويعظمون أمر محبته ويستحبون السماع بالغناء والدفوف والشبابت ويرونه قربة لأن ذلك بزعمهم يحرك محبة الله في قلوبهم وإذا حقق أمرهم وجدت محبتهم تشبه محبة المشركين لا محبة الموحدين فإن محبة الموحدين بمتابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْرَفْتُمْوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رِبِّدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وهؤلاء لا يحققون متابعة الرسول ولا الجهاد في سبيل الله بل كثير منهم أو أكثرهم يكرهون متابعة الرسول وهم من أبعد الناس عن الجهاد في سبيل الله بل يعاونون أعداءه ويدعون محبته لأن محبتهم من جنس محبة المشركين الذين قال الله فيهم ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] ولهذا يحبون سماع القصائد أعظم مما يحبون سماع القرآن ويجتهدون في دعاء مشايخهم والإستعانة بهم عند قبورهم وفي حياتهم في مغيبهم أعظم مما يجتهدون في دعاء الله والإستعانة به في المساجد والبيوت وهذا كله من فعل أهل الشرك ليس من فعل المخلصين لله دينهم كالصحابة والتابعين لهم

بإحسان فأولئك أنكروا محبته وهؤلاء دخلوا في محبة المشركين والطائفتان خارجتان عن الكتاب والسنة فنفس محبته أصل لعبادته والشرك في محبته أصل للإشراك في عبادته وأولئك فيهم شبه من اليهود وعندهم كبر من جنس كبر اليهود وهؤلاء فيهم شبه من النصارى وفيهم شرك من جنس شرك النصارى^(١).

فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له وقد أخبر تعالى أنه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب التوايين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقال ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له حتى قال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(٢).

يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا ب الله ولا يخاف من الله أن يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ أنه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات إلى

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٢٣-٣٢٩.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٩٢.

الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَّغَتْ فَأَنْصَبْ ۗ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [التشرح: ٧-٨] فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١] والخالص من الشرك يحصل له الأمن قال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال النبي ﷺ إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿إِنِ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [نجم: ١٣] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [١٦٥] إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوا مِن ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَفَقَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [١٦٦] وقال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسُقَيْنَهُمْ ٱلْحَمِيمَ وَمَا هُمْ بِبَارِقِينَ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦] وقال تعالى ﴿قُلْ أَدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [٥٦] أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧] ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله قال

تعالى لما أنزل الملائكة ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبِكُمْ بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿[آل عمران: ١٢٦] وقال ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقد قدمنا ان الدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة وكلاهما لا يصلح الا لله فمن جعل مع الله الها آخر قعد مذموما مخذولا والراجى سائل طالب فلا يصلح ان يرجو الا الله ولا يسأل غيره ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح ما أتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذة ومالا فلا تتبعه نفسك فالمشرف الذى يستشرف بقلبه والسائل الذى يسأل بلسانه وفي الحديث الذى فى الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى قال اصابتنا فاقة فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول ايها الناس والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم وانه من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما اعطى احد عطاء خيرا وأوسع من الصبر والاستغناء ان لا يرجو بقلبه احدا فيتشرف اليه والاستعفاف ان لا يسأل بلسانه احدا ولهذا لما سئل احمد بن حنبل عن التوكل فقال قطع الاستشراف إلى الخلق اى لا يكون فى قلبك ان احدا يأتيك بشىء فقيل له فما الحجة فى ذلك فقال قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة فقال اما اليك فلا فهذا وما يشبهه مما يبين ان العبد فى طلب ما ينفعه ودفع يضره لا يوجه قلبه الا إلى الله فلهذا قال المكروب ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ومثل هذا ما فى الصحيحين عن ابن عباس ان النبى ﷺ كان يقول عند الكرب لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد وتأله العبد ربه وتعلق رجائه به وحده لا شريك له وهى لفظ خبر يتضمن الطلب والناس وان كانوا يقولون بألسنتهم لا اله الا الله فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤] فمن جعل ما يأله هو ما

يهواه فقد اتخذ الهه هواه اى جعل معبوده هو ما يهواه وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ولهذا قال الخليل ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا كالشمس والقمر والكواكب والخليل بين ان الأفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأى وجه لعبادة من يأفل وكلما حقق العبد الاخلاص في قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصى والذنوب^(١).

والاشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشتراك في الإعتقاد والاقرار

أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساوياً له في الصفات والأفعال بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين كما قال تعالى ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ولم يقل من المعطلين فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين فلم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به وجعلوا له أندادا في العبادة والمحبة والدعاء وهذا كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٤١- ٢٦٠ الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣١٥-٣١٦.

(٢) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٣٥٦.

فإن المسلمين وان اشتركوا في الاقرار بلا اله الا الله فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلا لا تقدر ان نضبته حتى ان كثيرا منهم يظنون ان التوحيد المفروض هو الاقرار والتصديق بان الله خالق كل شيء وربهم ولا يميزون بين الاقرار بتوحيد الربوبية الذي اقر به مشركوا العرب وبين توحيد الالهية الذي دعاهم اليه رسول الله ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملية فإن المشركين ما كانوا يقولون ان العالم خلقه اثنان ولا ان مع الله ربا ينفرد دونه بخلق شيء بل كانوا كما قال الله عنهم ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وقال تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ ﴿قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وكانوا مع اقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة اخرى يجعلونهم شفعاء لهم اليه ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ويجبونهم كحب الله والاشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشتراك في الاعتقاد والاقرار كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فمن احب مخلوقا كما يجب الخالق فهو مشرك به قد اتخذ من دون الله اندادا يحبهم كحب الله وان كان مقرا بان الله خالقه ولهذا فرق الله ورسوله بين من احب مخلوقا لله وبين من احب مخلوقا مع الله فالأول يكون الله هو محبوه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يجب معه غيره لكنه لما علم ان الله يحب انبياءه وعباده الصالحين احبهم لأجله وكذلك لما علم ان الله يجب فعل المأمور وترك المحظور احب ذلك فكان حبه لما يحبه تابعا لمحبة الله وفرعا عليه وداخلا فيه بخلاف من احب مع الله فجعله ندا يرجوه ويخافه أو يطيعه من غير ان يعلم ان طاعته طاعة لله ويتخذ شفعاء له من غير ان يعلم الله يأذن له ان يشفع فيه وقال تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتُونَا هُنَا شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿يونس: ١٨﴾ وقال تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وقد قال عدى بن حاتم للنبي ﷺ ما عبدوهم قال احلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم اياهم قال تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعْزُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] فالرسول وجبت طاعته لأنه من يطع الرسول فقد اطاع الله فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم طاعة الله وهم اذا امر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخله في طاعة الرسول قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا أولى الأمر منكم بل جعل طاعة أولى الأمر داخله في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة الله واعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولى الامر فإنه من يطع الرسول فقد اطاع الله فليس لاحد اذا امره الرسول بأمر ان ينظر هل امر الله به ام لا بخلاف أولى الامر فانهم قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من اطاعهم مطيعا لله بل لابد فيما يأمرون به ان يعلم انه ليس بمعصية لله وينظر هل امر الله به ام لا سواء كان أولى الامر من العلماء أو الامراء ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله الله قال تعالى ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقال النبي لما قيل له يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ثم ان كثيرا من الناس يحب خليفة أو عالما أو شيخا أو اميرا فيجعله ندا لله وان كان قد يقول انه يحبه لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما

يأمر به وينهى عنه وان خالف امر الله ورسوله فقد جعله ندا وربما صنع به كما تصنع النصرارى بالمسيح ويدعوه ويستغيث به ويوالى أوليائه ويعادى اعداءه مع ايجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل اصحابه في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالتوحيد والاشراك يكون في اقوال القلب ويكون في اعمال القلب ولهذا قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق فإنه لما قرنه بالتوكل جعله اصله واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله والتوكل من تمام التوحيد^(١).

ومن الفرقان أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق وان المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق في شىء فيجعل المخلوق ندا للخالق^(٢).

فإنه فطر عباده على الحنيفية ملة إبراهيم وأصلها محبة الله وحده فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال كل مولود يولد على الفطرة وفي صحيح مسلم عنه أنه قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا فإنه فطر عباده على الحنيفية ملة إبراهيم وأصلها محبة الله وحده فما من فطرة لم تفسد إلا وهي تجد فيها محبة الله تعالى لكن قد تفسد الفطرة إما لكبر وغرض فاسد كما في فرعون وإما بأن يشرك معه غيره في المحبة كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم محبة الله لا يماثله فيها غيره ولهذا كان الرب محمودا حمدا مطلقا على كل ما فعله وحمدا خاصا على إحسانه إلى الخامد فهذا حمد الشكر والأول حمده على كل ما فعله كما قال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] ﴿ الْحَمْدُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٦٤-٢٦٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٤.

لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ [فاطر: ١] والحمد ضد الذم والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بحبته والذم خبر بمساوىء المذموم مقرون ببغضه فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته ولا يكون ذم لمذموم إلا مع بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة وأول ما نطق به آدم الحمد لله رب العالمين وأول ما سمع من ربه يرحمك ربك وآخر دعوى أهل الجنة أن الحمد لله رب العالمين وأول من يدعى إلى الجنة الحمادون ونبينا محمد ﷺ صاحب لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائه وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمد إلا بحب المحمود وهو سبحانه المعبود المحمود^(١).

يُمْتَنَعُ فِي الْفِطْرَةِ أَنْ يَحِبَّ الْإِنْسَانَ طَاعَةً مَطَاعٍ وَعِبَادَتَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَحِبًّا لِلَّهِ

يُمْتَنَعُ فِي الْفِطْرَةِ أَنْ يَحِبَّ الْإِنْسَانَ طَاعَةً مَطَاعٍ وَعِبَادَتَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَحِبًّا لِلَّهِ وَإِلَّا فَمَا لَا يَحِبُّ فِي نَفْسِهِ لَا يَحِبُّ الْإِنْسَانَ لَا طَاعَتَهُ وَلَا عِبَادَتَهُ وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَحِبُّ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ لِلْعَوْضِ الْمَخْلُوقِ فَهُوَ لَا يَحِبُّ إِلَّا ذَلِكَ الْعَوْضَ وَلَا يَقَالُ أَنْ هَذَا يَحِبُّ اللَّهَ إِلَّا تَرَى أَنَّ الْكَافِرَ وَالظَّالِمَ وَمَنْ يَبْغِضُهُ الْمُؤْمِنُ قَدْ يَسْتَأْجِرُ الْمُؤْمِنُ عَلَى عَمَلٍ يَعْمَلُهُ فَيَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ لِأَجْلِ ذَلِكَ الْعَوْضِ وَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مَحِبًّا لِلْكَافِرِ وَلَا لِلظَّالِمِ إِذَا عَمِلَ لَهُ بِعَوْضٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَقْصُودُهُ إِلَّا الْعَوْضَ فَمَنْ كَانَ لَا يَرِيدُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا الْعَوْضَ عَلَى عَمَلِهِ فَإِنَّهُ لَا يَحِبُّهُ قَطُّ إِلَّا كَمَا يَحِبُّ الْفَاعِلَ لِمَنْ يَسْتَأْجِرُهُ وَيُعْطِيهِ الْعَوْضَ عَلَى عَمَلِهِ فَإِنْ كُلُّ مَحْبُوبٍ إِمَّا أَنْ يَحِبُّ لِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَحِبُّ لِغَيْرِهِ فَمَا أَحَبُّ لِغَيْرِهِ فَالْمَحْبُوبُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ هُوَ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَأَمَّا هَذَا فَإِنَّمَا أَحَبُّ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةٌ إِلَى الْمَحْبُوبِ وَالْوَسِيلَةُ قَدْ تَكُونُ مَكْرُوهَةً غَايَةَ الْكِرَاهَةِ لَكِنْ يَتَحَمَّلُهَا الْإِنْسَانُ لِأَجْلِ الْمَقْصُودِ كَمَا يَتَجَرَّعُ الْمَرِيضُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ لِأَجْلِ مَحَبَّتِهِ لِلْعَافِيَةِ وَلَا يَقَالُ إِنَّهُ يَحِبُّ ذَلِكَ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ فَإِنْ كَانَ الرَّبُّ سَبْحَانَهُ لَا يَحِبُّ إِلَّا لِمَا يَخْلُقُهُ مِنَ النِّعَمِ فَإِنَّهُ لَا يَحِبُّ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٤٠٤.

كَحَبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن المؤمنين أشد حبا لله من المشركين وأن المشركين يحبون الأنداد كحب الله ومن المعلوم أن المشركين يحبون آلهتهم محبة قوية كما قال تعالى ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] وهذا وإن كان يقال إنه لما يظنونه فيهم من أنها تنفعهم فلا ريب أن الشيء يجب لهذا ولهذا ولكن إذا ظن فيه أنه متصف بصفات الكمال كانت محبته أشد مع قطع النظر عن نفعه والحديث الذي يروى أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني بحب الله وأحب أهل بيتي بحبي إسناده ضعيف فإن الله يجب أن يحب لذاته وإن كانت محبته واجبة لإحسانه وقول القائل المحبة للإحسان محبة العامة وتلك محبة الخاصة ليس بشيء بل كل مؤمن فأنه يجب الله لذاته ولو أنكرك ذلك بلسانه ومن لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما لم يكن مؤمنا ومن قال إني لا أجد هذه المحبة في قلبي لله ورسوله فأحد الأمرين لازم إما أن يكون صادقا في هذا الخبر فلا يكون مؤمنا فإن أبا جهل وأبا لهب وأمثالهما إذا قالوا ذلك كانوا صادقين في هذا الخبر وهم كفار أخبروا عما في نفوسهم من الكفر مع أن هؤلاء في قلوبهم محبة الله لكن مع الشرك به فإنهم اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ولهذا أبغضوا الرسول وعادوه لأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض ما يحبونه معه فنهاهم أن يحبوا شيئا كحبه فأبغضوه على هذا فقد يكون بعض هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله يفضل ذلك الند على الله في أشياء وهؤلاء قد يعلمون أن الله أجل وأعظم لكن تهوى نفوسهم ذلك الند أكثر والرب تعالى إذا جعل من يحب الأنداد كحبه مشركين فمن أحب الند أكثر كان أعظم شركا وكفرا كما قال تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقال أبو سفيان يوم أحد أعل هبل أعل هبل فقال النبي

ﷺ ألا تجيبوه فقالوا وما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل وقال أبو سفيان إن لنا العزى
 ولا عزى لكم قال ألا تجيبوه قالوا وما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ويوجد
 كثير من الناس يحلف بند جعله الله وينذر له ويوالي في محبته ويعادي من يبغضه ويحلف
 به فلا يكذب ويوفي بما نذره له وهو يكذب إذا حلف بالله ولا يوفي بما نذره الله ولا يوالي
 في محبة الله ولا يعادي في الله كما يوالي ويعادي لذلك الند فمن قال إني لا أجد في قلبي
 أن الله أحد الي مما سواه فأحد الأمرين لازم إما أن يكون صادقا فيكون كافرا مخلدا في
 النار من الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله وإما أن يكون غالطا في قوله
 لا أجد في قلبي هذا والإنسان قد يكون في قلبه معارف وإرادات ولا يدري أنها في قلبه
 فوجود الشيء في القلب شيء والدراية به شيء آخر ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء
 يطلب تحصيل ذلك في قلبه وهو حاصل في قلبه فتراه يتعب تعباً كثيراً لجهله وهذا
 كالموسوس في الصلاة فإن كل من فعل فعلاً باختياره وهو يعلم ما يفعله فلا بد أن ينويه
 ووجود ذلك بدون النية التي هي الإرادة ممتنع فمن كان يعلم أنه يقوم إلى الصلاة فهو
 يريد الصلاة ولا يتصور أن يصلي إلا وهو يريد الصلاة فطلب مثل هذا لتحصيل النية
 من جهله بحقيقة النية ووجودها في نفسه وكذلك من كان يعلم أن غدا من رمضان وهو
 مسلم يعتقد وجوب الصوم وهو يريد للصوم فهذا نية الصوم وهو حين يتعشى يتعشى
 عشاء من يريد الصوم ولهذا يفرق بين عشاء ليلة العيد وعشاء ليالي شهر رمضان فليلة
 العيد يعلم أنه لا يصوم فلا يريد الصوم ولا ينويه ولا يتعشى عشاء من يريد الصوم
 وهذا مثل الذي يأكل ويشرب ويمشي ويركب ويلبس إذا كان يعلم أنه يفعل هذه الأفعال
 فلا بد أن يريدتها وهذه نيتها فلو قال بلسانه أريد أن أضع يدي في هذا الإناء لأخذ لقمة
 أكلها كان أحق عند الناس فهكذا من يتكلم بمثل هذه الألفاظ في نية الصلاة والطهارة
 والصيام ومع هذا فتجد خلقاً كثيراً من الموسوسين بعلم وعبادة يجتهد في تحصيل هذه
 النية أعظم مما يجتهد من يستخرج ما في قعر معدته من القيء أو من يتلصق الأدوية الكريهة
 وكذلك كثير من المعارف قد يكون في نفس الإنسان ضرورياً وفطرياً وهو يطلب الدليل
 عليه لإعراضه عما في نفسه وعدم شعوره بشعوره فهكذا كثير من المؤمنين يكون في قلبه
 محبة لله ورسوله وقد نظر في كلام الجهمية والمعتزلة نفاة المحبة واعتقد ذلك قولاً صحيحاً

لما ظنه من صحة شبهاتهم أو تقليدا لهم فصار يقول بموجب ذلك الاعتقاد وينكر ما في نفسه^(١).

من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله وحب الله أصل التوحيد العملي وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو الإسلام وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي كما في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إذا كان أخفي من دبيب النمل فكيف نصنع به أو كما قال فقال ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أصل الإشراف العملي بالله الإشراف في المحبة فمعلوم أن أصل الإشراف العملي بالله الإشراف في المحبة قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من الناس من يشرك بالله فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأناداهم والله فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله فلم يجعلوا لله عدلا في المحبة بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما ومحبة الرسول هي من محبة الله وكذلك كل حب في الله وهو الحب لله المؤمنون يحبون الله ويبغضون الله كما في الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار ولهذا في الحديث من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان وفي الأثر ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٩٥-٣٩٩.

حبا لصاحبه لأن هذه المحبة من محبة الله وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل وخير الخلق محمد رسول الله وخير البرية بعده إبراهيم كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وكل منهما خليل الله والخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلة بل قال ﷺ في الحديث الصحيح لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله وفي لفظ أنا أبرا إلي كل خليل من خلته فمحبته ما يحبه الله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله وهو الحب في الله والله وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة الله ولا تكون لله ويظن وجود المحبة لله في أمور ولا تكون المحبة لله موجودة بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله ولا يكون لله كما يعتقد وجود العلم أو العبادة أو غير ذلك من الصفات في بعض الأشخاص والأحوال ولا يكون ثابتا وقد يعتقد في كثير من الأعمال أنه معمول لله ولا يكون لله فمحبته ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة وهي الواجبات والمستحبات إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده وكما في الحديث الصحيح عن الله تعالى من عادي لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبني يبصر وبني يمشي ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته كما في الحديث الصحيح في الذي كان يصلي بأصحابه فيقرأ قل هو الله أحد إما أن يقرأها وحدها أو يقرأ بها مع سورة أخرى فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال سلوه لم يفعل ذلك فقال لأنني أحبها فقال أن حبك إياها أدخلك الجنة وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف في حجه فيقول اللهم اجعلني أحببك وأحب ملائكتك وأنبياءك وعبادك الصالحين اللهم حببني إليك وإلي ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى علي عباده وأحبه وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما الذنوب تنقص من محبة الله والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي يقيم عليه الحد فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله وفيه دلالة علي أنا منهيون عن لعنة أحد بعينه وإن كان مذنبا إذا كان يحب الله ورسوله فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات والمعاصي تنقض المحبة وهذا معني قول الشبلي لما سئل عن المحبة فقال ما غنت به جارية فلان تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس شنيع لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع وهذا كقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حيث يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وقد تكلمنا علي هذا في غير هذا الموضع والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله والله الذي هو داخل في محبة الله وهو من محبته وبين الحب لغير الله الذي فيه شرك في المحبة لله كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فإن هؤلاء يشركون بربهم في الحب عادلون به جاعلون له أندادا وأولئك أخلصوا دينهم لله فكان حبه الذي هو أصل دينهم كله لله وهذا هو الذي بعث بالله الرسل وأنزل به الكتب وأمر بالجهاد عليه كما قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وقد علم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ثم إن اتخاذ الأنداد هو من

أعظم الذنوب كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنوب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال ثم أن تزني بجليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فدعاء إله آخر مع الله هو اتخاذ ند من دون الله يحبه كحب الله إذ أصل العبادة المحبة والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع فالمحوبات المعظمة لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد كقوله في الحديث الصحيح تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القטיפه تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطي رضي وإن منع سخط فسمي هؤلاء الأربعة الذين إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرادهم عبادا لها حيث قال عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القטיפه وعبد الخميصة^(١).

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

أهل الكلام من الجهمية وغيرهم الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها دون ما دلت عليه السمعيات ثم الكتاب والسنة إما أن يحرفوه عن مواضعه وإما أن يعرضوا عنه بالكلية فلا يتدبرونه ولا يعقلونه بل يقولون نفوض معناه إلى الله مع اعتقادهم نقيض مدلوله وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقلية المخالفة للكتاب والسنة وجدت جهليات واعتقادات فاسدة وكذلك أولئك إذا حقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنة وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياؤه وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله واختيار الهوى على اتباع أمر الله فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٦٩-٧٥ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٤٩-٦٥٠.

النار وقال ﷺ في الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه قيل لسفيان بن عيينة ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال أنسيت قوله تعالى ﴿وَأَسْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعَجَلِ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] أو نحو هذا من الكلام فعباد الاصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [النقص: ٥٠] وقال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣] ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة التي لا تختص بأهل الإيمان بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصليبان ومحب الأوطان ومحب الأخوان ومحب المردان ومحب النسوان وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة فالمخالف لما بعث به رسوله من عبادته وطاعته رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعه الله كما قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية: ١٨-١٩] إلى قوله ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله قال تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [النشورى: ٢١] وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على ما شرعه الله وتارة يحتجون بالقدر الكوني على الشريعة^(١).

فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية

وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويجب ما احبه الله

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٣-٣٧٤ والفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٤٨.

ورسوله ويغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادى اعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما في الحديث من احب الله وابغض الله واعطى الله ومنع الله فقد استكمل الايمان وقال أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله وفي الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره ان يرجع في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلتقى في النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا احب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم الله لا لغيره وقد قال تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ولهذا قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله وينجز بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبر ويطيعه فيما امر ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله فجعل الله لأهل محبته علامتين اتباع الرسول والجهاد في سبيله وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحب الله من الايمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان وقد قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] فتوعد من كان اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد بل قد ثبت نه في الصحيح انه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وفي الصحيح ان عمر بن الخطاب قال له يا رسول الله والله لأنت احب الي من كل شيء الا من نفسى فقال لا يا عمر حتى اكون احب اليك من نفسك فقال فوالله لأنت احب الي من نفسى فقال الآن يا عمر فحقيقة المحبة لا تتم الا بموالاتة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض والله يحب الايمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان ومعلوم ان الحب يحرك ارادة القلب فكلما قويت

المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات فاذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة في حصول المحبوبات فاذا كان العبد قادرا عليها حصلها وان كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير ان ينقص من أوزارهم شيئا وقال ان بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال هم بالمدينة حسبهم العذر والجهاد هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق فاذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه ومعلوم ان المحبوبات لا تنال غالبا الا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة صالحة فاسدة فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم الا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة فالمحب لله ورسوله اذا لم يتحمل ما يرى ذو الرأى من المحبين لغير الله مما يحتلمون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله اذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل ومن المعلوم ان المؤمن اشد حبا لله كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصور طريقه لالا يحصل بها المطلوب فمثل هذه الطريق لا تحمد اذا كانت المحبة صالحة محمودة فكيف اذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل كما يفعل المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور في حب امور توجب لهم ضرر ولا تحصل لهم مطلوبا وانما المقصود الطرق التي يسلكها العقل حصول مطلوبه واذا تبين هذا فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين من جهة العبادة وهى العلة الغائبة ومن جهة الاستعانة والتوكل وهى العلة الفاعلية فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر لا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن الا بعبادة ربه ووجهه والانابة اليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن اذ فيه فقر ذاتى إلى ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه وبذلك

يُحَصِّلُ لَهُ الْفَرْحَ وَالسَّرُورَ وَاللَّذَّةَ وَالنَّعْمَةَ وَالسَّكُونَ وَالطَّمَأِينَةَ وَهَذَا لَا يُحَصِّلُ لَهُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللَّهِ لَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ دَائِمًا مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الافتحة: ٥] فَانْهَ لَوْ أَعِينُ عَلَى حَصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ وَيَشْتَهِيهِ وَيُرِيدُهُ وَلَمْ يُحَصِّلْ لَهُ عِبَادَتَهُ لِلَّهِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ غَايَةَ مَرَادِهِ وَنَهَايَةَ مَقْصُودِهِ وَهُوَ الْحُبُوبُ لَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ وَكُلِّ مَا سِوَا أَنْمَا يُحِبُّهُ لِأَجَلِهِ لَا يُحِبُّ شَيْئًا لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ مَتَى لَمْ يُحَصِّلْ لَهُ هَذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ حَقَّقَ حَقِيقَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالْعِبُودِيَّةَ وَالْحُبَّةَ وَكَانَ فِيهِ مِنَ النِّقْصِ وَالْعَيْبِ بَلْ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحَسْرَةِ وَالْعَذَابِ بِحَسَبِ ذَلِكَ وَلَوْ سَعَى فِي هَذَا الْمَطْلُوبِ وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ مَتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي حَصُولِهِ لَمْ يُحَصِّلْ لَهُ فَانْهَ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَحْبُوبُ الْمَرَادُ الْمَعْبُودُ وَمَنْحِيثُ هُوَ الْمَسْئُولُ الْمُسْتَعَانُ بِهِ الْمُتَوَكِّلُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَهُ لَا إِلَهَ لَهُ غَيْرُهُ وَهُوَ رَبُّهُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَا تَمَّ عِبُودِيَّتَهُ لِلَّهِ إِلَّا بِهَيْدِينَ فَمَتَى كَانَ يُحِبُّ غَيْرَ اللَّهِ لِذَاتِهِ أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ أَنَّهُ يَعِينَهُ كَانَ عَبْدًا لِمَا أَحْبَبَهُ وَعَبْدًا لِمَا رَجَاهُ بِحَسَبِ حُبِّهِ لَهُ وَرَجَائِهِ إِيَّاهُ وَإِذَا لَمْ يُحِبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ وَكَلَّمَا أَحَبَّ سِوَاهُ فَانْهَا أَحْبَبَهُ لَهُ وَلَمْ يَرْجُ قَطُّ شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ وَإِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنَ الْأَسْبَابِ أَوْ حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْهَا كَانَ مُشَاهِدًا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَقَدَّرَهَا وَإِنْ كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ رَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمَامِ عِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ بِحَسَبِ مَا قَسَمَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَا يَحْصِي طَرَفِيهَا إِلَّا اللَّهُ فَأَكْمَلَ الْخَالِقَ وَأَفْضَلَهُمْ وَأَعْلَاهُمْ وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَقْوَاهُمْ وَأَهْدَاهُمْ أَتَمَّهُمْ عِبُودِيَّةَ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رَسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ وَالْمَمْتَنِعُ عَنِ الْاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ^(١).

فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا يُحِبُّ الْخَالِقَ فَهُوَ مُشْرِكٌ وَدِينُ الْإِسْلَامِ مَبْنَى عَلَى أَصْلَيْنِ وَهُمَا تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ لَا تَجْعَلَ مَعَ اللَّهِ هَا آخَرَ فَلَا تُحِبُّ مَخْلُوقًا كَمَا تُحِبُّ اللَّهَ وَلَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٩٢ - ١٩٥.

ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله وهو من الذين بربهم يعدلون وقد جعل مع الله الها آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض فإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال تعالى ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الأنكبوت: ٦١] وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى قال تعالى ﴿أَيُّكُمْ لَشَاهِدُونَ أَنِّي مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه لا أنهم قالوا ان آلهتهم خلقوا كخلقه^(١).

فالعبادات مبناها على أصلين أحدهما أن لا يعبد إلا الله وحده لا نعبد من دونه شيئاً لا ملكاً ولا نبياً ولا صالحاً ولا شيئاً من المخلوقات والثاني أن نعبد بما أمرنا به على لسان رسوله لا نعبده ببدع لم يشرعها الله ورسوله والعبادات تتضمن كمال الحب وكمال الخضوع فمن أحب شيئاً من المخلوقات كما يجب الخالق فهو مشرك قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال ثم أن تزاني بجليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] والنبي ﷺ قد أمر بالعبادة في المساجد وذكر فضل الصلاة في الجماعة ورغب في ذلك ولم يأمر قط بقصد مكان لأجل نبي ولا صالح بل نهى عن اتخاذها مساجد فلا يجوز أن تقصد للصلاة فيها والدعاء وهذا كله لتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله فقد

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١١.

قال بعض الناس يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يستغفرني فأغفر له من يسألني فأعطيه حتى يطلع الفجر فالرسل صلوات الله عليهم وسلامه أمروا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وسؤاله ودعائه ونهوا أن يدعى أحد من دون الله تعالى وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال أحب البقاع إلى الله تعالى المساجد وأبغضها إلى الله تعالى الأسواق يعني البقاع التي كانت تكون في مدينته ونحوها ولم يكن بالمدينة لا حانة ولا كنيسة ولا موضع شرك وهذه المواضع شر من الأسواق وقد قال النبي ﷺ شرار الناس الذين تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد^(١).

فمن أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله الله نداً فمن أحب شيئاً لذاته أو عظمه لذاته غير الله فذاك شرك به وإن أحبه ليتوصل به إلي محبوب آخر وتعظيم آخر سوي الله فهو من فروع هذا والله سبحانه لم يشرع أن يعبد الإنسان شيئاً من دونه أو يتخذ لها ليتوصل بعبادته كما قال تعالى ﴿وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١] من أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك فمن أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله الله نداً وإن كان يقول إنما نعبدهم ليقربونا إلي الله زلفي وأنهم شفعاؤنا عند الله قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٤٤٩-٤٥٠ ودقائق التفسير ج: ٢ ص: ٢٠١.

[البقرة: ١٦٥] أي يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم لأنهم أخلصوا الله فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره فإن الاشتراك فيها يوجب نقصها والله لا يتقبل ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله تعالى أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك فالؤمن الذي يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما لا بد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله فلا يكون ذلك البغض أحب إليه من محبوب الله ورسوله والحب التام منا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة والبغض التام منا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة فإذا كان العبد قادرا علي محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها في قلبه أو وجود ما يعارض الحق مثل محبته لأهله وماله فإن ذلك قد يمنع عن فعل محبوب الحق كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ رَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال له عمر والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فأنت أحب إلي من نفسي قال الآن يا عمر وهذان الحديثان في الصحيح^(١).

كل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله قال تعالى ﴿ وَفَنَلُوهُمُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله فجعل المقصود عدم كون الفتنة ووجود كون الدين كله لله وناقض بينهما فكون الفتنة ينافي كون الدين لله وكون الدين لله ينافي كون الفتنة والفتنة قد فسرت بالشرك فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك وهو ينافي كون الدين كله لله الفتنة جنس

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٠٢-١٠٤.

تحت أنواع من الشبهات والشهوات والفتنة جنس تحت أنواع من الشبهات والشهوات وفتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن ومنه فتنة أصحاب العجل كما قال تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] قال موسى ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال تعالى ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] قيل لسفيان بن عيينه إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا فقال أنسيت قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أو كلاما هذا معناه وكل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله^(١).

أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحابين لأنفسهما ولغيرهما موجود في كل محبة يبغضها الله كمحبة الأنداد والشركاء من دونه قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس الفواحش ومحبة أهل الظلم والقائلين علي الله ما لا يعلمون فإن المحبة توجب تعاون المتحابين واتفاقهما فلا بد أن يبغضا وبعاديا من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله ويحب ما يحبه الله فلا بد أن يكون التحاب الذي يبغضه الله موجبا لنوع بغض المؤمنين بحسبه^(٢).

عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة

المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٨٧-٨٨.

(٢) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٢٠٩.

والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقى في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقى منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨] وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله^(١).

والشيء قد يجب من وجه دون وجه وليس شيء يجب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الإلهية إلا له ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] والإلهية المذكورة في كتاب الله هي العبادة والتأله ومن لوازم ذلك أن يكون هو الرب الخالق وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هي نفس الربوبية وأن ما ذكر في القرآن من نفي إله آخر والأمثال المضروبة البينة فالمقصود به نفي رب يشركه في خلق العالم كما هو عادتهم في كتب الكلام فهذا قصور وتقصير منهم في فهم القرآن وما فيه من الحجج والأمثال أتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية فاعتقدوا

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١١.

أن المقصودين واحد وليس كذلك بل القرآن ينفي أن يعبد غير الله أو أن يتخذه إلهاً فيحبه ويخضع له محبة الإله وخضوعه كما بينت ذلك عامة آيات القرآن مثل قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] ولهذا قال الخليل ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ومن المعلوم أن كل حي فله إرادة وعمل بحسبه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله^(١).

الحب أصل كل عمل من حق وباطل

الحب أصل كل عمل والتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما ان اصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله فالتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان وهو قول وعمل كما قد بين في غير هذا الموضع ومعلوم أن قوة المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً ويتفاوت حال الشخص الواحد في محبة الشيء الواحد بحيث يقوي الحب تارة ويضعف تارة بل قد يتبدل أقوي الحب بأقوى البغض وبالعكس قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١] إلى قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤] وإبراهيم هو إمام الخنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه وهو خليل الله وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ ءَالْقَدْمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] وقال تعالى أيضاً ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقال بعد ذلك ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] وقد قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٤.

كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾ ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات وكذلك محبة الله لهم هي محبة عظيمة جدا كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال يقول الله تعالى من عادي لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وقد تأول الجهمية ومن اتبعهم من أهل الكلام محبة الله لعبده علي أنها الإحسان إليه فتكون من الأفعال وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا هي إرادة الإحسان وربما قال كلا من القولين بعض المنتسبين إلي السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم وسلف الأمة وأئمة السنة علي إقرار المحبة علي ما هي عليه وكذلك محبة العبد لربه يفسرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له وإرادة التقرب إليه لا يثبتون أن العبد يجب الله وسلف الأمة وأئمة السنة ومشايخ المعرفة وعامة أهل الإيمان متفقون علي خلاف قول هؤلاء المعطلة لأصل الدين بل هم متفقون علي أنه لا يكون شيء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] (١).

لطائف لغوية

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] تتنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصومه بحسب الافراد والاقتران ومن هذا الباب لفظ الفقراء والمساكين اذا افرد احدهما دخل فيه الآخر واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق لكن هناك احد الاسمين اعم من الآخر وهنا بينهما عموم وخصوص فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في توحيد الله تعالى قال تعالى في المحبة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٥٠.

يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاءَ آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] وقال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨] فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده^(١).

واصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله

ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به^(٢).

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه الا الله تعالى وكل ما يجب سواه فمحبته تبع لحبه فإن الرسول عليه الصلاة والسلام انما يجب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وفي الحديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥.

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾
[التوبة: ٢٤] وقال النبي ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس
أجمعين وفي حديث الترمذي وغيره من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد
استكمل الايمان وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ^ط
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] من كل محب محبوبه والمقصود هنا أن أهل الايمان
يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الايمان ما يناسب هذه المحبة ولهذا علق النبي
ﷺ ما يجذونه بالمحبة فقال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله
أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره
أن يقذف في النار ومن ذلك ما يجذونه من ثمرة التوحيد والاخلاص والتوكل والدعاء
لله وحده فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات درجات الناس فيا يجذونه من
ثمرة التوحيد منهم من علم ذلك سماعا واستدلالا ومنهم من شاهد وعان ما يحصل
لهم ومنهم من وجد حقيقة الاخلاص والتوكل على الله والالتجاء اليه والاستعانة به
وقطع التعلق بما سواه وجرب من نفسه أنه اذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن
يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم ولا يحصل مقصوده بل قد
يبدل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته اليهم فلا
ينفعونه اما لعجزهم واما لانصارف قلوبهم عنه واذا توجه إلى الله بصدق الافتقار اليه
واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعاءه وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة فمثل هذا
قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يدق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص لله
وارادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن
كذلك بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه
للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيء الصدر ما لا يعبر
عنه وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره بل هو في خوف وحزن
دائما ان كان طالبا لما يهواه فهو قبل ادراكه حزين متألم حيث لم يحصل فإذا أدركه كان

خائفا من زواله وفراقه وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الاخلاص لله والعبادة وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحا ويكون لوجه الله خالصا فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة ولا أنفع للقلب من التوحيد واخلاص الدين لله ولا أضر عليه من الاشرار فإذا وجد حقيقة الاخلاص التي هي حقيقة اياك نعبد مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة اياك نستعين كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا والله أعلم^(١).

فإن الأمة مجمعة على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله والحب فيه والبغض فيه ويعاقب على بغضه وبغض رسوله وبغض أوليائه وعلى محبة الأنداد من دونه وما يدخل في هذه المحبة من الإرادات والعزوم فإن المحبة سواء كانت نوعا من الإرادة أو نوعا آخر مستلزما للإرادة فلا بد معها من إرادة وعزم فلا يقال هذا من حديث النفس المعفو عنه بل كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ انه قال والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفي صحيح البخارى عن عبدالله بن هشام قال كنا مع رسول الله وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال النبي لا والذي نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فإنك الآن أحب إلى من نفسى فقال النبي الآن يا عمر بل قد قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذى قد توعد الله به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٨١-٨٣.

المؤمن من الأهل والمال والمسكن والمتاجر والأصحاب والأخوان وإلا لم يكن مؤمنا حقا ومثل هذا ما في الصحيحين عن انس قال قال رسول الله لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يجب المرء لا يحبه إلا الله وحتى يقذف في النار أحب إليه من ان يرجع في الكفر وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وهذا لفظ البخارى فأخبر أنه لا يجد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث أحدها أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما وهذا من اصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمنا بدونها الثاني أن يجب العبد لا يحبه إلا الله وهذا من لوازم الأول والثالث أن يكون الفأوه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقة في التوبة هذه الخصال محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة المتعلقة بأفعالنا فهي مستلزمة لذلك فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لا بد والموادة من أعمال القلوب فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم والعقاب لأجل عدم الإيمان فإن ما ناقض الإيمان كالشك والاعراض وردة القلب وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به ورسوله فإستحق تاركة الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب فما ناقضه إستلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب بخلاف ما إستحق الذم لكونه منهيا عنه كالفواحش والظلم فإن هذا هو الذى يتكلم في الهم به وقصده إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان وإن كان يناقض كماله بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصى ونفس ترك المعاصى يتضمن فعل الطاعات ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تضمنت شيئين أحدهما نهيا عن الذنوب والثانى تضمنها ذكر الله وهو أكبر الأمرين فما فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده

لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر في بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يجب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم في كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ يُكْفَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والارادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا

لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾ وقوله ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل^(١).

الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر فاهل الشرك يتخذون اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله وأهل الايمان يحبون ذلك لأن أهل الايمان أصل حبه هو حب الله ومن احب الله احب من يحبه ومن أحبه الله فمحبوب المحبوب محبوب ومحبوب الله يحب الله فمن احب الله فيحبه من احب الله وأما أهل الشرك فيتخذون اندادا أو شفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال الله تعالى ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ ۗ أَنأخَذُ مِنْ دُونِهِ ۗ ءَالِهَةً إِن يَرِدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٤﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِنِّي ءَأَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ﴾ [يس: ٢٢-٢٥] وقال الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ وَٰلِيٌّ وَلَا سَفِيْعٌ لَّهُمْ يَنْقُوتُ﴾ [الأنعام: ٥١]^(٢).

ان المحبة والمودة التي بين المؤمنين انما تكون تابعة لحبهم الله تعالى فان أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله فالحب لله من كمال التوحيد والحب مع الله شرك

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٧٤٩-٧٥٦ والزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٢١ ومجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٥٠.

قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(١).

يجب الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه ويبغض الكفر والفسوق الذى يضره بل ويجب الله وعبادته وحده ويبغض عبادة ما دونه كما قال الخليل ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرؤا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله وقال الخليل ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] والبراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يجب إلا الله ويجب ما يحبه الله فلا يجب إلا الله ولا يبغض إلا الله قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لأهلتهم وحب النصارى للمسيح وحب أهل الأهواء رؤوسهم^(٢).

أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين إتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه

أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة والصفات السلبية إنما تكون كمالا إذا تضمنت أمورا وجودية ولهذا كان تسييح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعا فقول العبد سبحان الله يتضمن تنزيهه الله وبراءته من السوء وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣١٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٦٥.

ليس هو عدما محضا لا يتضمن وجودا فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك كقوله تعالى ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] إلى قوله ﴿إِذَا لَابِتْغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [٤٢] سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ. وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٤] وقوله تعالى ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [١٨٠] وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨١] وغير ذلك فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية وهو من تمام الكمال فإن ماله نظير قد إنقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها ولهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين يحبون غيره الذين إتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا مبسوط في غير هذا الموضع قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بجليلة جارك وأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] الآية فمن جعل لله ندا كحب الله فهو ممن دعا مع الله إله آخر وهذا من الشرك الأكبر والمقصود هنا أن الشيء إذا إنقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم وذلك من زكاهم كما أن الزرع كما نقي عنه الدغل كان أزكي له

وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه قال تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧] وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص كما فسرها أكابر السلف وقال تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وقال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع^(١).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]

فإن الفرح يتبع المحبة فمن أحب شيئاً فرح بوجوده وتألم لفقده والمحجوب قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً^(٢).

والمحبة جنس تحته أنواع كثيرة فكل عابد محب لمعبوده فالمشركون يحبون آلهتهم كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفيه قولان أحدهما يحبونهم كحب المؤمنين لله والثاني يحبونهم كما يحبون الله لأنه قد قال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فلم يمكن أن يقال إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله بل كما يحبونهم الله فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين كما قال ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقال ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني قال المفسرون قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي أشد حبا لله من المشركين لآلهتهم فيقال له ما قاله هؤلاء المفسرون مناقض لقولك فإنك تقول إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حبا لله من المشركين لأربابهم فتبين ضعف هذا القول وثبت أن

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٤٤-١٤٦.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٤١٥.

المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولاهتهم لأن أولئك أشركوا في المحبة والمؤمنون أخلصوها كلها لله وأيضا فقوله ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أضيف فيه المصدر إلى المحبوب المفعول وحذف فاعل الحب فيما أن يراد كما يجب الله من غير تعيين فاعل فيبقى عاما في حق الطائفتين وهذا يناقض قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وإما أن يراد كحبهم لله ولا يجوز أن يراد كما يجب غيرهم لله إذ ليس في الكلام ما يدل على هذا بخلاف حبهم فإنه قد دل عليه قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأضاف الحب المشبه إليهم فكذلك الحب المشبه لهم إذ كان سياق الكلام يدل عليه إذا قال يجب زيدا كحب عمرو أو يجب عليا كحب أبي بكر أو يجب الصالحين من غير أهله كحب الصالحين من أهله أو قيل يجب الباطل كحب الحق أو يجب سماع المكاء والتصدية كحب سماع القرآن وأمثال ذلك لم يكن المفهوم إلا أنه هو المحب للمشبه والمشبه به وأنه يجب هذا كما يجب هذا لا يفهم منه أنه يجب هذا كما يجب غيره هذا إذ ليس في الكلام ما يدل على محبة غيره أصلا والمقصود أن المحبة تكون لما يتخذ إلهًا من دون الله وقد قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَاوِلِهِ﴾ [الجنات: ٢٣] فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه فما هويه هوية إلهه فهو لا يتأله من يستحق التأله بل يتأله ما يهواه وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآهتهم ومحبة عباد العجل له وهذه محبة مع الله لا محبة لله وهذه محبة أهل الشرك والنفوس قد تدعي محبة الله وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله وقد يخفي الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمى ويصم وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه وهو يعملها إما لحب رياسة وإما لحب مال وإما لحب صورة ولهذا قالوا يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء فأبي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون المحبة ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك وإتباع الأهواء والله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع

رسوله فقال ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفات فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب ليست محبته لله وحده بل إن كان يحبه فهي محبة شرك فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين وهكذا أهل البدع فمن قال أنه من المريدين لله المحبين له وهو لا يقصد إتباع الرسول والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر وأيضا فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله والجهاد في سبيله لقوله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالى ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمَسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ﴿لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١] وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة وهؤلاء سلكوا طريق الإرادة والمحبة مجملا من غير إعتصام بالكتاب والسنة كما سلك أهل الكلام والرأي طريق النظر والبحث من غير إعتصام بالكتاب والسنة فوقع

هؤلاء في ضلالات وهؤلاء في ضلالات كما قال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَتَانَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿طه: ١٢٦-١٢٣﴾ وقال ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] ومثل هذا كثير في القرآن وقد بسط الكلام على هذا الأصل في غير هذا الموضوع فإن قيل صاحب الفناء في توحيد الربوبية قد شهد أن الرب خلق كل شيء وقد يكون ممن يثبت الحكمة فيقول إنما خلق المخلوقات للحكمة وهو يجب تلك الحكمة ويرضاها وإنما خلق ما يكرهه لما يحبه والذين فرقوا بين المحبة والإرادة قالوا المريض يريد الدواء ولا يحبه وإنما يجب ما يحصل به وهو العافية وزوال المرض فالرب تعالى خلق الأشياء كلها بمشيئته فهو مريد لكل ما خلق ولما أحبه من الحكمة وإن كان لا يجب بعض المخلوقات من الأعيان والأفعال لكنه يجب الحكمة التي خلق لأجلها فالعارف إذا شهد هذا أحب أيضا أن يخلق لتلك الحكمة وتكون الأشياء مرادة محبوبة له كما هي للحق فهو وإن كره الكفر والفسوق والعصيان لكن ما خلقه الله منه خلقه لحكمة وإرادة فهو مراد محبوب بإعتبار غايته لا بإعتباره في نفسه قيل من شهد هذا المشهد فهو يستحسن ما حسنه الله وأحبه ورضيه ويستقبح ما كرهه الله وسخطه ولكن إذا كان الله خلق هذا المكروه لحكمة يجبه فالعارف هو أيضا يكرهه ويبغضه كما كرهه الله ولكن يجب الحكمة التي خلق لأجلها فيكون حبه وعلمه موافقا لعلم الله وحبه لا مخالفا والله عليم حكيم فهو يعلم الأشياء على ما هي عليه وهو حكيم فيما يحبه ويريده ويتكلم به وما يأمر به ويفعله فإن كان يعلم أن الفعل الفلاني والشئ الفلاني متصف بما هو مذموم لأجله مستحق للبغض والكرهة كان من حكمته أن يبغضه ويكرهه وإذا كان يعلم أن في وجوده حصول حكمة محبوبة محمودة كان من حكمته أنه يخلق ويريده لأجل تلك

الحكمة المحبوبة التي هي وسيلة إلى حصوله وإذا قيل أن هذا الوسط يجب بإعتبار أنه وسيلة إلى محبوب لذاته ويغض بإعتبار ما إتصف به من الصفات المذمومة كان هذا حسنا كما تقول إن الإنسان قد يبغض الدواء من وجه ويحبه من وجه وكذلك أمور كثيرة تحب من وجه وتبغض من وجه وأيضا يجب الفرق بين أن يكون مضرا بالشخص مكروها له كل إعتبار وبين أن يكون الله خلقه لحكمة في ذلك وإذا كان الله خلق كل شيء لحكمة له في ذلك فإذا شهد العبد أن له حكمة ورأى هذا مع الجمع الذي يشترك فيه المخلوقات فلا يمنعه ذلك أن يشهد ما بينهما من الفرق الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار بل لا بد من شهود هذا الفرق في ذلك الجمع وهذا لشهود مطابق لعلم الله وحكمته والله أعلم وقد قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] فأخبر أن من كانت محبوباته أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله فهو من أهل الوعيد وقال في الذين يحبهم ويحبونه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا بد لمحِب الله من متابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله بل هذا لازم لكل مؤمن قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] فهذا حب المؤمن لله وأما المحبة الشركية فليس فيها متابعة للرسول ولا بغض لعدوه ومجاهدة له كما يوجد في اليهود والنصارى والمشركين يدعون محبة الله ولا يتابعون الرسول ولا يجاهدون عدوه وكذلك أهل البدع المدعون للمحبة لهم من الإعراض عن إتباع الرسول بحسب بدعتهم وهذا من حبهم لغير الله وتجدهم من أبعد الناس عن موالاته أولياء الرسول ومعاداة أعدائه والجهاد في سبيله لما فيهم من البدع التي هي شعبة من الشرك والذين إدعوا المحبة من الصوفية وكان قولهم في القدر من جنس قول الجهمية المجبرة هم في آخر الأمر لا يشهد للرب محبوا إلا ما وقع وقدر وكل ما

وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوبه عندهم فلا يبقى في هذا الشهود فرق بين موسى وفرعون ولا بين محمد وأبى جهل ولا بين أولياء الله وأعدائه ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان بل هذا كله عند الفاني في توحيد الربوبية سواء ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويجب وهذا هو الذى إتخذ إلهه هواه وإنما يأله ويجب ما يهواه وهو وإن كان عنده محبة لله فقد إتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله وهم من يهواه هذا ما دام فيه محبة لله وقد ينسلخ منها حتى يصير إلى التعطيل كفرعون وأمثاله الذى هو أسوأ حالا من مشركي العرب ونحوهم ولهذا هؤلاء يحبون بلا علم ويبغضون بلا علم والعلم ما جاء به الرسول كما قال ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١] وهو الشرع المنزل ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيرا ما يوصون المريدين بإتباع العلم والشرع كما قد ذكرنا قطعة من كلامهم في غير هذا الموضع لأن الإرادة والمحبة إذا كانت بغير علم وشرع كانت من جنس محبة الكفار وإرادتهم فهؤلاء السالكون المريدون الصوفية والفقراء الزاهدون العابدون الذين سلكوا طريق المحبة والإرادة أن لم يتبعوا الشرع المنزل والعلم الموروث عن النبي ﷺ فيحبون ما أحب الله ورسوله ويبغضون ما أبغض الله ورسوله وإلا أفضى بهم الأمر إلى شعب من شعب الكفر والنفاق ولا يتم الإيمان والمحبة لله إلا بتصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر ومن الإيمان بما أخبر الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فمن نفي الصفات فقد كذب خبره ومن الإيمان بما أمر فعل ما أمر وترك ما حظر ومحبة الحسنات وبغض السيئات ولزوم هذا الفرق إلى الممات فمن لم يستحسن الحسن المأمور به ولم يستقبح السيء المنهي عنه لم يكن معه من الإيمان شيء كما قال ﷺ في الحديث الصحيح من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وكما قال في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل وراه مسلم فأضعف الإيمان الإنكار بالقلب فمن لم يكن في

قلبه بغض المنكر الذي يبغضه الله ورسوله لم يكن معه من الإيمان شيء ولهذا يوجد المتدعون الذين يدعون المحبة المجملة المشتركة التي تضاهي محبة المشركين يكرهون من ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم ويقولون فلان ينكر وفلان ينكر وقد يتلون كثيراً بمن ينكر ما معهم من حق وباطل فيصير هذا يشبه النصراني الذي يصدق بالحق والباطل ويجب الحق والباطل كالمشرك الذي يجب الله ويجب الأنداد وهذا كاليهودي الذي يكذب بالحق والباطل ويبغض الحق والباطل فلا يجب الله ولا يجب الأنداد بل يستكبر عن عبادة الله كما إستكبر فرعون وأمثاله وهذا موجود كثيراً في أهل البدع من أهل الإرادة والبدع من أهل الكلام هؤلاء يقررون بالحق والباطل مضاهاة للنصارى وهؤلاء يكذبون بالحق والباطل مضاهاة لليهود وإنما دين الإسلام وطريق أهل القرآن والإيمان إنكار ما يبغضه الله ورسوله ومحبة ما يحبه الله ورسوله والتصديق بالحق والتكذيب بالباطل فهم في تصديقهم ومحبتهم معتدلون يصدقون بالحق ويكذبون بالباطل ويجوبون الحق ويبغضون الباطل يصدقون بالحق الموجود ويكذبون بالباطل المفقود ويجوبون الحق الذي يحبه الله ورسوله وهو المعروف الذي أمر الله ورسوله به ويبغضون المنكر الذي نهى الله ورسوله عنه وهذا هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين لا طريق المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق فلا يصدقون به ولا يحبونه ولا الضالين الذين يعتقدون ويجوبون ما لم ينزل به سلطاناً^(١).

ان محبته اصل الدين فقد بين ان كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وأمثال هذا والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٥٧ - ٣٦٨.

يكون معبودا والمعظم الذى لا يجب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فبين سبحانه ان المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله اندادا وان كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا اشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم لأن المؤمنين اعلم بالله والحب يتبع العلم ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره واشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أن ذلك اكمل قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩] واسم المحبة فيه اطلاق وعموم فان المؤمن يجب الله ويجب رسله وانبياءه وعباده المؤمنين وان كان ذلك من محبة الله وان كانت المحبة التى لله لا يستحقها غيره ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والانابة إليه والتبتل له ونحو ذلك فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى ثم انه كما بين ان محبته اصل الدين فقد بين ان كمال الدين بكما لها ونقصه بنقصها فان النبى ﷺ قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله فاخبر ان الجهاد ذروة سنام العمل وهو اعلاه واشرفه وقد قال تعالى ﴿ أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩] إلى قوله ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٢] والنصوص في فضائل الجهاد واهله كثيرة وقد ثبت انه افضل ما تطوع به العبد والجهاد دليل المحبة الكاملة^(١).

والقصد فإن العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة وقد بعث الله محمدا ﷺ بأكمل محبة في أكمل معرفة فاخرج بمحبة الله ورسوله التى هى أصل الأعمال المحبة التى فيها اشراك واجمال كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

(١) أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٣ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٦-٥٧ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٣.

اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾ وقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة: ٢٤﴾ ولهذا كانت المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني والوجد الديني كما في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان في قلبه من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار فجعل ﷺ وجود حلاوة الايمان معلقا بمحبة الله ورسوله الفاضلة وبالمحبة فيه في الله وبكراهة ضد الايمان وفي صحيح مسلم عن العباس قال قال رسول الله ﷺ ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا فجعل ذوق طعم الايمان معلقا بالرضى بهذه الاصول كما جعل الوجد معلقا بالمحبة ليفرق ﷺ بين الذوق والوجد الذى هو أصل الأعمال الظاهرة وثمره الأعمال الباطنة وبين ما امر الله به ورسوله وبين غيره كما قال سهل بن عبدالله التستري كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل اذ كان كل من أحب شيئاً فله ذوق بحسب محبته ولهذا طالب الله تعالى مدعى محبته بقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿آل عمران: ٣١﴾ قال الحسن البصرى ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ انهم يحبون الله فطالبهم بهذه الآية فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده وقد ذكر نعت المحبين في قوله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿المائدة: ٥٤﴾ فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال الذى نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال المفرق في الملتين قبلنا وهو الشدة والعزة على أعداء الله والذلة والرحمة لأولياء الله ورسوله^(١).

والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وعليه مشايخ المعرفة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٥٤.

وعموم المسلمين أن الله يجب ويجب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] بل لا شيء يستحق أن يجب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده وهذا من معنى كونه معبودا فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها أو على النبيين إلى الله والتواين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك فهذا كله يتضمن محبته وما لا يجب ممنوع كونه معبودا ومألوها ومطمأنا بذكره ومن أطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا ليس بمعبود ولا إله بل قد يكون الشخص كافرا وظالما يبغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عامل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك فلم يثبت الرب إلهها معبودا ولا ربا محمودا وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق لكنه لم يقل ان العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر بل وقد قال تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما أطلعتهم عليه اقرءوا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال يقول الله يا أهل الجنة ان لكم عندي موعدا أريد أن أنجزكموه فيقولون ما هو ألم تنضر وجوهنا وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجرتنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة وفي الحديث الذي رواه النسائي لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي ﷺ اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إنني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك

من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وروى نحو هذا من وجه آخر فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر اليه وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بال مخلوقات بما هو غاية النعيم فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر اليه واللذة تحصل بأدراك المحبوب فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء ما كان النظر اليه أحب إليهم من كل شيء وكانت لذته أعظم من كل لذة والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي اسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالخالق كما أن النار اسم لدار فيها أنواع الآلام لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر اليه ليس من نعيم أهل الجنة^(١).

﴿مُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى قوله ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يجب كل محب محبوبه كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وكل ما يحبونه سواء فإنما يحبونه لأجله كما في الصحيحين عن النبي أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وفي الترمذي وغيره أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ومن أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين كمال الحب هو الخلة التي جعلها الله لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم فإن الله إتخذ إبراهيم خليلا وإستفاض عن النبي في الصحيح من غير وجه أنه قال إن الله أتخذني خليلا كما

(١) النبوات ج: ١ ص: ٧٠-٧٥ .

يتخذ إبراهيم خليلاً وقال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً
 ولكن صاحبكم خليل الله يعني نفسه ولهذا إتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة
 وأهل المعرفة أن الله نفسه يحب ويجب وأنكرت الجهمية ومن إتبعهم محبته وأول من أنكر
 ذلك الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط
 وقال أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله
 لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم
 نزل فذبحه وهذا أصل ملة إبراهيم الذي جعله الله إماماً للناس قال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
 وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ومن
 قال إن المراد بمحبه الله محبة التقرب إليه فقوله متناقض فإن محبة التقرب إليه تبع لمحبه
 فمن أحب الله نفسه أحب التقرب إليه ومن كان لا يحبه نفسه إمتنع أن يحب التقرب إليه
 وأما من كان لا يطيعه ولا يمثل أمره إلا لأجل غرض آخر فهو في الحقيقة إنما يحب ذلك
 الغرض الذي عمل لأجله وقد جعل طاعة الله وسيلة إليه وقد ثبت في الصحيح عن النبي
 أنه قال إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن
 ينجزكموه فيقولون ما هو ألم بيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويخرنا من النار
 فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهو الزيادة
 فأخبر أن النظر إليه أحب إليهم من كل ما يتنعمون به ومحبة النظر إليه تبع لمحبهه وإنما
 أحبوا النظر إليه لمحبتهم إياه وما من مؤمن إلا ويجد في قلبه محبة الله وطمأنينة بذكره
 وتنعم بمعرفته ولذة وسرورا بذكره ومناجاته وذلك يقوى ويضعف ويزيد وينقص
 بحسب إيمان الخلق فكل من كان إيمانه أكمل كان تنعمه بهذا أكمل ولهذا قال في الحديث
 الذي رواه أحمد وغيره حبيب إلي من ديناكم النساء والطيب ثم قال وجعلت قرّة عيني في
 الصلاة وكان يقول أرحنا بالصلاة يا بلال وهذا مبسوط في غير هذا الموضع والمقصود
 هنا أن عباده المؤمنين يحبونه وهو يحبهم سبحانه وتعالى وحبه لهم له بحسب فعلهم لما يحبه
 كما في صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي ولياً

فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلي عبدى بمثل أداء ما إفترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن إستعذنى لا عيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فقد بين أن العبد إذا تقرب إلى الله بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الله فحب الله لعبده بحسب فعل العبد لما يحبه الله وما يحبه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحب نفسه وحب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين فكان حبه للمؤمنين تبعاً لحب نفسه فالمؤمنون وإن كانوا يحمدون ربهم ويشنون عليه فهم لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه كما في الحديث الصحيح عنه أنه كان يقول اللهم أنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال لا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وقال له الأسود بن سريع أنى حمدت ربى بمحامد فقال إن ربك يحب الحمد فهو يحب حمد العباد له ومدحه لنفسه أعظم من حمد العباد له ويجب ثناءهم عليه وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه وكذلك حبه لنفسه وتعظيمه لنفسه فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد وهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قرأ على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] قال يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك أنا القدوس أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذي اعيدها وفي رواية يجد الرب نفسه سبحانه فهو يحمد نفسه ويشنى عليها ويجد نفسه سبحانه وتعالى وهو الغنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد غيره بل كل ما سواه فقير إليه ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فإذا فرح بتوبة التائب واحب من تقرب إليه بالنوافل ورضي عن

السابقين الأولين ونحو ذلك لم يجوز أن يقال هو مفتقر في ذلك إلى غيره ولا مستكمل بسواه فإنه هو الذي خلق هؤلاء وهو الذي هداهم وأعانهم حتى فعلوا ما يحبه ويرضاه ويفرح به فهذه المحبوبات لم تحصل إلا بقدرته ومشيتته وخلقته فله الملك لا شريك له وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون فهذا ونحوه يحتج به الجمهور الذين يثبتون لأفعاله حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها^(١).

قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين كما في قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله تعالى ﴿مُحِبُّهُمْ وَمُحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وفي الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا الله وان يكره أن يرجع في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار واما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى ﴿مُحِبُّهُمْ وَمُحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى ﴿وَإِحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا إِنْ لَمْ تُجِئكَ بِالشَّرِيعَةِ مِنْ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿فَاتَّبَعُوا لِيهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانْتَهُم بِئِنَّ مَرِضُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] اما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة وكذلك حبه لأهله أوهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها واهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون وائمة التصوف ان الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي اكمل محبة فانها كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وكذلك هو سبحانه يحب عباده

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٤١-١٤٤ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٧ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٧.

المؤمنين محبة حقيقية وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحجوب وانه لامناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة وكان أول من ابتدع هذا في الاسم هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري امير العراق والمشرق بواسطة خطب الناس يوم الأضحى فقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد اخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله سلم بن احوز امير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم اثناء خلافة المأمون حتى امتحن ائمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك واصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة اهل الكتاب الذين يزعمون ان الرب ليس له صفة ثبوتية اصلا وهؤلاء هم اعداء ابراهيم الخليل عليه السلام وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها وهم ينكرون في الحقيقة ان يكون ابراهيم خليلا وموسى كليما لأن الخلة هي المحبة المستغرقة للمحب كما قيل قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمي الخليل خليلا ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد عن النبي انه قال لو كنت متخذنا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعنى نفسه وفي رواية انى أبرأ إلى كل خليل من خلته ولو كنت متخذنا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا وفي رواية ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا فبين انه لا يصلح له ان يتخذ من المخلوقين خليلا وانه لو امكن ذلك لكان احق الناس بها ابو بكر الصديق رضى الله عنه مع انه ﷺ قد وصف نفسه بانه يجب اشخاصا كما قال لمعاذ والله انى لأحبك وكذلك قوله للانصار وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وكذلك ابنة اسامة حبه وامثال ذلك وقال له عمرو بن العاص أى الناس احب اليك قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها وقال لفاطمة ابنته رضى الله عنها ألا تحبين ما احب قالت بلى قال فأحبي عائشة^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥-٦٨ ومجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٥٤ ومجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٧٦ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٨.

أن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه محبته وذكر موجباتهما وعلاماتها
أن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه محبته وذكر موجباتهما وعلاماتها وذلك أن الله
يقول في كتابه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ
حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ
[البقرة: ١٦٥] وقال ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
[آل عمران: ٣١] ويقول ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَرَدٍ مِّنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ
أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿ [المائدة: ٥٤] فهذه ثلاثة أصول لاهل محبة الله إخلاص دينهم ومتابعة
رسوله والجهاد في سبيله فإنه اخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما
يحبون الله ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالمؤمنون أشد حبا لله من
المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله فمن أحب شيئا غير الله كما يحب الله فهو
من المشركين لا من المؤمنين ومحبة رسوله من محبته ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث
المتفق عليه في الصحيحين والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من
ولده ووالده والناس أجمعين وفي صحيح البخاري أن عمر قال له يا رسول الله والله
لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من
نفسك قال فأنت أحب إلى من نفسي قال فأنت الآن يا عمر وفي الصحيحين أنه قال
ثلاث من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان وفي لفظ لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه
ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله
وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وقد قال الله
تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ [التوبة: ٢٤] فلم يرض منهم أن يكون حبه لله
ورسوله كحب الأهل والمال وأن يكون حب الجهاد في سبيله كحب الأهل والمال بل

حتى يكون الجهاد في سبيله الذي هو تمام حبه وحب رسوله أحب إليهم من الأهل والمال فهذا يقتضي أن يكون حبهم لله ورسوله مقدما على كل محبة ليس عندهم شيء يحبونه كحب الله بخلاف المشركين ويقتضي الأصل الثاني وهو ان يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] إيمانا لا يكون بعده ريب ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وبذلك وصف أهل المحبة في قوله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] فأخبر سبحانه بذلمهم للمؤمنين وعزهم على الكافرين وجهادهم في سبيله وأنهم لا يخافون لومة لائم فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك وأما الأصل الثالث وهو متابعة السنة والشريعة النبوية قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية فجعل حب العبد لربه موجبا ومقتضيا لاتباع رسوله وجعل اتباع رسوله موجبا ومقتضيا لمحبة الرب عبده فأهل اتباع الرسول يحبهم الله ولا يكون حبا لله إلا من يكون منهم^(١).

فإن داعي الخير أقوى

ان هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه متى شاركهم وعاونهم واطاعهم انتقصوه واستخفوا به وجعلوا ذلك حجة عليه في امور اخرى وان لم يشاركهم عادوه وآذوه وهذه حال غالب الظالمين القادرين وهذا الموجود في المنكر موجود نظيره في المعروف وابلغ منه كما قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَنْجُذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فإن

(١) الاستقامة ج: ١ ص: ٢٦٢-٢٦٦.

داعي الخير اقوى فإن الإنسان فيه داع يدعو إلى الإيمان والعلم الصدق والعدل واداء الامانة فاذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داع اخر لا سيما اذا كان نظيره لا سيما مع المنافسة وهذا محمود حسن فإن وجد من يجب موافقته على ذلك مشاركته له من المؤمنين والصالحين ومن يبغضه اذا لم يفعل^(١).

فطريقة سلف الأمة تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون ومصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [١٨٠] ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٨١] ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانصاف: ١٨٠-١٨٢] فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعد ثلث القرآن وقوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٥٨ ومجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥٢.

أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾^(١).

فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب اثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ولا بد له في أحكامه من ان يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت امره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول كما دل على ذلك سورة قل هو الله احد ودل على الآخر سورة قل يا أيها الكافرون وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبي يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك فأما الأول وهو التوحيد في الصفات فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا فيثبت لله ما اثبتته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم ان طريقة سلف الامة وأئمتها إثبات ما اثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع اثبات ما اثبتته من الصفات من غير الحاد لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو السميع البصير ﴿[الشورى: ١١] ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد للتشبيه والتمثيل وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد للإلحاد والتعطيل والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٠-١٣١ والصفدية ج: ٢ ص: ٣١٤ والعقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٣.

ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] قال اهل اللغة هل تعلم له سميا أى نظيرا يستحق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] مثيلا أو شبيها وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وقال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني بجليلة جارك فأنزل الله تصديق رسوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك والنبي نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة حتى قال من حلف بغير الله فقد أشرك رواه أبو داود وغيره وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤.

محمد وجاء معاذ بن جبل مرة فسجد له فقال ما هذا يا معاذ فقال يا رسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لأسافقتهم يا معاذ إنه لا يصلح السجود إلا لله ولو كنت أمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها^(١).

فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهمية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة

اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وفي الصحيحين أنه سئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال تعالى ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [النزمر: ٨] فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهمية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب وترغب إليه وتفرع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون لها قال الله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وقال تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وقال الله تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] وقال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [النزمر: ١١]^(٢).

فالشرك أن كان شركا يكفر به صاحبه وهو نوعان شرك في الإلهية وشرك في الربوبية فأما الشرك في الألهمية فهو أن يجعل لله ندا أى مثلا في عبادته أو محبته أو خوفه

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٨٨.

أو رجائه أو إنابته فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله الا بالتوبة منه قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله مشركى العرب لأنهم أشركوا في الألوية قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] الآية وقالوا ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَّاهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَقَمَارٍ عَيْنِدٍ﴾ [ق: ٢٤] إلى قوله ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيْاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦] وقال النبي لحصين كم تعبد قال ستة في الأرض وواحد في السماء قال فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك قال الذي في السماء قال ألا تسلم فأعلمك كلمات فأسلم فقال النبي قل اللهم أهمنى رشدى وقنى شر نفسى وأما الربوبية فكانوا مقرين بها قال الله تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هى التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره وإنما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئا من دون الله كما يجب الله تعالى فقد أشرك وهذا كقوله ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ [١٦] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ دُسَّوْا بِكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨] وكذا من خاف أحدا كما يخاف الله أو رجاءه كما يرجو الله وما أشبه ذلك وأما النوع الثانى فالشرك فى الربوبية فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطى المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمن شهد أن المعطى أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطى الأول مثلا فيشكره على ما أولاه من النعم وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافيه عليه لقوله عليه السلام من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه لأن النعم كلها لله تعالى كما قال تعالى ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعَمُّرٍ

فَمِنَ اللَّهِ ﴿[النحل: ٥٣] وقال تعالى ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] فالله سبحانه هو المعطى على الحقيقة فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها وساقها إلى من يشاء من عباده فالمعطى هو الذي أعطاه وحرك قلبه لعطاء غيره فهو الأول والآخر ومما يقوى هذا المعنى قوله لابن عباس رضى الله عنهما واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف قال الترمذى هذا حديث صحيح فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ولا يضره غيره وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية فمن سلك هذا المسلك العظيم إستراح من عبودية الخلق ونظره اليهم وأراح الناس من لومه وذمه اياهم وتجرد التوحيد في قلبه فقوى إيمانه وإنشرح صدره وتنور قلبه ومن توكل على الله فهو حسبه ولهذا قال الفضيل ابن عياض رحمه الله من عرف الناس استراح يريد والله أعلم أنهم لا ينفعون ولا يضررون وأما الشرك الخفي فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه مثل أن يحب مع الله غيره فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب لأن هذه تدل على حقيقة المحبة لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ويكره ما يكرهه ومن صحت محبته إمتنعت مخالفته لأن المخالفة انما تقع لنقص المتابعة ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية فليس الكلام في هذا إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله وهو دليل على نقص محبة الله تعالى إذ لو كملت محبته لم يجب سواه ولا يرد علينا الباب الأول لأن ذلك داخل في محبته وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلت وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة وكذا الرجاء وغيره فهذا هو الشرك الخفي الذي

لا يكاد أحد أن يسلم منه إلا من عصمة الله تعالى وقد روى أن الشرك في هذه الأمة أخفي من ديبب النمل وطريق التخلص من هذه الآفات كلها الإخلاص لله عز وجل قال الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ولا يحصل الإخلاص الا بعد الزهد ولا زهد الا بتقوى والتقوى متابعة الأمر والنهي^(١).

ان يسير الرياء شرك

وقد قال الله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحْبَابَهُمْ أَزْكَبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وفي حديث عدى بن حاتم وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية قال فقلت له أنا لسنا نعبدهم قال أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه ويجلون ما حرم الله فتحلونهم قال فقلت بلى قال فقلت عبادتهم وكذلك قال أبو البخترى اما أنهم لم يصلوا لهم ولو أمرهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكن أمرهم فجعلا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية وقال الربيع بن أنس قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل قال كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا لن نسبق احبارنا بشيء فما أمرنا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم فاستنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد بين النبي أن عبادتهم اياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال لا أنهم صلوا لهم وصاموا لهم ودعوهم من دون الله فهذه عبادة للرجال وتلك عبادة للأموال وقد بينها النبي وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] فان هؤلاء والذين أمرهم بهذا هم جميعا معذبون

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩١ - ٩٣ ومجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١١.

وقال ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله فهم الذين سبقت لهم الحسنى كالمسيح والعزير وغيرهما فأولئك مبعدون وأما من رضى بأن يعبد ويطاع في معصية الله فهو مستحق للوعيد ولو لم يأمر بذلك فكيف إذا أمر وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله وهذا من أزواجهم فان أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم وقد يكونون اتباعا وهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين وسياق الآية يدل على ذلك فانه سبحانه قال ﴿أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) من دون الله فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصافات: ٢٢-٢٣] قال ابن عباس دلوهم وقال الضحاك مثله وقال ابن كيسان قدموهم والمعنى قودوهم كما يقود الهادى لمن يهديه ولهذا تسمى الأعناق الهوادى لأنها تقود سائر البدن وتسمى أوائل الوحش الهوادى ﴿وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿[الصافات: ٢٤-٢٥] أى كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٦) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِيينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِذَا كُنَّا غَويينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[الصافات: ٢٦-٣٩] وقال تعالى ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿[الأعراف: ٣٨-٣٩] وقال تعالى ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَتُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَتَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبِرُونَ عَنَا نَصِيحًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ
قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿[غافر: ٤٧-٤٨]﴾ وقال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ
كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ
نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ: أُندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِيهِ: أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[سبأ: ٣١-٣٣]﴾ وقوله في سياق الآية ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥] ولا ريب أنها تتناول الشركين الأصغر والأكبر
وتتناول أيضا من استكبر عما أمره الله به من طاعته فان ذلك من تحقيق قول لا اله الا
الله فان الاله هو المستحق للعبادة فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له فمن
استكبر عن بعض عبادته سامعا مطيعا في ذلك لغيره لم يحقق قول لا اله الا الله في هذا
المقام وهؤلاء الذين اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله
وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين أحدهما أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله
فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعا لرؤسائهم
مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركا وان لم يكونوا
يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف
الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء والثاني أن يكون
اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما
يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي فهو لاهم حكم أمثالهم من
أهل الذنوب كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال انما الطاعة في المعروف وقال على
المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية وقال لا طاعة لمخلوق في
معصية الخالق وقال من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل
للحرام ان كان مجتهدا قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى

الله ما استطاع فهذا لا يؤاخذة الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله لا سيما ان اتبع في ذلك هواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ولهذا اتفق العلماء على أنه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وان كان عاجزا عن اظهار الحق الذي يعلمه فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه وهؤلاء كالنجاشى وغيره وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقوله ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقوله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣] وأما ان كان المتبع للمجتهد عاجزا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعلا يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ ان أخطأ كما في القبلة وأما ان قلد شخصا دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية وان كان متبوعه مصيبا لم يكن عمله صالحا وان كان متبوعه مخطئا كان آثما كمن قال في القرآن برأيه فان أصاب فقد أخطأ وان أخطأ فليتبوا مقعده من النار وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة فان ذلك لما أحب المال حبا منعه عن عبادة الله وطاعته صار عبدا له وكذلك هؤلاء فيكون فيه شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك وفي الحديث ان يسير الرياء شرك وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها اطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب والمقصود هنا أن الظلم المطلق يتناول الكفر ولا يختص بالكفر بل يتناول ما دونه أيضا وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية فان هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان كما في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال ن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت

ثم أى قال ثم ان تزانى بجليلة جارك فأنزل الله تعالى فأنزل الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الزمر: ٦٨-٧١] فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ولكل عمل قسط منه فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن كان عذابه دون ذلك ولو زنى وقتل ولم يشرك كان له من هذا العذاب نصيب كما في قوله ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ولم يذكر أبدا وقد قيل ان لفظ التأييد لم يجرى الا مع الكفر وقال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَالَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الزمر: ٢٧-٢٩] فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول وسبب نزول الآية كان في ذلك فان الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه فمن خال مخلوقا في خلاف أمر الله ورسوله كان له من هذا الوعيد نصيب كما قال تعالى ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال الفضيل بن عياض حدثنا الليث عن مجاهد هي المودات التي كانت بينهم لغير الله فان المخالفة تحاب وتواد ولهذا قال المرء على دين خليله فان المتحابين يجب أحدهما ما يجب الآخر بحسب الحب فاذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله نقص من دينهما بحسب ذلك إلى أن ينتهى إلى الشرك الأكبر قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] والذين قدموا محبة المال الذي كنزوه والمخلوق الذي اتبعوه على محبة الله ورسوله كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك فهذا ألزمهم محبوبهم كما في الحديث يقول الله

تعالى أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا وقد ثبت في الصحيح يقول ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فمن كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ويمثل للنصارى المسيح ولليهود عزير فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها كما سيأتى هذا الحديث ان شاء الله فهؤلاء أهل الشرك الأكبر وأما عبيد المال الذين كنزوه وعبيد الرجال الذين أطاعوهم في معاصى الله فأولئك يعذبون عذابا دون عذاب أولئك المشركين أما في عرصات القيامة واما في جهنم ومن أحب شيئا دون الله عذب به وقال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فالكفر المطلق هو الظلم المطلق ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفي الشفاعة في هذه الآية وفي قوله ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الَّازِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ^٤ مَا لِلظَّالِمِينَ مِّن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الَّاعِينِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨-١٩]^(١).

فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو مستكبر والعدوان في الإرادة والعبادة والعمل حصل من إعراضهم عن العلم الشرعي واتباع الرسول وقد قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] قال بعضهم ليس الشأن في أن تحبه الشأن في أن يكون هو يحبك وهو إنما يجب من اتباع الرسول وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه وأولئك غلطوا بنفي محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة وقد قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالأقسام ثلاثة أولئك معطلة للمحبة وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقا وهؤلاء

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٨ - ٧٤.

مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة أولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى وكل واحد من المستكبرين والمشركون ليسوا مسلمين بل الإسلام هو الاستسلام لله وحده^(١).

قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] الآية فالدعوة والعبادة اسم جامع لغاية الحب لله وغاية الذل له فمن ذل له من غير حب لم يكن عبدا بل يكون هو المحبوب المطلق فلا يجب شيئا إلا له ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يجعل له حقيقة الحب فهو مشرك وإشراكه يوجب نقص الحقيقة كقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية والحب يوجب الذل والطاعة والإسلام أن يستسلم لله لا لغيره فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو متكبر وكلاهما ضد الإسلام والقلب لا يصلح إلا بعبادة الله وحده وتحقيق هذا تحقيق الدعوة النبوية ومن المحبة الدعوة إلى الله وهي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم بما أمروا به فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى وما أبغضه الله ورسوله فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته ومن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول وهم أمته وقد وصفهم الله بذلك كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهذه في حقه وفي حقهم قوله

(١) النبوات ج: ١ ص: ٧٣.

﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية وقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض كقوله ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] الآية فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة فهذا إجماعهم حجة وإذا تنازعوا في شيء رده إلى الله ورسوله فإذا تقرر هذا الواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل ومن نصب شخصا كائنا من كان فوإلى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ [الروم: ٣٢] الآية وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل إتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم فينبغي للانسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به فهذا زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقد لها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله^(١).

أهل البدع والضلال من المسلمين كالرافضة وغيرهم يحجون إلى المشاهد وهذا الذي الذي ذكرنا من أن السفر إلى الأماكن المعظمة القبور وغيرها عند أصحابه كالحج عند المسلمين هو أمر معروف عند المتقدمين والمتأخرين لفظا ومعنى فإنهم يقصدون من دعاء المخلوق والخضوع له والتضرع إليه نظير ما يقصده المسلمون من دعاء الله تعالى والخضوع له والتضرع إليه نظير ما يقصده المسلمون من دعاء الله تعالى وإحسانهم كحبيب الله ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهم يسمون ذلك حجا إليها

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٧-٩ ومجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٦٢-١٦٣.

وهذا معروف عند متقدميهم ومتأخريهم وكذلك أهل البدع والضلال من المسلمين كالرافضة وغيرهم يحجون إلى المشاهد وقبور شيوخهم وأئمتهم ويسمون ذلك حجا ويقول داعيتهم السفر إلى الحج الأكبر ويظهرون علما للحج إليه ومعه مناد ينادى إليه كما يرفع المسلمون علما للحج لكن داعى أهل البدع ينادى السفر إلى الحج الأكبر علانية في مثل بغداد يعنى السفر إلى مشهد من المشاهد فيجعلون السفر إلى قبر بعض المخلوقين هو الحج الأكبر والحج إلى بيت الله عندهم الأصغر وقد ذكر ذلك أئمتهم في مصنفاتهم ومن جهال الناس من يقول وحق النبي الذي تحج المطايا إليه فلما كان المشركون يصلون ويدعون المخلوق ويحجون إلى قبره قال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣] (١).

زيادة الإيمان ونقصه وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها

والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة أحدها الأعمال الظاهرة فإن الناس يتفاضلون فيها وتزيد وتنقص وهذا مما إتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان ومقتضاه فأدخل فيه مجازا بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه أى زيادة ثمراته ونقصانها فيقال قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر وأما كونه لازما أو جزءا منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفردا أو مقرونا بلفظ الإسلام والعمل كما تقدم وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجهه ومقتضيه فهذا غلط فإن التفاضل معلول الأشياء ومقتضاها يقتضى تفاضلا في أنفسها وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجباتها ومقتضاها فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضى تفاضلا في موجب ذلك ومقتضيه ومن هذا يتبين الوجه الثاني في زيادة الإيمان ونقصه وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٦٧.

أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشيته الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٤] إلى قوله ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال رسول الله والله إنى لأخشاكم لله وأعلمكم بمجوده وقال لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فلأنت أحب إلي من نفسي قال الآن يا عمر وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولاً بدخول الزيادة والنقصان فيه لما يجدون من ذلك في أنفسهم ومن هذا قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَّ جَبَعُوا لَكُمْ فَأَخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ [ال عمران: ١٧٣] وإنما زادهم طمأنينة وسكوناً وقال أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً أن يقال ليس فيما يقوم بالإنسان من جميع الأمور أعظم تفاضلاً وتفاوتاً من الإيمان فكلما تقرر إثباته من الصفات والأفعال مع تفاضله فالإيمان أعظم تفاضلاً من ذلك مثال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه سواء كان حبا لولده أو لإمراته أو لرياسته أو وطنه أو صديقه أو صورة من الصور أو خيله أو بستانه أو ذهبه أو فضته وغير ذلك من أمواله فكما أن الحب أوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم صباغة لأنصاب القلب نحوه ثم غرام للزومه القلب كما يلزم الغريم غريمه ثم يصير عشقا إلى أن يصير تيمنا

والتييم التعبد وتيم الله عبد الله فيصير القلب عبدا للمحبوب مطيعا له لا يستطيع الخروج عن أمره وقد آل الأمر بكثير من عشاق الصور إلى ما هو معروف عند الناس مثل من حمله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه أو الكفر والردة عن الإسلام أو أفضى به إلى الجنون وزوال العقل أو أوجب خروجه عن المحبوبات العظيمة من الأهل والمال والرياسة أو أمراض جسمه وأسنانه فمن قال الحب لا يزيد ولا ينقص كان قوله من أظهر الأقوال فسادا ومعلوم أن الناس يتفاضلون في حب الله أعظم من تفاضلهم في حب كل محبوب فهو سبحانه إتخذ إبراهيم خليلا وإتخذ محمدا أيضا خليلا كما إستفاض عنه أنه قال لو كنت متخذًا خليلا من أهل الأرض لإتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعنى نفسه وقال إن الله إتخذني خليلا كما إتخذ إبراهيم خليلا والخلة أخص من مطلق المحبة فإن الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين يحبون الله ويحبهم الله كما قال ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقد أخبر الله أنه يحب المتقين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وكان النبي يخبر بحبه لغير واحد كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال للحسن وأسامة اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما وقال له عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك قال عائشة قال فمن الرجال قال أبوها وقال والله إنى لأحبكم والناس في حب الله يتفاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبراهيم إلى أدنى الناس درجة مثل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين هذين الحدين من الدرجات لا يحصيه إلا رب الأرض والسماوات فإنه ليس في أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه على بعض كبنى آدم فإن الفرس الواحدة ما تبلغ أن تساوي ألف^(١).

وأسماء دينه الذي أمر الله به ورسوله يسمى إيمانا وبرًا وتقوى وخيرا ودينا وعملا صالحا وصراطا مستقيما ونحو ذلك وهو في نفسه واحد لكن كل إسم يدل على صفة ليست هى الصفة التي يدل عليها الآخر وتكون تلك الصفة هى الأصل في اللفظ والباقي

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٦٢ والاستقامة ج: ٢ ص: ١٠٣.

كان تابعا لها لازما لها ثم صارت دالة عليه بالتضمن فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ولا بد فيه من شيئين تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهى القلب وقال أبو هريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقول أبي هريرة تقرب وقول النبي أحسن بيانا فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم إختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلى العابد لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ

أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين لأننادهم وفي الآية قولان قيل يحبونهم كحب المؤمنين الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم لأوثانهم وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم وهذا هو الصواب والأول قول متناقض وهو باطل فإن المشركين لا يحبون

الأنداد مثل محبة المؤمنين لله وتستلزم الإرادة والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الإنسان محبا لله ورسوله مريدا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه ومن هنا يظهر خطأ قول جهنم بن صفوان ومن إتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى الله ورسوله ويعادى أولياء الله ويؤلى أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف ويكرم الكفار غاية الكرامة ويهين المؤمنين غاية الإهانة قالوا وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما اقر به وبخلاف ما شهد به الشهود فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة قالوا فهذا دليل على إئتفاء التصديق والعلم من قلبه فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره بإستكباره وإمتناعه عن السجود لأدم لا لكونه كذب خبرا وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله فيهم ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأْتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فهؤلاء غلطوا في أصلين أحدهما ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية في القلب وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا فإن أعمال القلوب

التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب فالأول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار اصحاب اليمين ومن فعله وفعل الثانی كان من المقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ يَأْتِئِبِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ [ق: ٣٢-٣٣] ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله والثاني ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمة الفطرة وجماهير النظار فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصدقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ومعلوم أن إتباع الأذلين له لا يقدر في صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٨٧ - ١٩١.

وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم

فاتباع فرعون أحد رجلين اما جاهل بمحقيقة أمرهم واما ظالم يريد علوا في الارض وفسادا أو جامع بين الوصفين وهذه حال اتباع فرعون الذين قال الله فيهم ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [النزخرف: ٥٤] وحال القرامطة مع رؤسائهم وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] إلى قوله ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]^(١).

فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون عبدا لما سواه

روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القטיפفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ان أعطي رضي وإن منع سخط جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقدته حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث والقטיפفة هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه وهي كالبساط الذي تجلس عليه والخميصة هي التي يرتدي بها وهذا من أقل المال وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه فهو عبد لذلك فيه أبواب متفرقون وشركاء متشاكسون ولهذا قال ان أعطي رضي وإن منع سخط فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقدته فهو عبده اذ العبد يرضى باتصاله بهما ويسخط لفقدتهما والمعبود الحق الذي لا اله الا هو اذا عبده المؤمن وأخيه حصل للمؤمن بذلك في قلبه ايمان وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك واذا منع من ذلك غضب وكذلك من أحب شيئا فلا بد من أن يتصوره في قلبه ويريد اتصاله به بحسب الامكان قال الجنيد لا يكون العبد عبدا حتى يكون مما سوى الله تعالى حرا وهذا مطابق لهذا الحديث فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون عبدا لما سواه ولا فيه شعبة ولا أدنى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٣٩.

جزء من عبودية ما سوى الله فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير ففيه من الشرك بقدر محبته وعبادته لذلك الغير زيادة قال الفضيل بن عياض والله ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وطالب الرئاسة ولو بالباطل ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا وتغضبه الكلمة التي فيها ذمة وإن كانت حقا والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه وتغضبه كلمة الباطل له وعليه لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويبغض الكذب والظلم فإذا قيل الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه وإن كان فيه مخالفة هوامه لأن هوامه قد صار تبعا لما جاء به الرسول وإذا قيل الظلم والكذب فالله يبغضه والمؤمن يبغضه ولو وافق هوامه وكذلك طالب المال ولو بالباطل^(١).

لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة

المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به فيعبر عنها بلفظ الإنابة والعبادة ونحو ذلك إذ أن لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة فلا يرضى الله بالقدر المشترك بل إذا ذكر من يجب غير الله ذكر الله قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(٢).

من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة

إن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وإنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل أما إن يكون كافراً وأما إن يكون مفرطاً في الجهل وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني أنه ليقع في قلبى النكتة من نكت القوم فلا اقبلها إلا

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٣٨.

(٢) النبوات ج: ١ ص: ٨٢.

بشاهدين الكتاب والسنة وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له ان يتكلم في علمنا أو قال لا يقتدى به وقال أبو عثمان النيسابورى من امر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن امر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَأَنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] وقال أبو عمرو بن نجييد كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وكثير من الناس يغلط في هذا الموضوع فيظن في شخص انه ولى الله ويظن ان ولى الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وان خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما اخبر وطاعته فيما امر وجعله الفارق بين أوليائه واعدائه وبين أهل الجنة وأهل النار وبين السعداء والأشقياء فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين ومن لم يتبعه كان من اعداء الله الخاسرين المجرمين فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال وآخر إلى الكفر والنفاق ويكون له نصيب من قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [٢٧] يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] وقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [١٦٥] إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۗ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧] وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا

أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿﴾
 [التوبة: ٣١] وفي المسند وصححه الترمذى عن عدى بن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل
 النبي ﷺ عنها فقال ما عبدوهم فقال النبي احلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال
 فطاعوهم وكانت هذه عبادتهم اياهم ولهذا قيل في مثل هؤلاء انما حرّموا الوصول
 بتضييع الأصول فان أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ فلا بد من الإيمان
 بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ فلا بد من الإيمان بأن محمدا رسول الله ﷺ إلى جميع
 الخلق انسهم وجنهم وعربهم وعجمهم علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم وانه لا
 طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق الا بمتابعته باطنا وظاهرا حتى لو ادركه موسى
 وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه^(١).

ومن جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوبا لله فقد شرع ديننا لم يأذن الله به
 وهو مبدأ الشرك

وقد زين الشيطان لكثير من المتنسكة والعباد أن محبة الصور الجميلة إذا لم يكن
 بفاحشة فإنها محبة لله كما زين لهؤلاء أن استماع هذا الغناء لله ففيهم من يقول هذا اتفاقا
 وفيهم من يظهر أنه يحبه لغير فاحشة ويبطن محبة الفاحشة وهو الغالب لكن ما أظهره
 من الرأي الفاسد وهو أن يجب لله ما لم يأمر الله بمحبته هو الذي سلط المنافق منهم على
 أن يجعل ذلك ذريعة إلى الكبائر ولعل هذه البدعة منهم اعظم من الكبيرة مع الإقرار بأن
 ذلك ذنب عظيم والخوف من الله من العقوبة فإن هذا غايته أنه مؤمن فاسق قد جمع سيئة
 وحسنه وأولئك مبتدعة ضلال حين جعلوا ما نهى الله عنه مما أمر الله به وزين لهم سوء
 أعمالهم فرأوه حسنا وبمثلهم يضل أولئك حتى لا ينكروا المنكر إذا اعتقدوا أن هذا يكون
 عبادة الله ومن جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوبا لله فقد شرع ديننا لم يأذن الله به وهو مبدأ
 الشرك كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢١١-٢١٢.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٣٤٨

﴿١٦٦﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
 الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ
 أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَقَّوهُم بِمَا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٨﴾ كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ
 أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا
 النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ
 الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ
 وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو
 كُنُوفٍ عُصَبَاءٌ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
 دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عَمَىٰ فَهَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ
 الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
 فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿البقرة: ١٦٦-١٧٣﴾

المودات التي كانت لغير الله والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا
فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل فيكون حبه لله
ولما يحبه الله وبغضه الله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحبته المخلوق
تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى
فإذا كان هو غالبا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها لكونه غالبا لهواه ناهيا
لنفسه عن الهوى لما في قلبه من خشية الله ومحبتة التي تمنعه عن إنجذابه إلى المحبوبات وأما
حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقولهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن
نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبوه وأخذوه إليهم كحب امرأة العزيز ليوسف فإن قوة
يوسف ومحبتة الله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها
هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعى قوى منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه
الله وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم ولهذا قال
رسول الله لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان وقد يجونه لعلمه أو دينه أو
إحسانه أو غير ذلك فالفتنة في هذا أعظم إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام
فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم
يفعلها وإلا نقص الحب أو حصل نوع بغض وربما زاد أو أدى إلى الأنسلاخ من حبه
فصار مبغوضا بعد أن كان محبوبا فأصدقاء الإنسان يجبون إستخدامه وإستعماله في
أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم وأعداؤه يسعون في أذاه وأضراره وأولئك يطلبون منه
إنتفاعهم وإن كان مضرا له مفسدا لدينه لا يفكرون في ذلك وقليل منهم الشكور
فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره وإنما يقصدون أغراضهم به فإن لم
يكن الإنسان عابدا لله متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا وإلا اكلته الطائفتان
وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة وهذا هو المعروف من أحوال بنى آدم وما يقع
بينهم من المحاربات والمخاصمات والإختلاف والفتن قوم يوالون زيدا ويعادون عمرا
وآخرون بالعكس لأجل اغراضهم فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم
طالبونه من زيد إنقلبوا إلى عمرو وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين اصناف
الناس وكذلك الرأس من الجانيين يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة

لله أضر عليه من أولئك فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه إما بقتله أو بأخذ ماله وإما بإزالة منصبه وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم فهم لا يباليون بذلك وإما دين العبد الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرّون عليه واما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك فإن لم يفعل إنقلبوا أعداء فدخل بذلك عليه الأذى من جهتين من جهة مفارقتهم ومن جهة عداوتهم وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه لأنهم قد شاهدوا منه وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه فإستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة وإن لم يجب مفارقتهم احتاج إلى مداهتم ومساعدتهم على ما يريدونه وإن كان فيه فساد دينه فإن ساعدتهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيبا وافرا وحظا تاما من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضا أن يعاونهم على أغراضهم ولو فاتت أغراضه الدنيوية فكيف بالدينية أن وجدت فيه أو عنده فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم ويصبر على اذاهم ويقضى على حوائجهم لله وتكون إستعانتهم عليهم بالله تامة وتوكله على الله تام وإلا افسدوا دينه ودنياه كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة ويحسن له هذا الرأى ويعاديه أن لم يقم معه كما قد جرى ذلك مع غير واحد وذلك يجرى فيمن يجب شخصا لصورته فإنه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه وفيمن من يجب صاحب بدعة لكونه له داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل وإلا عاداه ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع من علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل لأجل الإبتاع والمحبين ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه ومن أحب أحدا لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه اعظم من ضرر أعدائه فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه وأصدقائه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه فأى صداقة هذه ويجبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم وفيما يحبونه وكلاهما ضرر عليه قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا

الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿﴾ [البقرة: ١٦٦] قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد هي المودات التي كانت لغير الله والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧] فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا كانت لغير الله ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة الا بالله سبب المحبة ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب والمحبوب يجذب فمن أحب شيئاً جذبته إليه بحسب قوته ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته فإن المحب علتة فاعلية والمحبوب علتة غائية وكل منهما له تأثير في وجود المعلول والمحب انما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه اليها لأنها هي في نفسها قصد وفعل فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب اليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله وإلى امرأة لياشرها وإلى صديقه ليعاشره وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد بل لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته الا هو سبحانه وبجمده فكل محبوب في العالم انما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه وهذا من معاني الهيته ولو كان فيهما ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فذلك من خصائص الهيته فلا يستحق ذلك الا الله وحده وكل محبوب سواه ان لم يجب لأجله أو لما يجب لأجله فمحبته فاسدة^(١).

وأحبط الأعمال الصالحة بزوال الإيمان

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٠٢-٦٠٦ والزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٤٠-٤٤.

المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣] ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا أو قال تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] أحبط الأعمال الصالحة بزواله في مثل قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] (١).

ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقا وخطاب المؤمنين

القلب لا بد له من ارادة فاذا كان يكره الشر كله فلا بد أن يريد الخير والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا وبالنية السيئة يكون شرا ولا يكون فعل اختياري الا بارادة ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبدالرحمن وأصدق الأسماء حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة وقوله أصدق الأسماء حارث وهمام لأن كل انسان همام حارث والحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم وهو مبدأ الارادة وهو حيوان وكل حيوان حساس متحرك بالارادة فاذا فعل شيئا من المباحات فلا بد له من غاية ينتهي اليها قصده وكل مقصود اما ان يقصد لنفسه واما أن يقصد لغيره فان كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له وهو إله الذي يعبد لا يعبد شيئا سواه وهو احب اليه من كل ما سواه فان ارادته تنتهي إلى ارادته وجه الله فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما في الصحيحين عن النبي انه قال نفقة الرجل على اهله يحتسبها صدقة وفي الصحيحين عنه انه قال لسعد بن ابى وقاص لما مرض بمكة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥.

وعاده انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك وقال معاذ بن جبل لأبي موسى انى احتسب نومتى كما احتسب قومى وفي الاثر نوم العالم تسييح وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له فان الله أباحها للمؤمنين من عباده بل الكفار واهل الجرائم والذنوب واهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على النعم التي تنعموا بها فلم يذكره ولم يعبدوه بها ويقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وقال تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أى عن شكره والكافر لم يشكر على النعيم الذي انعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك والله انما اباحها للمؤمنين وامرهم معها بالشكر كما قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي صحيح مسلم عن النبي انه قال ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفي سنن ابن ماجه وغيره الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وكذلك قال للرسول ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال الله تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وقال الخليل ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] قال الله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَاَمْرُهُ أَفِيئَةً قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] فالخليل انما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة والله انما اباح بهيمة الانعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم والمؤمنون أمرهم ان يأكلوا من الطيبات ويشكروه ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقا وخطاب المؤمنين فقال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠] فانما اذن للناس ان يأكلوا مما في الأرض

بشرطين ان يكون طيبا وان يكون حلالا ثم قال ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٢-١٧٣﴾ فأذن للمؤمنين في الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل واخبر انه لم يحرم عليهم إلا ما ذكره فما سواه لم يكن محرما على المؤمنين ومع هذا فلم يكن احله بخطابه بل كان عفوا كما في الحديث عن سلمان موقوفا ومرفوعا الحلال ما احله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفي عنه وفي حديث ابى ثعلبة عن النبي إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمت فلا تنتهكوها وسكت عن اشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها وكذلك قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ (الأنعام: ١٤٥) نفي التحريم عن غير المذكور فيكون الباقي مسكوتا عن تحريمه عفوا والتحليل انما يكون بخطاب ولهذا قال في سورة المائدة التي أنزلت بعد هذا ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَلطَيْبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ (المائدة: ٤) إلى قوله ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ﴾ (المائدة: ٥) ففي ذلك اليوم احل لهم الطيبات وقبل هذا لم يكن محرما عليهم الا ما استثناه وقد حرم النبي كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ولم يكن هذا نسخا للكتاب لأن الكتاب لم يحل ذلك ولكن سكت عن تحريمه فكان تحريمه ابتداء شرع ولهذا قال النبي في الحديث المروى من طرق من حديث أبى رافع وأبى ثعلبة وابى هريرة وغيرهم لا ألفين احدكم متكئا على اريكته يأتيه الأمر من امرى مما امرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال احللناه وما وجدنا من حرام حرمانه ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه وفي لفظ الا وانه مثل القرآن أو أكثر الا وانى حرمت كل ذى ناب من السباع فبين أنه أنزل عليه وحى آخر وهو الحكمة غير الكتاب وان الله حرم عليه في هذا الوحى ما أخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخا للكتاب فان الكتاب لم يحل هذه قط انما أحل الطيبات وهذه ليست من الطيبات

وقال ﴿يَأْتِيهَا الذَّبَابُ مَأْمُونًا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] فلم تدخل هذه الآية في العموم لكنه لم يكن حرمها فكانت معفوا عن تحريمها لا مآذونا في أكلها وأما الكفار فلم يأذن الله لهم في أكل شيء ولا أحل لهم شيئا ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه بل قال ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالا وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله والله لم يأذن في الأكل الا للمؤمن به فلم يأذن لهم في أكل شيء الا اذا آمنوا ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكا شرعيا لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي أباحه الشارع والشارع لم يبيح لهم تصرفا في الأموال الا بشرط الإيمان فكانت أموالهم على الاباحة فاذا قهر طائفة منهم طائفة قهرا يستحلونه في دينهم وأخذوها منهم صار هؤلاء فيها كما كان أولئك والمسلمون اذا استولوا عليها فغنموها ملكوها شرعا لأن الله أباح لهم الغنائم ولم يبيحها لغيرهم ويجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه في دينهم ويجوز أن يشتري من بعضهم ماسباه من غيره لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات ولهذا سمي الله ما عاد من أموالهم إلى المسلمين فيئا لأن الله افاءه إلى مستحقه أى رده إلى المؤمنين به الذين يعبدونه ويستعينون برزقه على عبادته فانه انما خلق الخلق ليعبدوه وانما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته ولفظ الفيء قد يتناول الغنيمة كقول النبي في غنائم حنين ليس لي مما افاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم لكنه لما قال تعالى ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] صار لفظ الفيء اذا أطلق في عرف الفقهاء فهو ما أخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والايجاف نوع من التحريك وأما اذا فعل المؤمن ما أبيض له قاصدا للعدول عن الحرام إلى الحلال لحاجته اليه فانه يثاب على ذلك كما قال النبي ﷺ وفي بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في الحرام كان عليه وزر فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر وهذا كقوله في حديث ابن عمر عن النبي قال ان الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه وغيرهما فأخبر أن الله يحب اتيان رخصه كما يكره فعل معصيته وبعض

الفقهاء يرويه كما يجب أن تؤتى عزائمه وليس هذا لفظ الحديث وذلك لأن الرخص انما أباحها الله لحاجة العباد اليها والمؤمنون يستعينون بها على عبادته فهو يجب الأخذ بها لأن الكريم يجب قبول احسانه وفضله كما قال في حديث القصر صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ولأنه بها تتم عبادته وطاعته وما لا يحتاج اليه الإنسان من قول وعمل بل يفعله عبثا فهذا عليه لا له كما في الحديث كل كلام ابن آدم عليه لا له الا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله فهو يجب الأخذ بها لأن الكريم يجب قبول احسانه وفضله كما قال في حديث القصر صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ولأنه بها تتم عبادته وطاعته وما لا يحتاج اليه الإنسان من قول وعمل بل يفعله عبثا فهذا عليه لا له كما في الحديث كل كلام ابن آدم عليه لا له الا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت فأمر المؤمن بأحد امرين اما قول الخير أو الصمات ولهذا كان قول الخير خيرا من السكوت عنه والسكوت عن الشر خيرا من قوله ولهذا قال الله تعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] وقد اختلف أهل التفسير هل يكتب جميع أقواله فقال مجاهد وغيره يكتبان كل شيء حتى أتينه في مرضه وقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه أو يؤزر والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع فانه قال ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ [ق: ١٨] نكرة في الشرط مؤكدة بحرف من فهذا يعم كل قوله وأيضا فكونه يؤجر على قول معين أو يؤزر يحتاج إلى أن يعرف الكاتب ما أمر به وما نهى عنه فلا بد في اثبات معرفة الكاتب به إلى نقل وأيضا فهو مأمور اما بقول الخير واما بالصمات فاذا عدل عما أمر به من الصمات إلى فضول القول الذي ليس بخير كان هذا عليه فانه يكون مكروها والمكروه ينقصه ولهذا قال النبي من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فاذا خاض فيما لا يعنيه نقص من حسن اسلامه فكان هذا عليه اذ ليس من شرط ما هو عليه أن يكونه مستحقا لعذاب جهنم وغضب الله بل نقص قدره ودرجته عليه ولهذا قال تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فما يعمل أحد الا عليه أو له فان كان مما أمر به كان له والا كان عليه ولو أنه ينقص قدره والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط لكن قد عفا الله عما حدث به

المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به أو يعملوا به فاذا عملوا به دخل في الأمر والنهي فاذا كان الله قد كره إلى المؤمنين جميع المعاصي وهو قد حبب إليهم الإيمان الذي يقتضى جميع الطاعات اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس فان المرجئة لا تنازع في أن الإيمان الذي في القلب يدعو إلى فعل الطاعة ويقتضى ذلك والطاعة من ثمراته وتنتججه لكنها تنازع هل يستلزم الطاعة فانه وان كان يدعو إلى الطاعة فله معارض من النفس والشيطان فاذا كان قد كره إلى المؤمنين المعارض كان المقتضى للطاعة سالما عن هذا المعارض وأيضا فاذا كرهوا جميع السيئات لم يبق الا حسنات أو مباحات والمباحات لم تبح الا لأهل الإيمان الذين يستعينون بها على الطاعات والا فالله لم يبح قط لأحد شيئا أن يستعين به على كفر ولا فسوق ولا عصيان ولهذا لعن النبي عاصر الخمر ومعتصرها كما لعن شاربها والعاصر يعصر عنباً يصير عصيراً يمكن أن ينتفع به في المباح لكن لما علم أن قصد العاصر أن يجعلها خمرا لم يكن له أن يعينه بما جنسه مباح على معصية الله بل لعنه النبي على ذلك لأن الله لم يبيح اعانة العاصي على معصيته ولا أباح له ما يستعين به في المعصية فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات فيلزم من انتفاء السيئات أنهم لا يفعلون الا الحسنات ولهذا كان من ترك المعاصي كلها فلا بد أن يشتغل بطاعة الله وفي الحديث الصحيح كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها فالمؤمن لا بد أن يحب الحسنات ولا بد أن يبغض السيئات ولا بد أن يسره فعل الحسنة ويسوءه فعل السيئة ومتى قدر أن في بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الإيمان والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها أو يأتي بحسنات تمحوها أو يتلى ببراء يكفرها عنه ولكن لا بد أن يكون كارها لها فان الله أخبر أنه حبب إلى المؤمنين الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم ولكن محمد بن نصر يقول الفاسق يكرهها تدينا فيقال ان أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها وهو يجب دينه وهذه من جملته فهو يكرهها وان كان يجب دينه مجملا وليس في قلبه كراهة لها كان قد عدم من الإيمان بقدر ذلك كما في الحديث الصحيح من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضا صحيح مسلم فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن

جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل فعلم أن القلب اذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الإيمان الذي يستحق به الثواب وقوله من الإيمان أى من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق أى ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الإيمان ولا قدر حبة خردل والمعنى هذا آخر حدود الإيمان ما بقى بعد هذا من الإيمان شىء ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الإيمان شىء بل لفظ الحديث انما يدل على المعنى الأول^(١).

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن نخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الإيمان وفي رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد والصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الإيمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة إلى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٤-٥١.

فانه عدوهم يطلب صداهم عن الله قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيد بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقال تعالى ﴿هُدًى لِّلشَّاقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمُ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيد منه قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠] فان المستعيد بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبي ﷺ لا يزال الشيطاني أتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته في ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه

الشیطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتحفون على أهل الأرض^(١).

أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهى عنه محرم ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهى عنه محرم بخلاف عكسه فإنه واجب كما قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أى إن ما فيها من طاعة الله وذكره وإمثال أمره أكبر من ذلك وقال في الخمر والميسر ﴿وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١] أى يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عنه الصلاة والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر كما هو الواقع فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالا كان أو حراما فالله تعالى لم يذكر الجماع لأن الخمر لا تدعو إلى الحرام بعينه من الجماع فيأتى شارب الخمر ما يمكنه من الجماع سواء كان حلالا أو حراما والسكر يزيل العقل الذي كان يميز السكران به من الحلال والحرام والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش مالا يكثر من غيرها حتى ربما يقع على إبنته وإبنه ومحارمه وقد يستغنى بالحلال إذا أمكنه

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢ - ٢٨٥.

ويدعو شرب الخمر إلى أكل أموال الناس بالباطل من سرقة ومحاربة وغير ذلك لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغيره من فواحش وغناء وشرب الخمر يظهر اسرار الرجال حتى يتكلم شاربه بما في باطنه وكثير من الناس إذا ارادوا إستفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار يسقونهم الخمر وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به وأيضا فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتديبره ومصالحته في معاشه ومعاده وجميع أموره التي يدبرها برأية وعقله فجميع الأمور التي تصدعنها الخمر من المصالح وتوقعها من المفاسد داخله في قوله تعالى ﴿وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١] وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى قصد الشيطان ولهذا قال النبي ألا أنبتكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين فإن إفساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء وإن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو اعظم منها ولا يرضى بغاية ما قدر على ذلك وأيضا فالعداوة والبغضاء شر محض لا يجيها عاقل بخلاف المعاصي فإن فيها لذة كالخمر والفواحش فإن النفوس تريد ذلك والشيطان يدعو إليها النفوس حتى يوقعها في شر لا تهواه ولا يريده الإنسان ثم قال في سورة النور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] وقال في سورة البقرة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] فنهى عن إتباع خطواته وهو إتباع امره بالإقتداء والإتباع وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم وقال فيها ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والله يعد المغفرة والفضل ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربة وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال عن نبيه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
 كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿الأعراف: ١٥٧﴾ وقال عن أمته ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
 [آل عمران: ١١٤] وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة فتارة يخص إسم المنكر بالنهاى وتارة
 يقرنه بالفحشاء وتارة يقرن معهما البغى وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن
 به غيره كما في قوله تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
 إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها
 بحسب الأفراد والتركيب كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد كان عاما لما يدلان
 عليه عند الإقتران بخلاف إقترانهما فإنه يكون معنى كلمتهما هو معنى الآخر بل أخصه
 من معناه عند الأفراد وأيضا فقد يعطف على الإسم العام بعض أنواعه على سبيل
 التخصيص ثم قد قيل إن ذلك المخصص يكون مذكورا بالمعنى العام والخاص فإذا عرف
 هذا فإسم المنكر يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه وهو المبغض وإسم المعروف يعم كل ما
 يحبه الله ويرضاه ويأمر به فحيث أفراد بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه
 وإذا قرن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة والمنكر هو الذي تنكره
 القلوب فقد يظن أن ما في الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول في المنكر وإن كانت مما
 تنكرها القلوب فإنها تشتهيها النفوس والمنكر قد يقال أنه يعم معنى الفحشاء وقد يقال
 خصت لقوة المقتضى لما فيها من الشهوة وقد يقال قصد بالمنكر ما ينكر مطلقا والفحشاء
 لكونها تشتهى وتحب وكذلك البغى قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس
 عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء ومنشؤها من قوة الغضب كما
 أن الفحشاء منشؤها عن قوة الشهوة ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها فالفواحش
 والبغى مقرونان بالمنكر وأما الإشرار والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ليس في
 النفوس ميل إليهما بل إنما يكونان عن عناد وظلم فهما منكر وظلم محض بالفطرة فهذه
 الخصال فساد في القوة العلمية والعملية فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ
 خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] سواء كان الضمير عائدا إلى الشيطان

أو إلى من يتبع خطوات الشيطان فإن من أتى الفحشاء والمنكر سواء فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه مطيعه عابد له وإن كان الآتى هو الأمر فالأمر بالفعل أبلغ من فعله فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه ومن الفحشاء والمنكر إستماع العبد مزامير الشيطان والمغنى هو مودنه الذي يدعو إلى طاعته فإن الغناء رقية الزنا وكذلك من إتباع خطوات الشيطان القول على الله بلا علم ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ط أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] وهذه حال أهل البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمبردان واحضارهم في سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين^(١).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]

فإن الله حرم القول بلا علم عموماً وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً^(٢).

قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وهذا نهى عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما اخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا ينفي شيئاً إلا بعلم ولا يثبت إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس عليه دليل وفرق بعضهم بين العقلية والشرعية فأوجبه في العقلية دون الشرعية وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب فإن من أثبت شيئاً فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيباً ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل دليل وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفي ما أثبته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نقيض قولك ولم يكن هذا كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٤٥-٣٥٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤٦.

الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئاً أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعاً في المناظرة وإذا اعترض المعارض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعارض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعياً فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيّنات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً وخص الكلام على الله بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال ﴿ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ كَلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [١٣٨] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَاتٍ ءَابَاءُ لَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤٠﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠] ^(١).

القول على الله بغير علم حرام

فالذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور منها القول على الله بلا علم كقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقوله ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] ومنها أن يقال عليه غير الحق كقوله ﴿ أَلَمْ يُوَخِّدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقوله ﴿ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١] ^(٢).

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٥٩ - ٤٦١.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٣.

وقد حرم الله على الرجل أن ينفي ما ليس له به علم وحرم عليه ان يقول على الله ما لا يعلم واخبر ان الذي يأمر بالقول بغير علم هو الشيطان فقال ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] (١).

كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر الذي أمر الله بالنهي عنه كما قال تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهو من الأثم الذي قال الله فيه ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَالْكَفِيرَ﴾ [المائدة: ٦٣] وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفي عن الله ما أثبتته لنفسه من العطللة والممثلة فإنه قال على الله غير الحق وذلك مما زجر الله عنه بقوله للنصارى ﴿يَتَأْهَلُ الْكُتُبَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] ويقوله ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكُتُبَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وقال عن الشيطان ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] وقال ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فإن من قال غير الحق فقد قال على الله ما لا يعلم فإن الباطل لا يعلم إلا إذا علم بطلانه فأما اعتقاد أنه الحق فهو جهل لا علم فمن قاله فقد قال ما لا يعلم وكذلك من تبع في هذه الأبواب وغيرها من أبواب الدين آباءه وأسلافه من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والاجماع فإنه ممن ذمه الله في كتابه (٢).

أسباب ضلال من ضل من مكذبي الرسل

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ١٩٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٦٤ والجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٢٩٥.

يُنزَّلُ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتَّابُ لَأَتَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وقال تعالى ﴿أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وكما أن الإنسان لا يجوز له أن يثبت شيئا الا بعلم فلا يجوز له أن ينفي شيئا الا بعلم ولهذا كان النافي عليه الدليل كما ان المثبت عليه الدليل ومما يجب ان يعرف أن أدلة الحق لا تتناقض فلا يجوز اذا اخبر الله بشيء سواء كان الخبر اثباتا أو نفيًا ان يكون في اخباره ما يناقض ذلك الخبر الأول ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض ذلك الخبر المعقول فالادلة المقتضية للعلم لايجوز أن تتناقض سواء كان الدليلان سمعيين أو عقليين أو كان أحدهما سمعيا والآخر عقليا ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلا وليس بدليل كمن يسمع خبرا فيظنه صحيحا ولا يكون كذلك أو يفهم منه ما لا يدل عليه أو تقوم عنده شبهه يظنها دليلا عقليا وتكون باطله التبس عليه فيها الحق بالباطل فيكذب بها ما أخبر الله به ورسوله وهذا من أسباب ضلال من ضل من مكذبي الرسل اما مطلقا كالذين كذبوا جميع الرسل كقوم نوح وشمود وعاد ونحوهم واما من آمن ببعض وكفر ببعض كمن آمن من اهل الكتاب ببعض الرسل دون بعض ومن آمن من الفلاسفة ببعض ما جاءت به الرسل دون بعض ومن أهل البدع من أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى من اتوا من هذا الوجه فانه قامت عندهم شبهات ظنوا انها تنفي ما أخبرت به الرسل من اسماء الله تعالى وصفاته وظنوا ان الواجب حينئذ تقديم ما رأوه على النصوص لشبهات قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضوع وبين ضلال من ضل من الجهمية المتفلسفة والمعتزلة ومن وافقهم من بعض ضلالهم^(١).

وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالا

ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥١٤ - ٥١٥.

أريد بها من جهة النبي لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال اهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة أنواع نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ونحو ذلك وروى عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله من ادعى علمه فهو كاذب فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول ما يراد بها في كلام الله ورسوله وكذلك لفظ الخمر وغيرها ومن هناك يعرف معناها فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبي لم يقبل منه واما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام هو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هي أعظم من هذا كله فالنبي قد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الاسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف بل معانى هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامه بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ويعلم بالاضطرار ان طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنبا كافرا ويعلم أنه لو قدر أن قوما قالوا للنبي نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بألستنا بالشهادتين الا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ولا نصدق الحديث ولا نؤدى الأمانة ولا نفي بالعهد ولا نصل الرحم ولا نفعل شيئا من الخير الذي أمرت به ونشرب الخمر ونتكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ونقتل من قدرنا عليه من اصحابك وأمتك ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضا ونقاتلك مع أعدائك هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم أنتم مؤمنون كاملوا الإيمان وأنتم من اهل شفاعتى يوم القيامة ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم ان لم يتوبوا من ذلك وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزانى والقاذف

والسارق لم يكن النبي يجعلهم مرتدين يجب قتلهم بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني وقطع السارق وهذا متواتر عن النبي ولو كانوا مرتدين لقتلهم فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لانهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها اما في دلالة الألفاظ وإما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته إلى ابي عبدالرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله وقال تعالى في الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ١٦٨-١٦٩] وقال تعالى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وهذا من تفسير القرآن بالرأى الذي جاء فيه الحديث من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^(١).

فالواجب اتباع الكتاب المنزل والنبي المرسل وسبيل من أناب إلى الله دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء

فان الإنسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما يتبع الطفل في الدين أبويه وسابيه وأهل بلده ثم إذا بلغ الرجل فعلية أن يقصد طاعة الله ورسوله حيث كانت ولا يكون ممن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله والرسول إلى عادته وعادة أبيه وقومه

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٧ - ٢٨٨.

فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد^(١).

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالات والمعاداة^(٢).

فأما أن نتبع ما أنزل الله أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من البدع فكان الواجب هو اتباع الرسول وأن لا نكون ممن قيل فيه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا آبَاءً وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [نجم: ٢١] وقد قال تعالى ﴿قُلْ أُولَئِكَ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] وقال تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ إِلَهِكَ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [نجم: ١٤-١٥] فالواجب اتباع الكتاب المنزل والنبى المرسل وسبيل من أناب إلى الله فاتبعنا الكتاب والسنة كالمهاجرين والأنصار دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء والله يهدينا وسائر اخواننا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والله سبحانه أنزل القرآن وهدى به الخلق وأخرجهم به من الظلمات إلى النور^(٣).

التقليد الذي حرمه الله ورسوله

قد ذم الله تعالى في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آباءه وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٩٧.

(٢) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٤٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٥٨.

والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان في سره
وعلانيته وفي جميع أحواله وهذا من الإيمان قال الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾
[النساء: ٦٥] وقال ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾
[النور: ٥١] وقال ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وقال ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس في قريب من
أربعين موضعا من القرآن وطاعته طاعة الله وهى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك هو
دين الله وهو الإسلام وكل من أمر الله بطاعته من عالم وأمير ووالد وزوج فلان طاعته
طاعة الله وإلا فاذا أمر بخلاف طاعة الله فانه لا طاعة له وقد يأمر الوالد والزوج بمباح
فيطاع وكذلك الامير إذا أمر عالما يعلم أنه معصية لله والعالم إذا أفتى المستفتى بما لم يعلم
المستفتى أنه مخالف لأمر الله فلا يكون المطيع لهؤلاء عاصيا واما إذا علم أنه مخالف لأمر
الله فطاعته في ذلك معصية لله ولهذا نقل غير واحد الاجماع على أنه لا يجوز للعالم أن
يقلد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذي جاء به الرسول فهنا لا يجوز له
تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع ولكن هل يجوز مع قدرته على الاستدلال أنه يقلد
هذا فيه قولان فمذهب الشافعى وأحمد وغيرهما لا يجوز وحكى عن محمد بن الحسن
جوازه والمسألة معروفة وحكى بعض الناس ذلك عن أحمد ولم يعرف هذا الناقل قول
أحمد كما هو مذكور في غير هذا الموضع وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند
الجمهور وفي صفة من يجوز له التقليد تفصيل ونزاع ليس هذا موضعه والمقصود هنا ان
التقليد المحرم بالنص والاجماع أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائنا من كان
المخالف لذلك قال الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعْزُزُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ
سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يَا لَيْتَنِي لَوْ أَتَّخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٢﴾ [الفرقان: ٢٧-٣٠] وقال تعالى ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا مِنْكَ الْعَنَابَ وَالْعَنَمَ لَعَنَّا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] وقال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦] إلى قوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ [البقرة: ١٧١] فذكر براءة المتبوعين من اتباعهم في خلاف طاعة الله ذكر هذا بعد قوله ﴿وَاللَّهُكُ إِلَهُ وَحْدٌ ﴿١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣] فالاله الواحد هو المعبود والمطاع فمن أطاع متبوعا في خلاف ذلك فله نصيب من هذا الذم قال تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴿١٤﴾ [البقرة: ١٤] إلى قوله ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ [البقرة: ١٥] ثم خاطب الناس بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان في خلاف ذلك فانه إنما يأمر بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون فيقولوا هذا حرام وهذا حلال أو غير ذلك مما يقولونه على الله في الأمور الخبرية والعملية بلا علم كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿١١٦﴾ [النحل: ١١٦] ثم إن هؤلاء الذين يقولون على الله بغير علم إذا قيل لهم ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠] فليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذي اعتادوه وتربوا عليه ثم خاطب المؤمنين خصوصا فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣] فأمروهم بأكل الطيبات مما رزقهم لأنهم هم المقصودون بالرزق ولم يشترط الحل هنالأنه إنما حرم ما ذكر فما سواه حلال لهم والناس

إنما أمرهم بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وهو إنما أحل للمؤمنين والكفار لم يحل لهم شيئا فالحل مشروط بالإيمان ومن لم يستعن برزقه على عبادته لم يحل له شيئا وإن كان أيضا لم يجرمه فلا يقال إن الله أحله لهم ولا حرمه وإنما حرم على الذين هادوا ما ذكره في سورة الأنعام ولهذا أنكر في سورة الأنعام وغيرها على من حرم ما لم يجرمه كقوله ﴿قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] ثم قال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ثم قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات وقال في سورة النحل ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] الآية وأخبر أنه حرم ذلك بغيرهم فقال ﴿فِي ظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِغَيْرِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وهذا كله يدل على أصح قولي العلماء وهو أن هذا التحريم باق عليهم بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته لأنه تحريم عقوبة على ظلمهم وبغيرهم وهذا لم يزل بل زاد وتغلظ فكانوا أحق بالعقوبة وأيضا فإن الله تعالى أخبر بهذا التحريم بعد مبعث محمد ليعين أنه لم يجرم إلا هذا وهذا فلو كان ذلك التحريم قد زال لم يستثنه وأيضا فإن التحريم لا يزول الا بتحليل منه وهو إنما أحل أكل الطيبات للمؤمنين بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] الآية وقوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ٤] إلى قوله ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] وهذا خطاب للمؤمنين ولهذا قال ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ثم قال ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] فلو كان ما أحل لنا حلالا لهم لم يحتج إلى هذا وقوله ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] لا يدخل فيه ما حرم عليهم كما أن قوله ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] لا يدخل فيه ما حرم علينا مما يستحلونه هم كصيد الحرم

وما أهل به لغير الله وهل يدخل في طعامهم الذي احل لنا ما حرم عليهم ولم يحرم علينا مثل ما اذا ذكوا الابل هذا فيه نزاع معروف فالمشهور من مذهب مالك هو أحد القولين في مذهب أحمد تحريمه ومذهب ابى حنيفة والشافعى والقول الآخر في مذهب أحمد حله وهل العلة انهم لم يقصدوا ذكاته أو العلة انه ليس من طعامهم فيه نزاع وإذا ذبحوا للمسلم فهل هو كما اذا ذبحوا لأنفسهم فيه نزاع وفي جواز ذبحهم النسك اذا كانوا ممن يحل ذبحهم قولان هما روايتان عن أحمد فالمنع مذهب مالك والجواز مذهب ابى حنيفة والشافعى فاذا كان الذابح يهوديا صار في الذبح علتان وليس هذا موضع هذه المسائل ثم إنه سبحانه لما ذكر حال من يقول على الله بلا علم بل تقليدا لسلفه ذكر حال من يكتم ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ - مِمَّا قَلِيلًا أَوْلِيَّتِكَ مَا يَأْكُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤] فهذا حال من كتم علم الرسول وذاك حال من عدل عنها إلى خلافها والعاذل عنها إلى خلافها يدخل فيه من قلد أحدا من الأولين والآخرين فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول سواء كان صاحبا أو تابعا أو أحد الفقهاء المشهورين الأربعة أو غيرهم وأما من ظن أن الذين قلدتهم موافقون للرسول فيما قالوه فان كان قد سلك في ذلك طريقا علميا فهو مجتهد له حكم أمثاله وإن كان متكلمًا بلا علم فهو من المذمومين^(١).

فمن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه

فإن حال الكافر لا تخلو من أن يتصور الرسالة أولا فإن لم يتصورها فهو في غفلة عنها وعدم إيمان بها كما قال ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة والكفر المعذب عليه لا يكون الا بعد بلوغ الرسالة فلهذا قرن التكذيب بالغفلة وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٦١ - ٢٦٦.

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴿١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].^(١)

التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة

التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة قال الله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠] وفي المائدة وفي لقمان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١] وفي الزخرف ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] وفي الصافات ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ ءَابَاءُهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَانْتِهَىٰ يَهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠] وقال ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿الأحزاب: ٦٦-٦٧﴾ وقال ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] وقال ﴿وَإِذْ يَتَحَفَّضُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٧] وفي الآية الأخرى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِّنَ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤] وقال ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى اما للعادة والنسب كاتباع الآباء وأما للرئاسة كاتباع الاكابر والسادة والمتكبرين فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه وهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وهو الصغير فان دينه دين أمه فان فقدت فدين ملكه وأبيه فان فقدت كاللقيط فدين المتولى عليه وهو أهل البلد الذي

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٧٨.

هو فيه فأما إذا بلغ وأعرب لسانه فاما شاكرا وإما كفورا وقد بين الله أن الواجب الاعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله فانهم حجة الله التي أعذر بها إلى خلقه والكلام في التقليد في شيئين في كونه حقا أو باطلا من جهة الدلالة وفي كونه مشروعاً أو غير مشروع من جهة الحكم أما الأول فان التقليد المذكور لا يفيد علماً فان المقلد يجوز أن يكون مقلده مصيباً ويجوز أن يكون مخطئاً وهو لا يعلم أمصيب هو أم مخطيء فلا تحصل له ثقة ولا طمأنينة فان علم ان مقلده مصيب كتقليد الرسول أو أهل الاجماع فقد قلده بحجة وهو العلم بأنه عالم وليس هو التقليد المذكور وهذا التقليد واجب للعلم بأن الرسول معصوم وأهل الاجماع معصومون وأما تقليد العالم حيث يجوز فهو بمنزلة اتباع الأدلة المتغلبة على الظن كخبر الواحد والقياس لأن المقلد يغلب على ظنه إصابه العالم المجتهد كما يغلب على ظنه صدق المخبر لكن بين اتباع الراوى والرأى فرق يذكر إن شاء الله في موضوع آخر فان اتباع الراوى واجب لأنه انفراد بعلم ما أخبر به بخلاف الرأى فانه يمكن أن يعلم من حيث علم ولأن غلط الرواية بعيد فان ضبطها سهل لهذا نقل عن النساء والعامه بخلاف غلط الرأى فإنه كثير لدقة طرقة وكثرتها وهذا هو العرف لمن يجوز قبول الخبر مع إمكان مراجعه المخبر عنه ولا يجوز قبول المعنى مع إمكان معرفة الدليل وأما العرف الأول فمتفق عليه بين أهل العلم ولهذا يوجبون اتباع الخبر ولا يوجب أحد تقليد العالم على من أمكنه الاستدلال وإنما يختلفون في جوازه لأنه يمكنه أن يعلم من حيث علم فهذه جملة وأما تفصيلها فنقول الناس في الاستدلال والتقليد على طرفي نقيض منهم من يوجب الاستدلال حتى في المسائل الدقيقة أصولها وفروعها على كل أحد ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد وهذا في الأصول والفروع وخيار الأمور أوساطها^(١).

أهل البدع والأهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق

أن التقليد المذموم هو قبول قول الغير بغير حجة كالذين ذكر الله عنهم أنهم

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٥-١٨.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] قال تعالى

﴿أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا

ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَأْتَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠] ونظائر هذا في القرآن كثير فمن

اتبع دين آباءه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه فهذا

هو المقلد المذموم وهذه حال اليهود والنصارى بل أهل البدع والاهواء في هذه الأمة

الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق كما قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ

الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَا كُنَّا كُرَّةً

فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

[البقرة: ١٦٦-١٦٧] وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقا في معصية الله كان له

نصيب من هذا الذم والعقاب والمطيع للمخلوق في معصية الله ورسوله إما أن يتبع الظن

وإما أن يتبع ما يهواه وكثير يتبعهما وهذه حال كل من عصى رسول الله من المشركين

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة وبيان ذلك

أن الشخص إما أن يبين له أن ما بعث الله به رسوله حق ويعدل عن ذلك إلى اتباع هواه

أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق فهذا متبع للظن والأول متبع لهواه

اجتماع الأمرين قال تعالى في صفة الأولين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

[النمل: ١٤] وقال تعالى في صفة الآخسرين ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْآخْسَرِينَ أَعْمَلًا ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] فالأول حال المغضوب عليهم

الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كما هو موجود في اليهود والثاني حال الذين يعملون

بغير علم قال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وكل

من يخالف الرسل هو مقلد متبع لمن لا يجوز له أتباعه وكذلك من أتبع الرسول بغير

بصيرة ولا تبين وهو الذي يسلم بظاهره من غير أن يدخل الإيمان إلى قلبه كالذي يقال له

في القبر ما ربك وما دينك وما نبيك فيقول هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا

فقلته هو مقلد فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان

ولو سمعها الإنسان لصفق أى لمت وقد قال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لَّهُمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فمن لم يدخل الإيمان في قلبه وكان مسلماً في الظاهر فهو من المقلدين المذمومين فإذا تبين أن المقلد مذموم وهو من اتبع هوى من لا يجوز اتباعه كالذي يترك طاعات رسل الله ويتبع ساداته وكبرائه أو يتبع الرسول ظاهراً من غير إيمان بقلبه تبين أن اليهود والنصارى كلهم مقلدون تقليداً مذمواً وكذلك المنافقون من هذه الأمة^(١).

موانع تصد عن الضم والقبول

الكفار تسمع الصوت لكن لا تسمع سماع قبول بفقهِه واتباع كما قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١]^(٢).

قال تعالى ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] فالآيات أفقية وأرضية وقرآنية وهي أدلة العلم والإنذار يقتضى الخوف فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل بهن فهذا تنفعه الحكمة والنذر لمن يعرف الحق وله هوى يصده فينذر بالعذاب الذي يدعو إلى مخالفة هواه وهو خوف العذاب وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل فيجادل بالتي هي أحسن وقد قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وقال ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا﴾ [الأنعام: ٤٥] ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١] فالمراد أن الكافر ما دام كافراً لا يقبل الحق سواء انذر أم لم ينذر ولا يؤمن ما دام كذلك لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصد عن الفهم والقبول وهكذا حال من غلب عليه هواه وهو سبحانه لم يقل أنهم لا يؤمنون وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة أو حقت عليه الكلمة كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٩٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٩٨.

رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿[يونس: ٩٦-٩٧]﴾ فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها وموسى قد دعا عليه فقال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ ﴿[يونس: ٨٨-٨٩]﴾ وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] الآية فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء وآية البقرة المطلقة عامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فإنه ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في المنافقين فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره وليس قال إن الله لا يهدى أحدا من هؤلاء فيسمع ويقبل ولكن هو حين يكون كافرا لا تتناوله الآية وهذا كما يقال في الكافر الحربي لا يجوز أن تعقد له الذمة ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيا فالكفار ما داموا كفارا هم بهذه المثابة لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك وإن أنذروا وهذا كقوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فهذا مثل كل كافر ما دام كافرا وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم وسمعتهم وابصارهم فإنهم لا يسمعون لذلك المعنى المشتق منه وهو الكفر فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ولكن تغيير الحال ممكن كما قال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وكما هو الواقع ومثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس وأن الداعي وإن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص في الدعاء لكن لفساد في المدعو وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك والنفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد والدعاء والتعليم والإرشاد وكل ما كان من هذا

الجنس له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والندارة وله قابل وهو المستمع فإذا كان المستمع قابلاً حصل الإنذار التام والتعليم التام والهدى التام وإن لم يكن قابلاً قيل علمته فلم يتعلم وهديته فلم يهتد وخاطبته فلم يصنع ونحو ذلك فقوله في القرآن ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء وهم المتقون لا كل أحد وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفاراً لكن إنما يهتدى به من كان متقياً فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن وهكذا قوله ﴿يُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] الإنذار التام فإن الحي يقبله ولهذا قال ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] فهم لم يقبلوا الإنذار ومثله قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وعكسه قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقاً قبل ذلك ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص في الخوارج وسماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق^(١).

﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

قال تعالى ﴿تَذَكَّرْ إِنَّ نَفْعَتِ الذِّكْرِ ١ سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى ١٠ وَيُنَجِّبُهَا الْأَشْقَى ١١﴾ الَّذِي يَصَلِّ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ٩-١٢] فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال ﴿بَصِيرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ولهذا قالوا في قوله ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠] سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفي قوله ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوباً طلبه وان تذكر مرهوباً هرب منه ومنه قوله تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٨٥ - ٥٨٨.

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ [يس: ١٠] وقال سبحانه ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١] فنفي الانذار عن غير هؤلاء مع قوله ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذي تم تخويفه وأما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى ﴿هُدًى يَتَّبِعِينَ﴾ [البقرة: ٢] ومن هديته فلم يهتد كما قال ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع المؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيد فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالمرور الذي يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْسِدَهُمْ وَابْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠] وقال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وقال في الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] والغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأكلف كأنهم جعلوا المانع خلفة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] و﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وقال

تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِمُّ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] وكذلك قالوا ﴿قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] قال ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفي عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الزمر: ١٧] وقال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال عن المنافقين ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمى البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] والقلب هو الملك والأعضاء جنوده وإذا صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا^(١).

سماع فقه وقبول

أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٥ - ٢٨.

والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيًا وإثباتًا فيقال فلان يسمع فلان أى يطيعه في أمره أو يصدقه في خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار في غير موضع كقوله ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقرة: ١٧١] وقوله ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفي موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦] ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعانى السمع الذي لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم^(١).

أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ سماع فقه وقبول ولهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى وصنف فقهه ولكنه لم يقبله والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول الأول كالذين قال فيهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] والصنف الثانى من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى قال تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٤٣) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٢-٤٤] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٩٥.

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرَتْ
رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ
يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبِيعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٧] وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] وقوله أن يفقهوه يتناول من لم
يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في
الخارج وهو الأعيان والأفعال والصفات المقصودة بالأمر والخبر بحيث يراها ولا يعلم
أنها مدلول الخطاب مثل من يعلم وصفا مذموما ويكون هو متصفا به أو بعضا من جنسه
ولا يعلم أنه داخل فيه^(١).

وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكمة بالذكر مثل قوله ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقوله ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين
فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا لا بد منه لكل مؤمن وتزكيتهم هو جعل
أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم فالأول
سمعهم والثاني طاعتهم والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا الأول علمهم والثاني عملهم
والإيمان قول وعمل فإذا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها ولم يكونوا كمن
قال فيهم ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من المفلحين المؤمنين والله قال
﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال في ضدهم
﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]
فأخبر أنهم أعظم كفرا ونفاقا وجهلا وذلك ضد الإيمان والعلم فإستماع آيات الله

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٨-٩.

والتزكى بها أمر واجب على كل احد فإنه لابد لكل عبد من سماع رسالة سيده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذي هو أصل الإيمان ولابد من التزكى بفعل المأمور وترك المحذور فهذا لابد منهما^(١).

وهو ان الله في كتابه إنما حمد استماع القرآن وذم المعرضين عن استماعه وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم^(٢).

حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصالحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضيء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله ياسين ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضا اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذها قبور أو في الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي ﷺ إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذي يلي الشتاء فإن منه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار^(٣).

والقلب الحي المنور فانه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فانه لا

يسمع ولا يبصر قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢٨.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠٣-١٠٨ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٩.

صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٧١﴾ وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الْصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا
يُبْصِرُونَ ﴿يونس: ٤٢-٤٣﴾ وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَهِيًّا لَا يُوْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يَجِدُلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسْطِيرُ الْأُولَٰئِينَ ﴿الأنعام: ٢٥﴾ الآيات فأخبر انهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بأذانهم
ولا يؤمنون بما رأوه من النار كما اخبر عنهم حيث قالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه
وفي آذاننا قر ومن بيننا وبينك حجاب فذكروا الموانع على القلوب والسمع والابصار
وابدانهم حية تسمع الاصوات وترى الأشخاص لكن حياة البدن بدون حياة القلب من
جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى ﴿وَمَثَلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴿البقرة: ١٧١﴾ فشبهم بالغنم الذي
ينعق بها الراعى وهى لا تسمع الا نداء كما قال في الآية الأخرى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ
يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿الفرقان: ٤٤﴾ وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ
ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ
أَعْدَاءُ لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿الأعراف: ١٧٩﴾ ﴿١٧٩﴾ فطائفة من
المفسرين تقول في هذه الآيات وما اشبهها كقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ
قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴿يونس: ١٢﴾ وأمثالها مما
ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها فيقول هؤلاء هذه الآية في الكفار والمراد بالإنسان هنا
الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن انه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب
بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرًا للشرك من العرب أو إلى من يعرفهم من مظهرى
الكفر كاليهود والنصارى ومشركى الترك والهند ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التي
أنزلها الله ليهتدى بها عباده فيقال أولا المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون
كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الاسفل من النار ويقال ثانيا الإنسان قد يكون

عنده شعبة من نفاق وكفر وان كان معه ايمان كما قال النبي في الحديث المتفق عليه أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا اؤتمن خان واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لابي ذر رضى الله عنه انك امرؤ فيك جاهلية وابو ذر رضى الله عنه من أصدق الناس ايمانا وقال في الحديث الصحيح أربع في امتي من امر الجاهلية الفجر بالاحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم وقال في الحديث الصحيح لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى قال فمن وقال أيضا في الحديث الصحيح لتأخذن أمتي ما أخذت الامم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا فارس والروم قال ومن الناس الا هؤلاء وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن علي أو حذيفة رضى الله عنهما قال القلوب اربعة قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب اغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس فذاك قلب المؤمن المنافق وقلب فيه مادتان مادة تدهم الاريمان ومادة تدهم النفاق فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وإذا عرف هذا علم ان كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فيقولون المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم فأى فائدة في طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم نم حتى آيتك أو يقول بعضهم الزم قلوبنا الهدى فحذف المزوم ويقول بعضهم زدنى هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية اليه فان المراد به العمل بما امر الله به وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور والإنسان وإن كان أقر بان محمدا رسول الله وان القرآن حق على سبيل الاجمال فاكثر ما يحتاج اليه من العلم بما ينفعه ويضره وما امر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهى في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الامور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا نذكر ما يخص به كل عبد ولهذا امر الإنسان في مثل

ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ويتناول الهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الإهداء أن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١-٢] وقال في حق موسى وهرون ﴿وَأَيُّنَّهُمَا أَلْكَتَبَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٧-١١٨]

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق والقرآن حق فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بواجبتهم وفاقبتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين قال سهل ابن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول ثبتنا واهدنا لزوم الصراط.

ولا ريب أن الحق نوعان حق موجود وبه يتعلق الخبر الصادق وحق مقصود وبه يتعلق الأمر الحكيم والعمل الصالح و ضد الحق الباطل ومن الباطل الثاني قول النبي كل لهُو يلهو الرجل به فهو باطل لإلارميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق والحق الموجود إذا أخبر عنه بخلافه كان كذبا وهؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل بين الحق الموجود الذي ينبغي اعتقاده والباطل المعلوم الذي ينبغي نفيه في الخبر عنهما ولا بين الحق المقصود الذي ينبغي اعتماده والباطل الذي ينبغي إجتنابه بل يقصدون ماهوده وأمكنهم منهما وأصدق الحق الموجود ما أخبر الله بوجوده والخبر الحق المقصود ما أمر الله به وإن شئت قلت أصدق خبر عن الحق الموجود خبر الله وخير أمر بالحق المقصود

أمر الله والإيمان يجمع هذين الأصلين تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وإذا قرن بينهما قيل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] والعمل خير من القول كما قال الحسن البصرى ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل^(١).

تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤونا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة في تعلم البقرة ثمانى سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التي جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتنائهم بالقرآن المنزل عليهم لفظا ومعنى بل أن يكون اعتنائهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتابا في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لا بد أن يكون راغبا في فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرأ كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذي به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغى فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثا فانه يرغب في فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول في تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع كما قال تعالى ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فاذا كان قد حض الكفار

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٠٢.

والمناققين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمناققين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم الوجه الثالث أنه ذم من لم يكن حظه من السماع الا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه فقال تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيَ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] (١).

وعدم العلم ليس علما بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعا من قيام حجة الله تعالى عليهم وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنع الحجة إذ المكنة حاصلة فلذلك قال تعالى ﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [تقمان: ٧] وقال تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيَ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] ومن هذا الباب إنكار كثير من أهل البدع والكلام والفلسفة لما يعلمه أهل الحديث والسنة من الآثار النبوية والسلفية المعلومة عندهم بل المتواترة عندهم عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان فان هؤلاء يقولون هذه غير معلومة لنا كما يقول من يقول من الكفار إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم وهذا لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك وإلا فلو سمعوا ما سمع أولئك وقرأوا الكتب المصنفة التي قرأها أولئك تحصل لهم من العلم ما حصل لأولئك وعدم العلم ليس علما بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود فهم إذا لم يعلموا ذلك لم يكن هذا علما منهم بعدم ذلك ولا بعدم علم غيرهم به بل هم كما قال الله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس: ٣٩] وتكذيب من كذب بالجن هو هذا الباب وإلا فليس عند المتطيب والمتفلسف دليل عقلي ينفي وجودهم لكن غايته أنه ليس في صناعته ما يدل على وجودهم وهذا إنما يفيد عدم العلم لا العلم بالعدم وقد اعترف بهذا حذاق الأطباء والفلاسفة كأبقراط وغيره (٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٨.

(٢) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ١٠٠.

البصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل

فان البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له الإحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبة وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي ﷺ ليس المخبر كالمعاين لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الإنسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمٌّ فَهُمْ لَا يَرِجُونَ﴾ [البقرة: ١٨] في حق المنافقين وقال في حق الكافرين ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]^(١).

أن مجرد سلب هذه الصفات نقص لذاته سواء سميت عمى وصمما وبكما أو لم تسم والعلم بذلك ضروري فأما اذا قدرنا موجودين أحدهما يسمع ويبصر ويتكلم والآخر ليس كذلك كان الأول اكمل من الثاني ولهذا عاب الله سبحانه من عبد ما تنتفي فيه هذه الصفات^(٢).

أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٩٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٨٨.

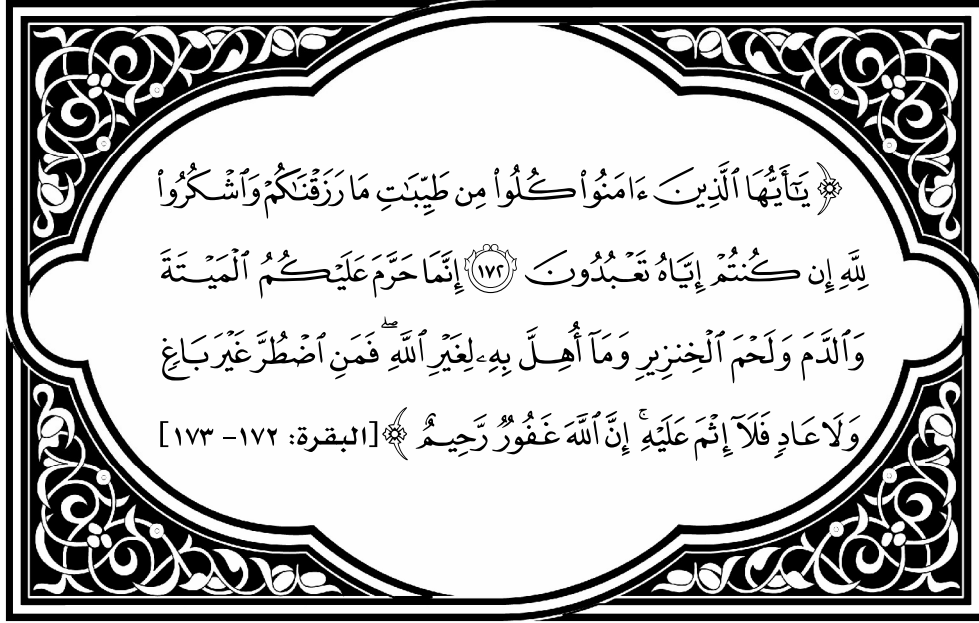
الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون^(١).

فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه

قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ٥٤] أى العقول وقال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الزجر: ٥] أى الذى عقل وقال تعالى ﴿وَأَتَقُونَ بِآلِ الْآبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا إِلَهُمْ أَنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا إِلَهُمْ أَنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]^(٢).

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧.



كان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه ولا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا

وأما الأكل واللباس فخير الهدى هدى محمد ﷺ وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه ولا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا فكان إن حضر خبز ولحم أكله وإن حضر فاكهة وخبز ولحم أكله وإن حضر تمر وحده أو خبز وحده أكله وإن حضر حلو أو عسل طعمه أيضا وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد وكان يأكل القثاء بالرطب فلم يكن إذا حضر لوانان من الطعام يقول لا أكل لونين ولا يمتنع من طعام لما فيه من اللذة والحلاوة وكان أحيانا يمضي الشهران والثلاثة لا يوقد في بيته نار ولا يأكلون إلا التمر والماء وأحيانا يربط على بطنه الحجر من الجوع وكان لا يعيب طعاما فإن اشتهاه أكله وإلا تركه وأكل على مائدته لحم ضب فامتنع من أكله وقال إنه ليس بجرام ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه وكذلك اللباس كان يلبس القميص والعمامة ويلبس الإزار والرداء ويلبس الجبة والفروج وكان يلبس من القطن والصوف وغير ذلك لبس في السفر جبة صوف وكان يلبس مما يجلب من اليمن وغيرها وغالب ذلك مصنوع من القطن وكانوا يلبسون من قباطي مصر وهي منسوجة من الكتان فسنته في ذلك تقتضي أن يلبس

الرجل ويطعم مما يسره الله ببلده من الطعام واللباس وهذا يتنوع بتنوع الأمصار وقد كان اجتمع طائفة من أصحابه على الامتناع من أكل اللحم ونحوه وعلى الامتناع من تزوج النساء فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

[المائدة: ٨٧-٨٨] وفي الصحيحين عنه أنه بلغه أن رجلا قال أحدهم أما أنا فأصوم لا أفطر وقال الآخر أما أنا فأقوم لا أنام وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر أما أنا فلا أكل اللحم فقال لکني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني وقد قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقَكُمُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢] فأمر بأكل الطيبات والشكر لله فمن حرم الطيبات كان معتديا ومن لم يشكر كان مفرطا مضيعا لحق الله وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهذه الطريق التي كان عليها رسول الله ﷺ هي أعدل الطرق وأقومها والانحراف عنها إلى وجهين قوم يسرفون في تناول الشهوات مع إعراضهم عن القيام بالواجبات وقد قال تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٣١] وقال تعالى ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا ۗ ﴿٥٩﴾ [مريم: ٥٩] وقوم يجرمون الطيبات وبيئدعون رهبانية لم يشرعها الله تعالى ولا رهبانية في الإسلام وقد قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ [المائدة: ٨٧] وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۗ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ [المؤمنون: ٥١] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۗ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقَكُمُ

وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴿البقرة: ١٧٢﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك وكل حلال طيب وكل طيب حلال فإن الله أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث لكن جهة طيبه كونه نافعا لذيذا والله حرم علينا كل ما يضرنا وأباح لنا كل ما ينفعنا بخلاف أهل الكتاب فإنه بظلم منهم حرم عليهم طيبات أحلت لهم فحرم عليهم طيبات عقوبة لهم ومحمد ﷺ لم يحرم علينا شيئا من الطيبات والناس تتنوع أحوالهم في الطعام واللباس والجوع والشبع والشخص الواحد يتنوع حاله ولكن خير الأعمال ما كان فيه أطوع ولصاحبه أنفع وقد يكون ذلك أيسر العملين وقد يكون أشدهما فليس كل شديد فاضلا ولا كل يسير مفضولا بل الشرع إذا أمرنا بأمر شديد فإنما يأمر به لما فيه من المنفعة لا لمجرد تعذيب النفس كالجهاد الذي قال فيه تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ والحج هو الجهاد الصغير ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في العمرة أجرك على قدر نصيبك وقال تعالى في الجهاد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿التوبة: ١٢٠﴾ وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة فليس هذا مشروعاً لنا بل أمرنا الله بما ينفعنا ونهانا عما يضرنا وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وقال هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وروي عنه أنه قال أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة فالإنسان إذا أصابه في الجهاد والحج أو غير ذلك حر أو برد أو جوع ونحو ذلك فهو مما يحمد عليه قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿التوبة: ٨١﴾ وكذلك قال ﷺ الكفارات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد

الصلاة فذلکم الرباط فذلکم الرباط وأما مجرد بروز الإنسان للحر والبرد بلا منفعة شرعية واحتفاؤه وكشف رأسه ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس فهذا إذا لم يكن فيه منفعة للإنسان وطاعة لله فلا خير فيه بل قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى رجلا قائما في الشمس فقال ما هذا قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه ولهذا نهى عن الصمت الدائم بل المشروع ما قاله النبي ﷺ قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه والسكوت عن الشر خير من التكلم به^(١).

ليس كل ما اعتقد فقيه معين أنه حرام كان حراما انما الحرام ما ثبت تحريمه بالكتاب أو السنة

فان الله سبحانه خلق الخلق لعبادته وأمرهم بذلك وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فاني استجاب لذلك فقد بين ﷺ ان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين من أكل الطيبات كما أمرهم بالعمل الصالح والعمل الصالح لا يمكن الا بأكل وشرب ولباس وما يحتاج اليه العبد من مسكن ومركب وسلاح يقاتل به وكراع يقاتل عليه وكتب يتعلم منها وأمثال ذلك مما لا يقوم ما أمر الله به الا به وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فاذا كان القيام بالواجبات فرضا على جميع العباد وهي لا تتم الا بهذه الاموال فكيف يقال أنه قليل بل هو كثير غالب بل هو الغالب على أموال الناس ولو كان الحرام هو الأغلب والدين لا يقوم في الجمهور الا به للزم أحد أمرين اما ترك الواجبات من أكثر الخلق واما اباحة الحرام لأكثر الخلق

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٠٢ ومجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣١١-٣١٥.

وكلاهما باطل والورع من قواعد الدين ففي الصحيح عن عثمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن ترك الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه الا وان لكل ملك حمى ألا وان حمى الله محارمه الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب وفي الحديث الآخر دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ورأى تمرة ساقطة فقال لولا أني أخاف ان تكون من الصدقة لاكلتها وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع وهذا يتبين بذكر أصول أحدها أنه ليس كل ما اعتقد فقيه معين أنه حرام كان حراما انما الحرام ما ثبت تحريمه بالكتاب أو السنة أو الإجماع أو قياس مرجح لذلك وما تنازع فيه العلماء رد إلى هذه الأصول ومن الناس من يكون نشأ على مذهب إمام معين أو استفتى فقيها معيناً أو سمع حكاية عن بعض الشيوخ فيريد أن يحمل المسلمين كلهم على ذلك وهذا غلط^(١).

الإسراف في المباحات من العدوان المحرم وترك فضولها هو من الزهد المباح وأما الامتناع من فعل المباحات مطلقاً فهذا جاهل ضال

ما حرمه الله ورسوله كالحرير فإنه يثاب على تركه كما يعاقب على فعله وثبت عن النبي أنه قال من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وقال عن الحرير والذهب هذا حرام على ذكور أمتي حل لإناثها وأما المباحات فيثاب على ترك فضولها وهو ما لا يحتاج إليه لمصلحة دينه كما ان الإسراف في المباحات منهي عنه كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى عن أصحاب النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾^(٤٥) ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٥-٤٦] وقال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾^(٤٦) ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧] والإسراف في

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣١٤-٣١٦.

وَبَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ١٢٦﴾ ولهذا لا يجوز أن يعان الإنسان بالمباحات على المعاصي مثل من يعطى الخبز واللحم لمن يشرب عليه الخمر ويستعين به على الفواحش ومن حرم الطيبات التي أحلها الله من الطعام واللباس والنكاح وغير ذلك وإعتقد أن ترك ذلك مطلقا هو أفضل من فعله لمن يستعين به على طاعة الله كان معتديا معاقبا على تحريمه ما أحل الله ورسوله وعلى تعبه لله تعالى بالرهبانية ورغبته عن سنة رسول الله وعلى ما فرط فيه من الواجبات وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وكذلك من أسرف في بعض العبادات كسرد الصوم ومداومة قيام الليل حتى يضعفه ذلك عن بعض الواجبات كان مستحقا للعقاب كما قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو إن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزوجك عليك حقا فأت كل ذي حق حقه فاصل الدين فعل الواجبات وترك المحرمات فما تقرب العبد إلى الله بأفضل من أداء ما افترض عليه ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه فالنوافل المستحبة التي لا تمنع الواجبات مما يرفع الله بها الدرجات وترك فضول المباحات وهو ما لا يحتاج إليها لفعل واجب ولا مستحب مع الإيثار بها مما يثيب الله فاعله عليه ومن تركها مجرد البخل لا للتقرب إلى الله لم يكن محمودا ومن امتنع عن نوع من الأنواع التي اباحها الله على وجه التقرب بتركها فهو مخطيء ضال ومن تناول ما اباحه الله من الطعام واللباس مظهرا لنعمة الله مستعينا على طاعة الله كان مثابا على ذلك وقوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أي عن شكر النعيم فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح وإنما يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور وهذه القواعد الجامعة تبين المسائل المذكورة وغيرها^(١).

فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقول والأخلاق والخبائث هي الضارة للعقول والأخلاق

من قال من العلماء أنه حرم على جميع المسلمين ما تستخبثه العرب وأحل لهم ما تستطيعه فجمهور العلماء على خلاف هذا القول كمالك وأبي حنيفة وأحمد وقدماء

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٣٥ - ١٣٧.

أصحابه ولكن الخرقى وطائفة منهم وافقوا الشافعى على هذا القول وأما أحمد نفسه فعامة نصوصه موافقة لقول جمهور العلماء وما كان عليه الصحابة والتابعون أن التحليل والتحرير لا يتعلق باستطابة العرب^(١).

فمن محاسن الشريعة وما فيها من الأمر بمصالح العباد وما ينفعهم من النهي عن مفسادهم وما يضرهم وأن الرسول الذي بعث بها بعث برحمة كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقد وصفه الله تعالى بقول ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧] فأخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهى عما هو منكر ويحل ما هو طيب ويحرم ما هو خبيث ولو كان المعروف لا معنى له إلا المأمور به والمنكر لا معنى له إلا ما حرم لكان هذا كقول القائل يأمرهم بما يأمرهم عما ينهاهم ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم وهذا كلام لا فائدة فيه فضلا عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك وكل نبي بعث فهذه حاله وقد قال تعالى ﴿فِظَلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] فعلم أن الطيب وصف للعين وأن الله قد يجرمها مع ذلك عقوبة للعباد كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بنى إسرائيل ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤] فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه فعلم أن الطيب والخبيث وصف قائم بالأعيان وليس المراد به مجرد التناذ الأكل فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم وما يحميه الطيب منه ولا المراد به إلتناذ طائفة من الأمم كالعرب ولا كون العرب تعودته فإن مجرد كون أمة من الأمم أكله وطاب لها أو كرهته لكونه ليس في بلاده الا يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين ما لم تعتده طباع

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٤.

هؤلاء ولا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه كيف وقد كانت العرب قد اعتادت أكل الدم والميتة وغير ذلك وقد حرمه الله تعالى وقد قيل لبعض العرب ما تأكلون قال ما دب ودرج إلا أم حبين فقال ليهن أم حبين العافية ونفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله وكانوا يعافون مطاعم لم يجرمها الله وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قدم له لحم ضب فرفع يده ولم يأكل فقيل أحرام هو يا رسول الله قال لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجذني أعافه فعلم كراهة قريش وغيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجبا لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب والعجم وأيضا فإن النبي ﷺ وأصحابه لم يجرم احد منهم ما كرهته العرب ولم يبيح كل ما أكلته العرب وقوله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] إخبار عنه أنه سيفعل ذلك فأحل النبي ﷺ الطيبات وحرم الخبائث مثل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فإنها عادية باغية فإذا أكلها الناس والغاذي شبيه بالمغتذي صار في أخلاقهم شوب من أخلاق هذه البهائم وهو البغي والعدوان كما حرم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية وزيادته توجب طغيان هذه القوى وهو مجرى الشيطان من البدن كما قال النبي ﷺ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ولهذا كان شهر رمضان إذا دخل صفتت الشياطين لأن الصوم جنة فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقول والأخلاق والخبائث هي الضارة للعقول والأخلاق كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخلاق فأباح الله للمتقين الطيبات التي يستعينون بها على عبادة ربهم التي خلقوا لها وحرم عليهم الخبائث التي تضرهم في المقصود الذي خلقوا له وأمرهم مع أكلها بالشكر ونهاهم عن تحريمها فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به وإستحق العقوبة ومن حرمها كالرهبان فقد تعدى حدود الله فإستحق العقوبة قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفي حديث آخر الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وقال تعالى ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أي عن شكره فإنه لا يبيح شيئا ويعاقب

من فعله ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه و عما حرمه عليه هل فرط بترك
مأمور أو فعل محذور كما قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]^(١).

الطاعم الشاكر كالصائم الصابر

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر فقال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا
مِن طَيِّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي صحيح مسلم
عن النبي أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة
فيحمده عليها وفي الأثر الطاعم الشاكر كالصائم الصابر رواه ابن ماجه عن النبي وقد
قال تعالى ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] ولما ضاف النبي أبا الهيثم بن التيهان
وجلسوا في الظل وأطعمهم فاكهة ولحما وسقاهم ماء باردا قال هذا من النعيم الذي
تسألون عنه والسؤال عنه لطلب شكره لا لإثم فيه فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه
وعليه أن لا يستعين بطاعته على معصيته فإذا ترك ما وجب عليه في نعمته من حق
واستعان بها على محرم صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا فالعذاب أستحقه
بترك المأمور وفعل المحذور على النعمة التي هي من فعل الله تعالى وإن كان فعله وتركه
بقضاء الله وقدره بعلمه ومشيتته وقدرته وخلقه فأن حقيقة الأمر أنه نعم العبد تنعيما
وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا فقد اجتمع في حقه تنعيم وتعذيب ولكن التعذيب
إنما كان بسبب معصيته حيث لم يؤد حق النعمة ولم يتق الله فيها^(٢).

فمن حرم الطيبات عليه وامتنع من أكلها بدون سبب شرعي فهو مذموم
مبتدع

ثم انه مما أوقع هؤلاء (الصوفية) في هذا الغلط انهم وجدوا كثيرا من الناس لا
يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار من جهة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٧٨ - ١٨١.

(٢) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٦٣ - ١٦٥.

كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا بل من جهة كون النفس تطلب ذلك فأروا ان من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وان لا يكون لأحدهم ارادة اصلا بل يكون مطلوبه الجريان تحت القد كائنا من كان وهذا هو الذي ادخل كثيرا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة حتى تركوا من الاكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون اليه وما لا تتم مصلحة دينهم الا به فانهم رأوا العامة تعد هذه الامور عبادة بحكم الطبع والهوى والعادة ومعلوم ان الافعال التي تقع على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قرينة فرأى أولئك ان الطريق إلى الله ترك هذه الامور لأنها من الطبيعيات والعادات فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق إلى الله طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الامور المحتاج اليها على غير وجه العبادة والقربة إلى الله وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الافعال بل المشروع ان تفعل بنية التقرب إلى الله وان يشكر الله قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] فأمر بالأكل والشكر فمن أكل ولم يشكر كان مذموما ومن لم يأكل لم يشكر كان مذموما وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال ان الله ليرضى عن العبد ان يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال النبي ﷺ لسعد انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك وفي الصحيح ايضا انه اذا انفق الرجل على اهله يحتسبها فهو له صدقه^(١).

الاستعانة بجنس اللذات على جنس الطاعات مما جاءت به الشريعة
ينكر على من يتقرب إلى الله بترك جنس اللذات كما قال ﷺ للذين قال احدهم أما أنا فأصوم لا أفطر وقال الآخر أما أنا فأقوم لا أنام وقال الآخر أما أنا فلا اتزوج النساء وقال الآخر أما أنا فلا أكل اللحم فقال النبي ﷺ لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام

(١) الاستقامة ج: ٢ ص: ١٣٥-١٣٦ والزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٤٦ ومجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٢١٢.

وأ تزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني فإن الاستعانة بجنس اللذات على جنس الطاعات مما جاءت به الشريعة كما يستعان بالأكل والشرب على العبادات قال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وفي الحديث المتفق عليه قوله عليه السلام لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك وقال في بضع أحدكم أهله صدقة وكذلك حمده في النعم كما في الحديث الصحيح إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها وإن الله خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحنا فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به فإن ذلك في نفسه نعمة وبه يحصل بقاء جسمنا في الدنيا وكذلك شهوة النكاح واللذة به هو في نفسه وربّه يحصل بقاء النسل فإذا استعين بهذه القوى على ما أمرنا كان ذلك سعادة لنا في الدنيا والآخرة وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمة مطلقة وإن استعملنا الشهوات فيما حظره علينا بأكل الخبائث في نفسها أو كسبها كالمظالم أو بالإسراف فيها أو تعدينا أزواجنا أو ما ملكت أيماننا كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته^(١).

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]

لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله

(١) الاستقامة ج: ١ ص: ٣٤١-٣٤٢ .

وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا^(١).

أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة أن تكون حلالا مطلقا للآدميين فاعلم أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حلالا مطلقا للآدميين وأن تكون طاهرة لا يجرم عليهم ملاستها ومباشرتها ومماسستها ودل على ذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] والخطاب لجميع الناس لافتتاح الكلام بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ووجه الدلالة أنه أخبر أنه خلق جميع ما في الأرض للناس مضافا إليهم باللام واللام حرف الإضافة وهي توجب اختصاص المضاف بالمضاف إليه واستحقاقه إياه من الوجه الذي يصلح له وهذا المعنى يعم موارد استعمالها كقولهم المال لزيد والسرغ للدابة وما أشبه ذلك فيجب إذا أن يكون الناس مملكين ممكنين لجميع ما في الأرض فضلا من الله ونعمة وخص من ذلك بعض الأشياء وهي الخبائث لما فيها من الإفساد لهم في معاشهم أو معادهم فيبقى الباقي مباحا بموجب الآية وقوله تعالى ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية فما لم يجد تحريمه ليس بمحرم وما لم يجرم فهو حل ومثل هذه الآية قوله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية لأن حرف إنما يوجب حصر الأول في الثاني فيجب انحصار المحرمات فيما ذكر وقد دل الكتاب على هذا الأصل المحيط في مواضع آخر^(٢).

ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفي تحريمها في الزمن الأول وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاة ولكن يظهر الدين إذا أوجب شيئا ثم نسخ إيجابه كما نسخ

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣١.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١١٨ ومجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٤١.

إيجاب الصدقة بين يدي النجوى ففي مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للإقرار بالدين^(١).

ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]

قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾

[النساء: ٢٨] وفي الصحيحين إنما بعثتم ميسرين يسروا ولا تعسروا ليعلم اليهود أن في

ديننا سعة فكل ما لا يتم المعاش إلا به فتحريمه حرج وهو منتف شرعا ومن استقرأ

الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك

واجب أو فعل محرم لم يجرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد وإن

كان سببه معصية كالمسافر سفر معصية اضطر فيه إلى الميتة والمنفق للمال في المعاصي

حتى لزمته الديون فانه يؤمر بالتوبة ويباح له ما يزيل ضرورته فتباح له الميتة ويقضى عنه

دينه من الزكاة وإن لم يتب فهو الظالم لنفسه المحتال وحاله كحال الذين قال الله فيهم ﴿إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبَّتِهِمْ شَرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وقوله ﴿فِي ظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ

لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] الآية وهذه قاعدة عظيمة ربما ننبه إن شاء

الله عليها^(٢).

فالضرورة بسبب محذور لا تستباح بها المحرمات بخلاف الضرورة التي هي بسبب

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٤١ (الرجوع اليه يبدو فيه نقص بالموضوع).

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٦٤-٦٥.

غير محظور^(١).

وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة والوسع والطاقة

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحبا وزيادة ونهى عن أفعال محرمة أو مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالا هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة والوسع والطاقة فقال تعالى ﴿فَأَقْوَ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما في النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانية الاعطاء الواجب وقال ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١] وقد ذكر في الصيام والاحرام والطهارة والصلاة والجهاد من هذا أنواعا وقال في المنهيات ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]^(٢).

فلم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد

سائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك كل ذلك واجب مع القدرة فاما مع العجز فان الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولهذا أمر الله المصلي ان يتطهر بالماء فان عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك تيمم صعيدا طيبا فمسح بوجهه ويديه منه وقال النبي لعمران بن حصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب فقد أوجب الله فعل الصلاة في الوقت على أى حال أمكن كما قال

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٤٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠.

تعالى ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٣٨-٢٣٩]

فأوجب الله الصلاة على الآمن والخائف والصحيح والمريض والغنى والفقير والمقيم والمسافر وحفظها على المسافر والخائف والمريض كما جاء به الكتاب والسنة وكذلك أوجب فيها واجبات من الطهارة والستارة واستقبال القبلة وأسقط ما يعجز عنه العبد من ذلك فلوا انكسرت سفينة قوم أو سلبهم المحاربون ثيابهم صلوا عراة بحسب أحوالهم وقام إمامهم وسطهم لئلا يرى الباقون عورته ولو اشتبهت عليهم القبلة اجتهدوا في الاستدلال عليها فلو عميت الدلائل صلوا كيفما أمكنهم كما قد روى أنهم فعلوا ذلك فهكذا الجهاد والولايات وسائر أمور الدين وذلك كله في قوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِعُ فِي الدِّينِ شَيْئًا سَلْبَةً وَلَا أَسْطَعْمُ﴾ [التغابن: ١٦] وفي قول النبي إذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم كما ان الله تعالى لما حرم المطاعم الخبيثة قال ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]

وقال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] فلم يوجب مالا يستطاع ولم يجرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد^(١).

الباغي الذي يبغى المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال والعاذي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه

قال تعالى ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقد ذهب طائفة من المفسرين إلى أن الباغي هو الباغي على الإمام الذي يجوز قتاله والعاذي هو العاذي على المسلمين وهم المحاربون قطاع الطريق قالوا فإذا ثبت أن الميتة لا تحل لهم فسائر الرخص أولى وقالوا اذا اضطر العاصي بسفره أمرناه أن يتوب ويأكل ولا تبيح له اتلاف نفسه وهذا القول معروف عن أصحاب الشافعي وأحمد وأما أحمد ومالك فجوزا له أكل

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٩٠.

الميتة دون القصر والفطر قالوا ولأن السفر المحرم معصية والرخص للمسافر إعانة على ذلك فلا تجوز الإعانة على المعصية وهذه حجج ضعيفة أما الآية فأكثر المفسرين قالوا المراد بالباغي الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه وهذا التفسير هو الصواب دون الأول لأن الله أنزل هذا في السور المكية الأنعام والنحل وفي المدينة ليبين ما يحل وما يحرم من الاكل والضرورة لا تختص بسفر ولو كانت في سفر فليس السفر المحرم مختصا بقطع الطريق والخروج على إمام ولم يكن على عهد النبي ﷺ امام يخرج عليه ولا من شرط الخارج أن يكون مسافرا والبغاة الذين أمر الله بقتلهم في القرآن لا يشترط فيهم أن يكونوا مسافرين ولا كان الذين نزلت الآية فيهم أولا مسافرين بل كانوا من أهل العوالي مقيمين واقتتلوا بالنعال والجريد فكيف يجوز أن تفسر الآية بما لا يختص بالسفر وليس فيها كل سفر محرم فالمذكور في الآية لو كان كما قيل لم يكن مطابقا للسفر المحرم فانه قد يكون بلا سفر وقد يكون السفر المحرم بدونه وأيضا فقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] حال من ﴿أَصْطَرَّ﴾ [البقرة: ١٧٣] فيجب أن يكون حالا اضطاره وأكله الذي يأكل فيه غير باغ ولا عاد فإنه قال ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ومعلوم أن الإثم انما ينفي عن الأكل الذي هو الفعل لا عن نفس الحاجة اليه فمعنى الآية فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد وهذا يبين ان المقصود أنه لا يبغى في أكله ولا يتعدى والله تعالى يقرن بين البغي والعدوان فالبغي ما جنسه ظلم والعدوان مجاوزة القدر المباح كما قرن بين الاثم والعدوان في قوله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدُّونَ﴾ [المائدة: ٢] فالإثم جنس الشر والعدوان مجاوزة القدر المباح فالبغي من جنس الإثم قال تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢] فإثم جنس لظلم الورثة إذا كان مع العمد وأما الجنف فهو الجنف عليهم بعمد وبغير عمد لكن قال كثير من المفسرين الجنف الخطأ والإثم العمد لأنه لما خص الإثم بالذكر وهو العمد بقى الداخل في الجنف الخطأ ولفظ العدوان من

باب تعدى الحدود كما قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ونحو ذلك ومما يشبه هذا قوله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] والإسراف مجاوزة الحد المباح وأما الذنوب فما كان جنسه شر وإثم^(١).

ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسدوا وقاربوا ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته ووطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع وابعح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما استطاع وكذلك فإن النبي ﷺ قال في حديث اخر انكم لن تحصوا أو تستطيعوا كل ما امرتكم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسدوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] فهذا في تحريم المطاعم قد رفع الاثم عن اضطر غير باغ ولا عاد^(٢).

فلا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه

انه قد يقترن بالحسنات سيئات اما مغفورة أو غير مغفورة وقد يتعذر أو يتعسر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١١١-١١٢.

(٢) الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١٦-٣١٧.

على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة الا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علما وعملا فاذا لم يحصل النور الصافي بان لم يوجد الا النور الذي ليس بصاف والا بقى الإنسان في الظلمة فلا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه والا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية اذا خرج غيره عن ذلك لما رآه في طرق الناس من الظلمة وانما قررت هذه القاعدة ليحمل ذم السلف والعلماء للشيء على موضعه ويعرف ان العدول عن كمال خلافه النبوة المأمور به شرعا تارة يكون لتقصير الحسنات علما وعملا وتارة بعدوان بفعل السيئات علما وعملا وكل من الامرين قد يكون عن غلبة وقد يكون مع قدرة فالأول قد يكون لعجز وقصور وقد يكون مع قدرة وامكان والثاني قد يكون مع حاجة وضرورة وقد يكون مع غنى وسعة وكل واحد من العاجز عن كمال الحسنات والمضطر إلى بعض السيئات معذور فان الله يقول ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وقال النبي اذ امرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم وقال سبحانه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وقال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال ﴿غَيْرِ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقال ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] وهذا اصل عظيم وهو ان تعرف الحسنة في نفسها علما وعملا سواء كانت واجبة أو مستحبة وتعرف السيئة في نفسها علما وقولا وعملا محظورة كانت أو غير محظورة ان سميت غير المحظورة سيئة وان الدين تحصيل الحسنات والمصالح وتعطيل السيئات والمفاسد وانه كثيرا ما يجتمع في الفعل الواحد أو في الشخص الواحد الأمران فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه إلى ما تضمنه احدهما فلا يغفل عما فيه من النوع الاخر كما يتوجه المدح والأمر والثواب إلى ما

تضمنه احدهما فلا يغفل عما فيه من النوع الاخر وقد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية والفجورية لكن قد يسلب مع ذلك ما حمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية فهذا طريق الموازنة والمعادلة ومن سلكه كان قائما بالقسط الذي انزل الله له الكتاب والميزان^(١).

المحرمات نوعان

أن المحرمات نوعان محرم لوصفه ومحرم لكسبه فالمحرم لكسبه كالظلم والربا والميسر والمحرم لوصفه كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والأول أشد تحريما والتورع فيه مشهور ولها كان السلف يحتززون في الأطعمة والثياب من الشبهات الناشئة من المكاسب الخبيثة وأما الثانى فانما حرم لما فيه من وصف الخبث وقد أباح الله لنا طعام أهل الكتاب مع إمكان أن لا يذكوه التذكية الشرعية أو يسموا عليه غير الله وإذا علمنا أنهم سموا عليه غير الله حرم ذلك في أصح قولى العلماء وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة أن النبي ﷺ سئل عن قوم يأتون باللحم ولا يدرى أسموا عليه أم لا فقال سموا أنتم وكلوا^(٢).

مسائل فقهية

١- من اضطر إلى الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار

أن الأكل عند الضرورة واجب قال مسروق من اضطر إلى الميتة فلم يأكل فمات دخل النار^(٣).

فان الخبائث جميعا تباح للمضطر فله أن يأكل عند الضرورة الميتة والدم ولحم الخنزير وله أن يشرب عند الضرورة ما يرويه كالمياه النجسة والأبوال التي ترويه وإنما منعه أكثر الفقهاء عن شرب الخمر قالوا لأنها تزيد عطشا وأما التوضؤ بماء الولوج فلا يجوز عند جماهير العلماء بل يعدل عنه إلى التيمم ويجب على المضطر أن يأكل ويشرب ما

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٦٤-٣٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٦.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٦٣.

يقيم به نفسه فمن اضطر إلى الميتة أو الماء النجس فلم يشرب ولم يأكل حتى مات دخل النار ولو وجد غيره مضطرا إلى ما معه من الماء الطيب أو النجس فعليه أن يسقيه إياه ويعدل إلى التيمم سواء كان عليه جنابة أو حدث صغير ومن اغتسل وتوضأ وهناك مضطر من أهل الملة أو الذمة أو دوابهم المعصومة فلم يسقه كان آثما عاصيا والله أعلم^(١).

٢- فان تحريم الشيء مطلقا يقتضي تحريم كل جزء منه كما أن تحريم الخنزير والميتة والدم اقتضى ذلك^(٢).

٣- عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافر ونحوه وشعرها وريشها ووبرها.

أما عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافر ونحوه وشعرها وريشها ووبرها ففي هذين النوعين للعلماء ثلاثة أقوال أحدها نجاسة الجميع كقول الشافعي في المشهور عنه وذلك رواية عن أحمد والثاني أن العظام ونحوها نجسة والشعور ونحوها طاهرة وهذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد والثالث أن الجميع طاهر كقول أبي حنيفة وهو قول في مذهب مالك وأحمد وهذا القول هو الصواب وذلك لأن الأصل فيها الطهارة ولا دليل على النجاسة وأيضا فان هذه الأعيان هي من الطيبات ليست من الخبائث فتدخل في آية التحليل وذلك لأنها لم تدخل فيما حرمه الله من الخبائث لا لفظا ولا معنى فان الله تعالى حرم الميتة وهذه الأعيان لا تدخل فيما حرمه الله لا لفظا ولا معنى أما اللفظ فلان قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] لا يدخل فيها الشعور وما أشبهها وذلك لأن الميت ضد الحي والحياة نوعان حياة الحيوان وحياة النبات فحياة الحيوان خاصتها الحس والحركة الإرادية وحياة النبات خاصتها النمو والاعتناء وقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] إنما هو بما فارقت الحياة الحيوانية دون النباتية فإن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٧٩ ومجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٧٦ ومجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٨٥.

الشجر والزرع إذا يبس لم ينجس باتفاق المسلمين وقد قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥] وقال ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] فموت الأرض لا يوجب نجاستها باتفاق المسلمين وإنما الميتة المحرمة ما فارقها الحس والحركة الارادية وإذا كان كذلك فالشعر حياته من جنس حياة النبات لا من جنس حياة الحيوان فانه ينمو ويغتذى ويطول كالزرع وليس فيه حس ولا يتحرك بارادته فلا تحله الحياة الحيوانية حتى يموت بمفارقتها فلا وجه لتنجيسه وايضا فلو كان الشعر جزءا من الحيوان لما ابيح أخذه في حال الحياة فان النبي سئل عن قوم يحبون أسنمة الابل وأليات الغنم فقال ما أبين من البهيمة وهي حية فهو ميت رواه أبو داود وغيره وهذا متفق عليه بين العلماء فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة ولا كان طاهرا حلالا فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذا جز من الحيوان كان طاهرا حلالا علم أنه ليس مثل اللحم وايضا فقد ثبت أن النبي أعطى شعره لما حلق رأسه للمسلمين وكان يستنجي ويستجمر فمن سوى بين الشعر والبول والعدرة فقد أخطأ خطأ بينا وأما العظام ونحوها فاذا قيل إنها داخله في الميتة لأنها تحس وتألم قيل لمن قال ذلك أنتم لم تأخذوا بعموم اللفظ فان ما لا نفس له سائلة كالذباب والعقرب والخنفساء لا ينجس عندكم وعند جمهور العلماء مع أنها ميتة موتا حيوانيا وقد ثبت في الصحيح أن النبي قال إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء ومن نجس هذا قال في أحد القولين إنه لا ينجس المائعات الواقع فيها لهذا الحديث وإذا كان كذلك علم أن علة نجاسة الميتة إنما هو إحتباس الدم فيها فما لا نفس له سائلة ليس فيه دم سائل فاذا مات لم يمتس فيه الدم فلا ينجس فالعظم ونحوه أولى بعدم التنجيس من هذا فان العظم ليس فيه دم سائل ولا كان متحركا بالارادة إلا على وجه التبع فاذا كان الحيوان الكامل الحساس المتحرك بالارادة لا ينجس لكونه ليس فيه دم سائل فكيف ينجس العظم الذي ليس فيه دم سائل ومما يبين صحة قول الجمهور أن الله سبحانه إنما حرم علينا الدم المسفوح كما قال تعالى ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] فاذا عفي

عن الدم غير المسفوح مع أنه من جنس الدم علم أنه سبحانه فرق بين الدم الذي يسيل وبين غيره ولهذا كان المسلمون يضعون اللحم في المرق وخطوط الدم في القدور بين ويأكلون ذلك على عهد رسول الله كما أخبرت بذلك عائشة ولولا هذا لاستخرجوا الدم من العروق كما يفعل اليهود والله تعالى حرم ما مات حتف انفه أو بسبب غير جارح محدد فحرم المنخفة والموقوذة والمتردية والنطيحة وحرم النبي ما صيد بعرض المعراض وقال إنه وقيد دون ما صيد بجده والفرق بينهما إنما هو سفح الدم فدل على أن سبب التنجيس هو احتقان الدم واحتباسه وإذا سفح بوجه خبيث بأن يذكر عليه غير اسم الله كان الخبث هنا من جهة أخرى فإن التحريم يكون تارة لوجود الدم وتارة لفساد التذكية كذكاة المجوسي والمرتد والذكاة في غير المحلل المحل وإذا كان كذلك فالعظم والقرن والظفر والظلف وغير ذلك ليس فيه دم مسفوح فلا وجه لتنجيسه وهذا قول جمهور السلف قال الزهري كان خيار هذه الأمة يمتشطون بأمشاط من عظام الفيل وقد روي في العاج حديث معروف لكن فيه نظر ليس هذا موضعه فانا لا نحتاج إلى الاستدلال بذلك وايضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال في شاة ميمونة هلا أخذتم إهابها فانتفعتم به قالوا انها ميتة قال إنما حرم أكلها وليس في صحيح البخاري ذكر الدباغ ولم يذكره عامة أصحاب الزهري عنه ولكن ذكره ابن عيينة ورواه مسلم في صحيحه وقد طعن الامام أحمد في ذلك وأشار إلى غلط ابن عيينة فيه وذكر أن الزهري وغيره كانوا يبيحون الانتفاع بجلود الميتة بلا دباغ لاجل هذا الحديث وحينئذ فهذا النص يقتضي جواز الانتفاع بها بعد الدبغ بطريق الأولى لكن إذا قيل إن الله حرم بعد ذلك الانتفاع بالجلود حتى تدبغ أو قيل إنها لا تطهر بالدباغ لم يلزم تحريم العظام ونحوها لأن الجلد جزء من الميتة فيه الدم كما في سائر أجزائها والنبي جعل دباغه ذكاته لأن الدباغ ينشف رطوباته فدل على أن سبب التنجيس هو الرطوبات والعظم ليس فيه رطوبة سائلة وما كان فيه منها فانه يجف ويبس وهو يبقى ويحفظ أكثر من الجلد فهو أولى بالطهارة من الجلد والعلماء تنازعوا في الدباغ هل يطهر فذهب مالك وأحمد في المشهور عنهما أنه لا يطهر ومذهب ابي حنيفة والشافعي والجمهور أنه يطهر وإلى هذا القول رجع أحمد كما ذكر ذلك عنه الترمذي عن أحمد بن الحسن الترمذي عنه وحديث ابن عكيم يدل على ان النبي نهاهم أن ينتفعوا من

الميتة باهاب أو عصب بعد أن كان أذن لهم في ذلك لكن هذا قد يكون قبل الدباغ فيكون قد أرخص فان حديث الزهري الصحيح يبين أنه كان قد رخص في جلود الميتة قبل الدباغ فيكون قد أرخص لهم في ذلك ثم لما نهى عن الانتفاع بها قبل الدباغ نهاهم عن ذلك ولهذا قال طائفة من أهل اللغة ان الاهداب اسم لما لم يدبغ ولهذا قرن معه العصب والعصب لا يدبغ^(١).

٤ - لبن الميتة وانضحتها

ففيه قولان مشهوران للعلماء أحدهما أن ذلك طاهر كقول أبي حنيفة وغيره وهو إحدى الروايتين عن أحمد والثاني أنه نجس كقول مالك والشافعي والرواية الأخرى عن أحمد وعلى هذا النزاع انبنى نزاعهم في جبن المجوس فان ذبائح المجوس حرام عند جماهير السلف والخلف وقد قيل إن ذلك مجمع عليه بين الصحابة فاذا صنعوا جبنا والجبن يصنع بالأنفحة كان فيه هذان القولان والأظهر أن جبنهم حلال وان أنفحة الميتة ولبنها طاهر وذلك لأن الصحابة لما فتحوا بلاد العراق أكلوا جبن المجوس وكان هذا ظاهرا شائعا بينهم وما ينقل عن بعضهم من كراهة ذلك ففيه نظر فانه من نقل بعض الحجازيين وفيه نظر وأهل العراق كانوا أعلم بهذا فان المجوس كانوا ببلادهم ولم يكونوا بأرض الحجاز ويدل على ذلك ان سلمان الفارسي كان هو نائب عمر بن الخطاب على المدائن وكان يدعو الفرس إلى الإسلام وقد ثبت عنه أنه سئل عن شيء من السمن والجبين والفراء فقال الحلال ما احل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفي عنه وقد رواه أبو داود مرفوعا إلى النبي ومعلوم أنه لم يكن السؤال عن جبن المسلمين وأهل الكتاب فان هذا امرين وإنما كان السؤال عن جبن المجوس فدل ذلك على ان سلمان كان يفتي بجلها وإذا كان روى ذلك عن النبي انقطع النزاع بقول النبي وأيضا فاللبن والأنفحة لم يموتا وإنما نجسهما من نجسهما لكونهما في وعاء نجس فيكون مائعا في وعاء نجس فالتنجيس مبني على مقدمتين على ان المائع لاقى وعاء نجسا وعلى أنه إذا كان كذلك صار نجسا فيقال أولا لا نسلم ان المائع ينجس بملاقاة النجاسة وقد تقدم ان السنة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٩٨ - ١٠٤.

دلت على طهارته لا على نجاسته ويقال ثانيا إن الملاقاة في الباطن لا حكم لها كما قال تعالى ﴿سُقِّكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِيبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] ولهذا يجوز حمل الصبي الصغير في الصلاة مع ما في بطنه والله أعلم.

٥- قال مسروق من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار فإن الناس قد تنازعوا في التداوي هل هو مباح أو مستحب أو واجب والتحقيق أن منه ما هو محرم ومنه ما هو مكروه ومنه ما هو مباح ومنه ما هو مستحب وقد يكون منه ما هو واجب وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره كما يجب أكل الميتة عند الضرورة فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء وقد قال مسروق من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار فقد يحصل أحيانا للإنسان إذا إستحضر المرض ما إن لم يتعالج معه مات والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكإستخراج الدم أحيانا^(١).

٦- وكل ميتة نجسة

وكل ميتة نجسة إلا الأدمي أما نجاسة الحيوان بالموت في الجملة فإجماع وقد دل على ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣] وذلك يعم أكلها والانتفاع بها وغير ذلك لما روى جابر بن عبد الله انه سمع النبي ﷺ يقول إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه رواه الجماعة والكلام في فصلين في أجزاء الميتة وفي اجناسها أما أجزاءها فاللحم نجس وكذلك الجلد وقد تقدم القول في العظم والشعر وأما ما لا يموت بموتها كالبيض واللبن فإنه لا ينجس بالموت لكن هل ينجس بنجاسة وعائه أما البيض فإذا كان قد تصلب قشره فهو طاهر مباح لانه لا يصل اليه شيء من النجاسة كما لو غمس في ماء نجس وكما لو طبخ في خمر أو ماء نجس وكذلك لو سلقه في ماء ملح أو مر لم يتغير طعمه وقال ابن

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٢.

عقيل هو طاهر مباح وان لم يتصلب لان جمودها وغشائها الذي هو كالجلد مع لينة يمنع نفوذ النجاسة اليها كما لو وقعت في مائع نجس والمشهور انها تتنجس إذا لم تتصلب لانها في النمر والحاجز غير حصين فلا ينفك غالبا من ان يشرب اجزاء عقيب الموت قبل ذهاب حرارة الحياة واما اللبن والإنفحة فطاهر في احدى الروايتين لان الصحابة فتحوا بلاد المجوس وأكلوا من جنبهم مع علمهم بنجاسة ذبائحهم وأن الجبن إنما يصنع بالإنفحة وان اللبن لم ينجس بالموت إذا لا حياة فيه ولا بملاقاة وعائه لان الملاقاة في الباطن لا حكم لها اذ الحكم بالتنجيس إنما يتسلط على الاجسام الظاهرة ولذلك لم ينجس المني والنجاسة تخرج من مخرج المني وعلى هذه الرواية فجلد الإنفحة نجس كجلد الضرع وإنما الكلام فيما فيهما والرواية الاخرى هما نجس وهي المنصورة ولأنه مائع في وعاء نجس فأشبهه ما لو أعيد في الضرع بعد الحلب أو حلبت في اناء نجس وما عللوا به ينتقض بالمخ في العظم فانه نجس وأما المني والنجاسة فميز له اللبن الخارج في الحياة لانه لو نجس ما خلق طاهرا في الباطن بما يلاقه لنجس ابدا بخلاف ما بعد الموت فإنه خروجه نادر كما لو خرج المني والنجاسة بعد الموت وما ذكر عن الصحابة لا يصح لانهم وإن اكلوا من جبن بلاد فارس فلانة كان بينهم يهود ونصارى يذبحون لهم فحينئذ لا تتحقق نجاسة الجبن ولهذا كتب ابو موسى الاشعري إلى عمر يذكر ان المجوس لما رأوا أن المسلمين لا يشترون جنبهم وإنما يشترون جبن اهل الكتاب عمد المجوس وصلبوا على الجبن كما يصلب اهل الكتاب ليشتري جنبهم فكتب اليه عمر ما تبين لكم انه من صنعتهم فلا تأكلوه وما لم يتبين لكم فكلوه ولا تحرموا على انفسكم ما أحل الله لكم رواه عبد الملك بن حبيب وقال قد تورع عمرو بن مسعود وابن عباس في خاصة انفسهم من اكل الجبن الا ما ايقنوا انه من جبن المسلمين أو اهل الكتاب خيفة ان يكون من جبن المجوس وقيل لابن عمر انا نخاف ان يجبن الجبن بإنفحة الميتة فقال ما علمت انه ميتة فلا تأكل وأما اجناس الميت فكل ميت نجس الا ما يباح اكله ميتا وما ليس له دم سائل وما حرم لشرفه وقد استثناه الشيخ رحمه الله كذلك لعموم الآية والقياس سواء كان طاهرا في الحياة أو نجسا لكن يبقى نجسا لسببين كما حرم السببين أما الإنسان فلا ينجس في ظاهر المذهب وعنه رواية اخرى ينجس لعموم الآية ووقع زنجي في بئر زمزم فمات فأمر ابن عباس بها

تنزح رواه الدارقطني ولانه ذو نفس سائلة لا تباح ميتته فنجس بالموت كالشاة والأول اصح لان النبي ﷺ قال المؤمن لا ينجس متفق عليه وفي لفظ الدارقطني المؤمن لا ينجس حيا ولا ميتا وروى الدارقطني ايضا عن النبي ﷺ ليس عليكم في ميتكم غسل إذا غسلتموه فإنه ليس بنجس ولان ذلك منقول عن ابن مسعود وابن عباس وعائشة في قضايا متعددة ولم يعرف لهم مخالف ولانه آدمي مسلم فلم ينجس بالموت كالشهيد فإنه مسلم على القولين ولانه لو نجس لم يطهر بالغسل ولان الموجب لطهارته شرفه وكذلك لا حيا ولا ميتا وان قلنا ينجس بالموت بحسب اعضائه بالانفصال كسائر الحيوان فاما الشعر فهو طاهر في اصح الروايتين لانه ليس بمحل للحياة وفي رواية اخرى انه نجس بناء على انه من الجملة كاليد سواء جز أو تساقط بخلاف شعر المأكول فإنه لما احتيج اليه كان جزء كتذكية وهذا ضعيف كما سبق ويطهر بالغسل في اصح الروايتين ولا ينجس الشهيد كما لا ينجس دمه وان قلنا لا ينجس بالموت فكذلك اعضاؤه على الاصح وقيل تنجس وان لم ينجس في الجملة لان الحرمة انما تثبت لها اذا كانت تابعة وهو ضعيف لان حرمة الاعضاء كحرمة الجملة وهذا يختص بالمسلم واما الكافر فينجس على الروايتين لان المقتني للطهارة من الاثر والقياس مفقود فيه وسبب التنجيس موجود فعمل عمله وعموم كلام بعض أصحابنا يقتضي التسوية كما في الحياة^(١).

٧- كره مالك أكل ما ذبح النصارى لكنائسهم ونهى عنه من غير تحريم

قال عبد الملك بن حبيب بن الواضحة كره مالك أكل ما ذبح النصارى لكنائسهم ونهى عنه من غير تحريم وقال وكذلك ما ذبحوا على اسم المسيح والصليب أو أسماء من مضى من أحبارهم ورهبانهم الذين يعظمون فقد كان مالك وغيره ممن يقتدي به يكره أكل هذا كله من ذبائحهم وبه نأخذ وهو يضاهي قول الله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِنَعْرِ اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٧٣] وهي ذبائحهم التي كانوا يذبحون لأصنامهم التي كانوا يعبدون قال وقد كان رجال من العلماء يستخفون ذلك ويقولون قد أحل الله لنا ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون وما يريدون بها روى ذلك ابن وهب عن ابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء

(١) شرح العمدة ج: ١ ص: ١٢٨-١٣٣.

وسلمان بن يسار وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد ومكحول وعطاء وقال عبد الملك وترك ما ذبح لأعيادهم وأقستهم وموتاهم وكنائسهم أفضل قال وإن فيه عيبا آخر أن كله من تعظيم شركهم ولقد سأل سعيد المعافري مالكا عن الطعام الذي تصنعه النصارى لموتاهم يتصدقون به عنهم يأكل منه المسلم فقال لا ينبغي أن يأخذه منهم لأنه إنما يعمل تعظيما للشرك فهو كالذبح للأعياد والكنائس^(١).

قال الخلال في باب التوقي لأكل ما ذبحت النصارى وأهل الكتاب لأعيادهم وذبائح أهل الكتاب لكنائسهم كل من روى عن أبي عبد الله روى الكراهة فيه وهي متفرقة في هذه الأبواب وما قاله حنبل في هاتين المسألتين ذكر عن أبي عبد الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وما أهل لغير الله به وأهل التسمية وتركها فقد روى عنه جميع أصحابه أنه لا بأس بأكل ما لم يسموا عليه إلا في وقت ما يذبحون لأعيادهم وكنائسهم فإنه في معنى قوله تعالى ﴿وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣] وعند أبي عبد الله أن تفسير ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] إنما عني به الميتة وقد أخرجته في موضع هو مقصود الخلال أن نهى أحمد لم يكن لأجل ترك التسمية فقط فإن ذلك عنده لا يجرم وإنما كان لأنهم ذبحوه لغير الله سواء كانوا يسمون غير الله أو لا يسمون الله ولا غيره ولكن قصدهم الذبح لغير الله لكن قال ابن أبي موسى ويحتمل أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ولا يؤكل ما ذبح للزهرة والرواية الثانية أن ذلك مكروه غير محرم وهذا الذي ذكره القاضي وغيره وأخذوا ذلك فيما أظنه مما نقله عبد الله بن أحمد قال سألت أبي عمير عن ذبح للزهرة قال لا يعجبني قلت أحرام أكله قال لا أقول حراما ولكن لا يعجبني وذلك أنه أثبت الكراهة دون التحريم ويمكن أن يقال إنما توقف عن تسميته محرما لأن ما اختلف في تحريمه وتعارضت فيه كالجمع بين الأختين ونحوه هل يسمى حراما على روايتين كالروايتين عنده في أن ما اختلف في وجوبه هل يسمى فرضا على روايتين ومن أصحابنا من أطلق

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٣٠.

الكراهة ولم يفسر هل أراد التحريم أو التنزيه قال أبو الحسن الأمدي ما ذبح لغير الله مثل الكنائس والزهرة والشمس والقمر فقال أحمد هو مما أهل به لغير الله أكرهه كل ما ذبح لغير الله والكنائس وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه فأما ما ذبح أهل الكتاب على معنى الذكاة فلا بأس به وكذلك مذهب مالك يكره ما ذبحه النصارى لكنائسهم أو ذبحوا على اسم المسيح أو الصليب أو أسماء من مضى من أحبارهم ورهبانهم وفي المدونة وكره مالك أكل ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم أو لأعيادهم من غير تحريم وتأول قول الله أو فسقا أهل لغير الله به قال ابن القاسم وكذلك ما ذبحوا وسموا عليه اسم المسيح وهو بمنزلة ما ذبحوا لكنائسهم ولا أرى أن يؤكل ونقلت الرخصة في ذبائح الأعياد ونحوها عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم وهذا فيما لم يسموا عليه غير الله فإن سموا غير الله في عيدهم أو غير عيدهم حرم في أشهر الروايتين وهو مذهب الجمهور وهو مذهب الفقهاء الثلاثة فيما نقله غير واحد وهو قول علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة منهم أبو الدرداء وأبو أمامة والعرباض بن سارية وعبادة بن الصامت وهو قول أكثر فقهاء الشام وغيرهم والثانية لا يحرم وإن سموا غير الله وهو قول عطاء ومجاهد ومكحول والأوزاعي ووجه الاختلاف أن هذا قد دخل في عموم قوله عز وجل ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وفي عموم قوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] لأن هذه الآية تعم كل ما نطق به لغير الله يقال أهللت بكذا إذا تكلمت به وإن كان أصله الكلام الرفيع فإن الحكم لا يختلف برفع الصوت وخفضه وإنما لما كانت عاداتهم رفع الصوت في الأصل خرج الكلام على ذلك فيكون المعنى وما تكلم به لغير الله وما نطق به لغير الله ومعلوم أن ما حرم أن تجعل غير الله مسمى فكذلك منويا إذ هذا مثل النيات في العبادات فإن اللفظ بها وإن كان أبلغ لكن الأصل القصد الا ترى أن المتقرب بالهدايا والضحايا سواء قال أذبحه لله أو سكت فإن العبرة بالنية وتسميته الله على الذبيحة غير ذبحها لله فإنه يسمى على ما يقصد به اللحم وأما قربان فيذبح لله سبحانه ولهذا قال النبي ﷺ في قربانه اللهم منك ولك بعد قوله بسم الله والله أكبر لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] والكافرون يصنعون

بأهتهم كذلك فتارة يسمون آهتهم على الذبائح وتارة يذبحونها قربانا إليهم وتارة يجمعون بينهما وكل ذلك والله أعلم يدخل فيما أهل لغير الله به فإن من سمى غير الله فقد أهل به لغير الله فقوله باسم كذا استعانة به وقوله لكذا عبادة له ولهذا جمع الله بينهما في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وأيضا فإنه سبحانه حرم ما ذبح على النصب وهي كل ما ينصب ليعبد من دون الله وأما احتجاج أحمد على هذه المسألة بقوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] فحيث اشترطت التسمية في ذبيحة المسلم هل تشترط في ذبيحة الكتابي على روايتين وإن كان الخلال هنا قد ذكر عدم الاشتراط فاحتججه بهذه الآية يخرج على إحدى الروايتين فلما تعارض العموم الحاضر وهو قوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] والعموم المبيح وهو قوله ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] اختلف العلماء في ذلك والأشبه بالكتاب والسنة ما دل عليه أكثر كلام أحمد من الحظر وإن كان من متأخري أصحابنا من لا يذكر هذه الرواية بحال وذلك لأن عموم قوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] و﴿وَمَا ذُبحَ عَلَى النَّصْبِ﴾ [المائدة: ٣] عموم محفوظ لم يخص منه صورة بخلاف طعام الذين أوتوا الكتاب فإنه يشترط له الذكاة المبيحة فلو ذكى الكتابي في غير المحل المشروع لم تبح ذكاته ولأن غاية الكتابي أن تكون ذكاته كالمسلم والمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح باسم غير الله لم يباح وإن كان يكفر بذلك فكذلك الذمي لأن قوله تعالى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ و﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] سواء وهم وإن كانوا يستحلون هذا ونحن لا نستحله فليس كل ما استحلوه يحل لنا ولأنه قد تعارض دليلان حاصر ومبيح فالحاضر أولى أن يقدم ولأن الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقينا أنه ليس من دين الأنبياء عليهم السلام فهو من الشرك الذي أحدثوه فالمعنى الذي لأجله حلت ذبائحهم متف في هذا والله تعالى أعلم فإن قيل أما إذا سموا عليه غير الله بأن يقولوا باسم المسيح ونحوه فتحريمه ظاهر أما إذا لم يسموا أحدا ولكن قصدوا الذبح للمسيح أو للكوكب ونحوهما فما وجه تحريمه قيل قد تقدمت الإشارة إلى ذلك وهو أن الله سبحانه قد حرم ما ذبح على النصب

وذلك يقتضي تحريمه وإن كان ذابجه كتابيا لأنه لو كان التحريم لكونه وثنيا لم يكن فرق بين ذبجه على النصب وغيرها ولأنه لما أباح لنا طعام أهل الكتاب دل على أن طعام المشركين حرام فتخصيص ما ذبح على الوثن يقتضي فائدة جديدة وأيضا فانه ذكر تحريم ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله وقد دخل فيما أهل به لغير الله ما أهل به أهل الكتاب لغير الله فكذلك كل ما ذبح على النصب فإذا ذبح الكتابي على ما قد نصبوه من التماثيل في الكنائس فهو مذبوح على النصب ومعلوم أن حكم ذلك لا يختلف بحضور الوثن وغيبته وإنما حرم لأنه قصد بذبجه عبادة الوثن وتعظيمه وهذه الأنصاب قد قيل هي من الأصنام وقيل هي غير الأصنام قالوا كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجرا كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ويذبحون عليها وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها ويذبحون عليها وكانوا إذا شاءوا أبدلوا هذه الأحجار بحجارة هي أعجب إليهم منها ويدل على ذلك قول أبي ذر في حديث إسلامه حتى صرت كالنصب الأحمر يريد أنه كان يصير أحمر من تلوثه بالدم وفي قوله ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ [المائدة: ٣] قولان أحدهما أن نفس الذبح كان يكون عليها كما ذكرناه فيكون ذبحهم عليها تقريبا إلى الأصنام وهذا على قول من يجعلها غير الأصنام فيكون الذبح عليها لأجل أن المذبوح عليها مذبوح للأصنام أو مذبوح لها وذلك يقتضي تحريم كل ما ذبح لغير الله ولأن الذبح في البقعة لا تأثير له إلا من جهة الذبح لغير الله كما كرهه النبي ﷺ من الذبح في مواضع أصنام المشركين ومواضع أعيادهم وإنما يكره المذبوح في البقعة المعينة لكونها محل شرك فإذا وقع الذبح حقيقة لغير الله كانت حقيقة التحريم قد وجدت فيه والقول الثاني أن الذبح على النصب أي لأجل النصب كما قيل أولم رسول الله ﷺ على زينب بجذب لحم وأطعم فلان على ولده وذبح فلان على ولده ونحو ذلك ومنه قوله تعالى ﴿لِتُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهذا ظاهر على قول من يجعل النصب نفس الأصنام ولا منافاة بين كون الذبح لها وبين كونها كانت تلوث بالدم وعلى هذا القول فالدلالة ظاهرة واختلاف هذين القولين في قوله تعالى على النصب نظير الاختلاف في قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤]

وقوله تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٧] فإنه قد قيل المراد بذكر اسم الله عليها إذا كانت حاضرة وقيل بل يعم ذكره لأجلها في مغيبها وشهودها بمنزلة قوله تعالى ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وفي الحقيقة مآل القولين إلى شيء واحد في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ النَّصِبِ﴾ [المائدة: ٣] كما قد أومأنا إليه وفيها قول ثالث ضعيف أن المعنى على اسم النصب وهذا ضعيف لأن هذا المعنى حاصل من قوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] فيكون تكريرا لكن اللفظ يحتمله كما روى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي فقدمت إلى رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست أكل مما تذبحون على أنصابكم ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وفي رواية له وإن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض الكلا ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله إنكارا لذلك وإعظاما له وأيضا فان قوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى الله سبحانه كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم شركا من الاستعانة باسم هذا الغير في فواتح الأمور فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح والزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة أو قصد به ذلك أولى وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله ولم يحرم ما ذبح لغير الله كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم بل لو قيل بالعكس لكان أوجه فإن العبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله

متقربا به إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم مجال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان ومن هذا الباب ما قد يفعله الجاهلون بمكة شرفها الله وغيرها من الذبح للجن ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن ويدل على المسألة ما قدمناه من أن النبي ﷺ نهى عن الذبح في مواضع الأصنام ومواضع أعياد الكفار ويدل على ذلك أيضا ما رواه أبو داود في سننه حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن أبي ریحانة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب قال أبو داود غندر وقفه على ابن عباس وروى أبو بكر بن أبي شيبة في تفسيره حدثنا وكيع عن أصحابه عن عوف الأعرابي عن أبي ریحانة قال سئل ابن عباس عن معاقرة الأعراب فقال إني أخاف أن تكون مما أهل لغير الله به وروى أبو إسحاق إبراهيم دحيم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا سعيد بن منصور عن ربعي عن عبد الله بن الجارود قال سمعت الجارود قال كان من بني رباح رجل يقال له ابن وثيل شاعرا نافر أبا الفرزدق غالبا الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بأسيا فهما فجعلا ينسفان عراقبيها فخرج الناس على الحمر والبغال يريدون اللحم وعلي رضي الله عنه بالكوفة فخرج على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله فهؤلاء الصحابة قد فسروا ما قصد بذبحه غير الله داخلا فيما أهل به لغير الله فعلمت أن الآية لم يقتصر بها على التلفظ باسم غير الله بل ما قصد به التقرب إلى غير الله فهو كذلك وكذلك تفاسير التابعين على أن ما ذبح على النصب هو ما ذبح لغير الله وروينا في تفسير مجاهد المشهور عنه الصحيح من رواية ابن أبي نجيح في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] قال كانت حجارة حول الكعبة يذبح لها أهل الجاهلية ويبدلونها إذا شاءوا بحجارة أعجب إليهم منها وروى ابن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن أشعث عن الحسن في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] قال هو بمنزلة ما ذبح لغير الله في تفسير قتادة المشهور عنه وأما ما ذبح على النصب

فالنصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس النصب أصنام كانوا يذبحون ويهلون عليها فإن قيل فقد نقل إسماعيل بن سعيد قال سألت أحمد عما يقرب لأهتهم يذبحه رجل مسلم قال لا بأس به قيل إنما قال أحمد ذلك لأن المسلم إذا ذبحه سمي الله عليه ولم يقصد ذبحه لغير الله ولا يسمى غيره بل يقصد منه غير ما قصده صاحب الشاة فتصير نية صاحب الشاة لا أثر لها والذابح هو المؤثر في الذبح بدليل أن المسلم لو وكل كتابيا في ذبيحة فسمى عليها غير الله لم تبح ولهذا لما كان الذبح عبادة في نفسه كرهه علي رضي الله عنه وغير واحد من أهل العلم منهم أحمد في إحدى الروايتين عنه أن يوكل المسلم في ذبح نسيكته كتابيا لأن نفس الذبح عبادة بدنية مثل الصلاة ولهذا تختص بمكان وزمان ونحو ذلك بخلاف تفرقة اللحم فإن عبادة مالية ولهذا اختلف العلماء في وجوب تخصيص أهل الحرم بلحوم الهدايا المذبوحة في الحرم وإن كان الصحيح تخصيصهم بها وهذا بخلاف الصدقة فإنها عبادة مالية محضة فلهذا قد لا يؤثر فيها نية الوكيل على أن هذه المسألة منصوصة عن أحمد محتملة^(١).

لطائف لغوية

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المك: ١٠] وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] والعقل المشروط في التكليف لا بد

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٥٣ - ٢٦٢

أن يكون علوما يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء^(١).

الناس يدركون بعقولهم الأمور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الإنسان فانه يدرك من عواقب الأفعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة^(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٠] عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقوله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] وقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقد يقرن به غيره كقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وقوله ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] وقوله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٨.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١] أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به أي الذي ينعق به والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم فلهذا كان من أفصح الكلام إيجازه دون الإطناب فيه^(١).
واعلم أن المذهب إذا كان باطلا في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا فإن هذا لا يكون الا للحق فأما القول الباطل فإذا بين فيبانه يظهر فساده حتى يقال كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجب من اعتقادهم اياه ولا ينبغي للإنسان أن يعجب فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل الا وقد ذهب إليه فريق من الناس ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ وأنهم لا يفقهون وأنهم لا يعقلون وأنهم في قول مختلف يؤفك عنه من أفك وأنهم في ريبهم يترددون وأنهم يعمهون^(٢).

أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقال ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الأثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطبأؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطبأؤه^(٣).

قال الشاعر يهل بالفرقد ركبائها كما يهل الراكب المعتمر أي يصوتون بالفرقد فجعلهم مهلين به وقوله تعالى ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] أي صوت به وسواء كان التصويت به رفيعا أو خفيضا فانه مما تكلم به وجهر به لغير الله ونطق به^(٤).

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] العدو ان مجاوزة قدر الحاجة^(٥).

(١) الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٤٥.

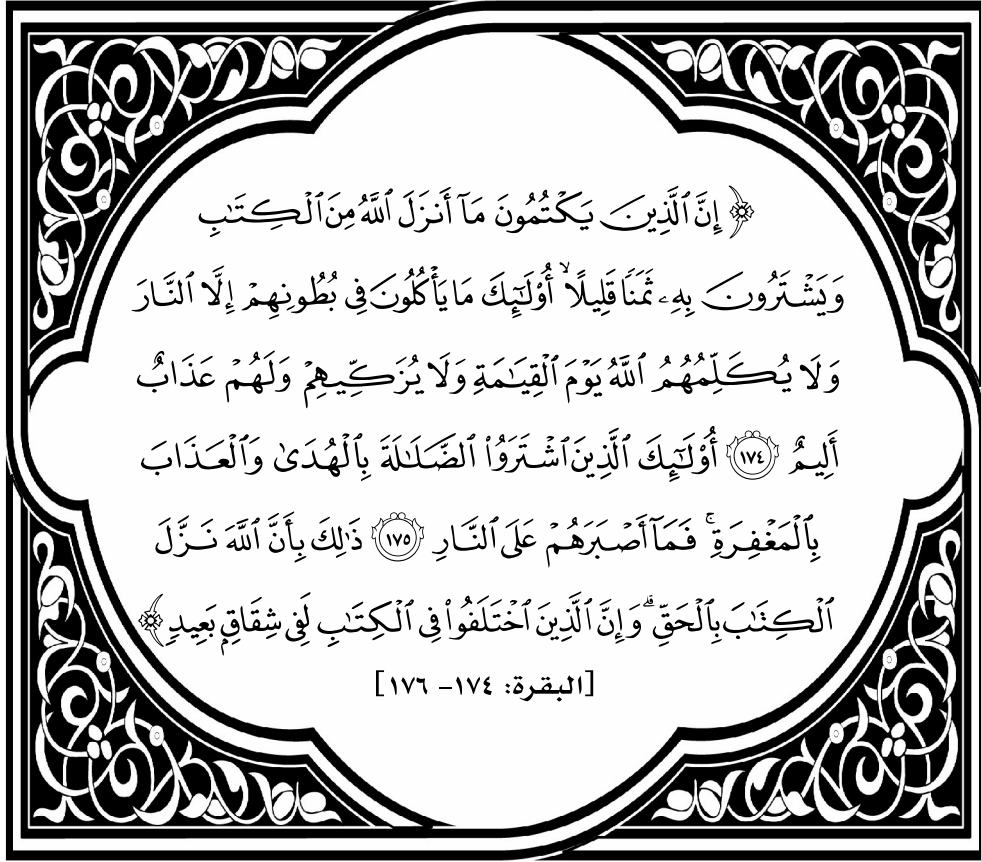
(٣) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٥.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ١١٣.

(٥) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٩٥.

والحكم إذا تعقب الوصف بحرف الفاء علم أنه علة نعم هذه الصفة لا تستعمل
إلا فيما يتوهم حظره كقوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وقوله
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: ٩٣] الآية فإن المحرم للميتة موجود حال الاضطرار
والموجب للصلاة موجود حال السفر^(١).

(١) شرح العمدة ج: ٣ ص: ٦٢٨.



قال النبي من سئل عن علم يعلمه فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار^(١).

قال تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢] هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٥٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٣.

لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ
لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا
يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن النبي ﷺ لا تقوم الساعة حتى تأخذ أممي مأخذ القرون شبرا بشبر
وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك فأخبر أنه
سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم
وهم الأعاجم وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارا عن جميع
الأمّة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أممي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة
وأخبر ﷺ ان الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين
غرسا يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين
بهديه الذي هو دين الإسلام محضا وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى
شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق
أيضا بل قد يكون الانحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا
الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه
بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا وأنا أشير إلى بعض أمور أهل
الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمّة ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن
الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين قال الله سبحانه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ
مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى
والعلم وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم
نافع أو عمل صالح وهو خلق مذموم مطلقا وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب
عليهم وقال الله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ

وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٣٦-٣٧﴾ [النساء: ٣٦-٣٧]
فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال وإن كان السياق يدل على أن
البخل بالعلم هو المقصود الأكبر فلذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية مثل قوله تعالى
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤] الآية وقوله تعالى ﴿وَإِذَا لَفُؤَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فوصف
المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم تارة بخلا به وتارة اعتياضا عن إظهاره بالدنيا وتارة
خوفا أن يحتج عليهم بما أظهره منه وهذا قد ابتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم
فإنهم تارة يكتمون العلم بخلا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه وتارة
اعتياضا عنه برياسة أو مال ويخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله وتارة يكون
قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه
حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره أهل
العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم وليس الغرض
تفصيل ما يجب وما يحتسب بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله
به^(١).

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقد يكون المختلفون كلهم

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧.

على باطل^(١).

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف كقوله ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلى قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿[آل عمران: ١٠٥-١٠٦] قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴿[الروم: ٣١-٣٢] وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البينة: ٤] وفي مثل قوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجَعُ رَبُّكَ ﴿[هود: ١١٨-١١٩] وفي مثل قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وكذلك سنة رسول الله ﷺ توافق كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي رواه مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فا فعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المرء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ قوله ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] إلى قوله

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٥٩.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فقال النبي ﷺ إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم^(١).

إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالاته لله والمعاداة لله والعبادة لله والإستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والإعطاء لله والمنع لله وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وكفر بعضهم بعضا وفسق بعضهم بعضا ولهذا قال تعالى فيهم ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٥) وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿[البينة: ٤-٥] وقال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] يعني فاختلفوا كما في سورة يونس وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٣ ودرء التعارض ج: ١ ص: ٤٩ ومجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣١٠.

كلهم على الإسلام وقد قال في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقا والاختلاف في كتاب الله على وجهين أحدهما أن يكون كله مذموما كقوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] لكن إذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم كقوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] وقول النبي ﷺ إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم قال الفراء في اختلافهم وجهان أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض والثاني تبديل ما بدلوا وهو كما قال فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه وهو تبديل ما بدل فالإختلاف لا بد أن يجمع النوعين ولهذا ذكر كل من السلف أنواعا من هذا أحدها الإختلاف في اليوم الذي يكون فيه الإجتماع فاليوم الذي أمروا به يوم الجمعة فعدلت عنه الطائفتان فهذه أخذت السبت وهذه أخذت الأحد وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وهذا الحديث يطابق قوله تعالى ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم

والحديث الأول يبين أن الله تعالى هدى المؤمني لغير ما كان فيه المختلفون فلا كانوا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وهو مما يبين أن الإختلاف كله مذموم والنوع الثاني القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب وكلاهما مذموم لم يشرعه الله والثالث إبراهيم قالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وكلاهما كان من الإختلاف المذموم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] والرابع عيسى جعلته اليهود لغية وجعلته النصارى إلهما والخامس الكتب المنزلة آمن هؤلاء ببعض وهؤلاء ببعض والسادس الدين أخذ هؤلاء بدين وهؤلاء بدين ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال اختصمت يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ولا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وكفروا بالإنجيل وعيسى وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وكفروا بالتوراة وموسى فأنزل الله هذه الآية والتي قبلها واختلف أهل البدع هو من هذا النمط فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري المثبت يقول ليس النافي على شيء والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الأصولية والفروعية^(١).

أنه تفرق أهل الكتاب في النبي ﷺ كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة وهذا هو الإختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٢٥٥ - ٢٦٠ ومجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٣.

الَّذِينَ اُخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِنِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿البقرة: ١٧٦﴾^(١).

الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسما

والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسما أحدهما أنه يذم الطائفتين جميعا

كما في قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اُخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِنِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾

[البقرة: ١٧٦] وقوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] وأما القسم

الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون

وذم فيه الأخرى كما في قوله تعالى ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ

وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اُخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فقوله ﴿وَلَكِنْ اُخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ

ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم للأخرى

وقوله ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اُخْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج: ١٩]

إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الحج: ٢٣] وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]^(٢).

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون في الحق فإن الواجب الإيمان

بجميع الحق المنزل

قاعدة في القرآن وكلام الله فان الأمة اضطربت في هذا اضطرابا عظيما وتفرقوا

واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضي القرون الثلاثة لما حدثت فيهم الجهمية المشتقة من

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٥.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٩ ومجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥١٦.

الصابئة وقد قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] والاختلاف نوعان اختلاف في تنزيهه واختلاف في تأويله والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون في الحق بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء أو بالعكس فإن الواجب الإيمان بجميع الحق المنزل فاما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين كما قال تعالى ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إلى قوله ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] والاختلاف في تنزيهه أعظم وهو الذي قصدنا هنا فنقول الإختلاف في تنزيهه هو بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رسله فسوف يعلمون فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسول من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسول من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسول آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسول كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسول تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] الآية وقال تعالى عن نوح وهود ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] وقال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخر الكلام فإن في هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [التدثر: ٢٥] ولهذا كان أصل

الإيمان الإيمان بما أنزله قال تعالى ﴿الذِّكْرُ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ ﴿٣﴾ [البقرة: ١-٣] إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] وفي وسط السورة ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية وفي آخرها ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ءَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيتين وفي السورة التي تليها ﴿الذِّكْرُ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٤﴾ [آل عمران: ١-٤] وذكر في أثناء السورة الإيمان بما أنزل وكذلك في آخرها ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَن ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إلى قوله ﴿وَإِنَّ مِن ءَهِلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية ولهذا عظم تقرير هذا الاصل في القرآن فتارة يفتح به السورة إما اخبارا كقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وقوله ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] وقوله ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتَّ ءَايَاتُهُ ءَ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] الآية وكذلك ال طسم وال حم فعامة ال الم وال الر وال طسم وال حم كذلك وإما ثناء بإنزاله كقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] الآية^(١).

التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينا في حقيقة التوحيد

وهذه الأصول الثلاثة وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح هي

الموجبة للسعادة في كل ملة كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّخْرَى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٦-٩.

وَالصَّاعِيْنَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [البقرة: ٦٢] والشرع ما جاءت به الرسل وهو الأصل الرابع ذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة والتفرق في ذلك بالأمر في بعضه والنهي عن بعض هو من التفرق والاختلاف الذي ذمه الكتاب والسنة من المختلفين وقال تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ولهذا غضب النبي لما اختلفوا في القراءة وقال كلاهما محسن وقال إن القرآن نزل علي سبعة أحرف فافروا منه ما تيسر وكذلك غضب لما تنازعا في القدر وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضي إلي الإيمان ببعض دون بعض وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله لله كما قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣٠-٣١] فإقامة وجهة الدين حنيفا وعبادة الله وحده لا شريك له وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به أن يكون الدين كله لله ثم قال الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ [الروم: ٣١-٣٢] وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله وهذا يجمع كل حق ويجمع عليه كل حق وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يكون لكل قول ما يمتازون به مثل معظم مطاع أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ومثل قول ودين ابتدعه لم يأذن الله به ولم يشرعه فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه وأيضا ففي قلوب بني آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه وبذلك تصلح حياتهم ويدوم شملهم وحاجتهم إلي التآله أعظم من حاجتهم إلي الغذاء فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم ويفقد التآله تفسد النفس ولن يصلحهم إلا تآله الله وعبادته

وحده لا شريك له وهي الفطرة التي فطروا عليها كما قال النبي في الحديث المتفق عليه كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي فيما يروي عن ربه أنه قال إنني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا لكن أكثر الشرك في بني آدم بإيجاد إله آخر مع الله ودان بذلك كثير منهم في أنواع كثيرة^(١).

دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول

أن ما أخبرت به الرسل عن الله من أصدق الأقوال وأن دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول وسلوكهم أدلة برأيهم ظنوها عقلية وهي جهلية فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية فاختلفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]^(٢).

كثيرا من الكتب المصنفة في أصول علوم الدين وغيرها ليس فيها القول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة

ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ نوعان نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك فيثبت ما أثبتته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله فاللفظ الذي أثبتته الله أو نفاه حق فان الله يقول الحق وهو يهdy السبيل والألفاظ الشرعية لها حرمة ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبتته وينفي ما نفاه من المعاني فانه يجب علينا أن نصدق في كل ما أخبر ونطيعه في كل ما أوجب وأمر ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان وقد قال تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٤٢-٤٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٩٠.

من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده فان أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره ثم التعبير عن تلك المعانى ان كان في ألفاظه اشتباه أو اجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرع فان كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على اطلاق ألفاظ ونفيها ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلا عن أن يعرف دليله ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئا بل يكون في قوله نوع من الصواب وقد يكون هذا مصيبا من وجه وهذا مصيبا من وجه وقد يكون الصواب في قول ثالث وكثيرا من الكتب المصنفة في أصول علوم الدين وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في المسألة العظيمة كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالا متعددة والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة وهو مما نهيت الأمة عنه كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٥﴾ يوم تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴿آل عمران: ١٠٥-١٠٦﴾ قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقد خرج النبي على أصحابه وهم يتنازعون في القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١١٤-١١٦.

فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والاجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والاجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فان الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله^(١). ان الإعراض عن الكتاب والسنة وطلب الهدى في مقالات المختلفين المتقابلين في النفي والإثبات للعبارات المجملات المشتبهات الذين قال الله فيهم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]^(٢).

لطائف لغوية

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٧٥] عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى لِّتَمَيِّزِ﴾ [البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وانما هداهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما في قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَّهُ وَهَدَنَّهُ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٢٣٧.

(٢) درء التعارض ج: ١ ص: ٧٣.

[النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الإيمان ودين الحق هو الإسلام وإذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال إذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمداً أو جهلاً ولزم أن يكون معذبا كقوله ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [٦٩-٧١] وقوله ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [٧٠] وَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧١] وقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [٦٧] رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] وقوله ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] ثم يقرن بالغي والغضب كما في قوله ﴿مَا صَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا عَوَى﴾ [النجم: ٢] وفي قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ [القمر: ٤٧] ^(١).

أن أولي الألباب هم سلف الأمة وأئمتها المتبعون لما جاء به الكتاب بخلاف المختلفين في الكتاب المخالفين للكتاب الذين قيل فيهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] ^(٢).
ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقوله ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [٨] يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ [النداريات: ٨-٩] وقوله ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦-١٦٧.

(٢) الصفدية ج: ١ ص: ٦٥.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٩.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
 وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ
 السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
 وَالْمُؤْفُوتَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُنْقَوُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾

هذه الآية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمعه لامر الدين
 ومن الذي قال ان التقوى مجرد ترك السيئات بل التقوى كما فسرها الأولون
 والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة
 اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب
 الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى في اكب سورة
 في القرآن ﴿المر ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنْفِقُونَ ﴿البقرة: ١-٣﴾ إلى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح
 من اقام الصلاة وابتاء الزكاة وقال ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿البقرة: ٢١﴾ وقال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
 ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذه الآية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمه لامر
الدين وقد روى ان النبي ﷺ سئل عن خصال الإيمان فنزلت وفي الترمذى عن فاطمة بنت
قيس عنه أنه قال ان في المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها
انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثانى انه
أخبر ان هذه الامور هى البر واهلها هم الصادقون يعنى في قوله آما وعامتها امور
وجودية هى افعال مأمور بها فعلم أن المأمور به أدخل في البر والتقوى والإيمان من عدم
المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] وقال ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [النجم: ٥٤] وقال ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]
وهذه الخصال المذكورة في الآية قد دلت على وجوبها لأنها خبر ان اهلها هم الذين
صدقوا في قولهم وهم المتقون والصدق واجب والإيمان واجب ايجاب حقوق سوى
الزكاة وقوله ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله لبنى اسرائيل ﴿لَئِن أَقَمْتُمْ
الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿١٢﴾﴾
[المائدة: ١٢] وقوله ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا مَحَبُوبٌ﴾ [ال عمران: ٩٢] وقوله ﴿وَأَعْبُدُوا
اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] وقوله
﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] في سبحانه والروم ﴿فَأَتِ ذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الروم: ٣٨] فإتيان ذى القربى حقه صله الرحم والمسكين
اطعام الجائع وابن السبيل قرى الضيف وفي الرقاب فكاك العانى واليتيم نوع من اطعام

الفقير وفي البخارى عن النبي عودوا المريض واطعموا الجائع وفكوا العانى وفي الحديث الذي أفتى به أحمد لو صدق السائل ما أفلح من رده^(١).

أصول الإيمان

أن يقال أن هذه العقيدة اشتملت على الكلام في الإيمان بالله سبحانه وبرسله واليوم الآخر ولا ريب أن هذه الأصول الثلاثة هي أصول الإيمان الخيرية العلمية وهي جميعها داخلة في كل ملة وفي إرسال كل رسول فجميع الرسل اتفقت عليها كما اتفقت على أصول الإيمان العملية أيضا مثل إيجاب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإيجاب الصدق والعدل وبر الوالدين وتحريم الكذب والظلم والفواحش فإن هذه الأصول الكلية علما وعملا هي الأصول التي اتفقت عليها الرسل كلهم والسور التي انزلها الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة التي يقال لها السور المكية تضمنت تقرير هذه الأصول كسورة الأنعام والأعراف وذوات ألر وحم وطس ونحو ذلك والإيمان بالرسول يتضمن الإيمان بالمكتوب وبمن نزل بها من الملائكة وهذه الخمسة هي أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرَّسُولِ﴾ [البقرة: ١٧٧]^(٢).

أن الدين والإيمان قول وعمل

ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٣٢-١٣٤.

(٢) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢١١.

كما في قوله ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وقوله ﷺ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم بكبيرته^(١).

المؤمن المطلق هو المؤدى للإيمان الواجب

فان الإيمان وان كان اسما لدين الله الذي أكمله بقوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وهو اسم لطاعة الله وللبر وللعمل الصالح وهو جميع ما أمر الله به فهذا هو الإيمان الكامل التام وكماله نوعان كمال المقربين وهو الكمال بالمستحب وكمال المقتصدين وهو الكمال بالواجب فقط وإذا قلنا في مثل قول النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا إيمان لمن لا أمانة له وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] إذا قال القائل في مثل هذا ليس بمؤمن كامل الإيمان أو نفي عنه كمال الإيمان لا أصله فالمراد به كمال الإيمان الواجب ليس بكمال الإيمان المستحب كمن ترك رمى الجمار أو ارتكب محظورات الإحرام غير الوطء ليس هذا مثل قولنا غسل كامل ووضوء كامل وأن المجزى منه ليس بكامل ذلك نفي الكمال المستحب وكذا المؤمن المطلق

(١) العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٣٩ - ٤٠.

هو المؤدى للإيمان الواجب ولا يلزم من كون إيمانه ناقصا عن الواجب أن يكون باطلا حابطا كما في الحج ولا أن يكون معه الإيمان الكامل كما تقوله المرجئة ولا أن يقال ولو أدى الواجب لم يكن إيمانه كاملا فان الكمال المنفي هنا الكمال المستحب^(١).

أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فلفظ الإيمان اذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر ولفظ التقوى ولفظ الدين كما تقدم فان النبي بين أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها امانة الأذى عن الطريق فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك اذا أطلق وكذلك لفظ التقوى وكذلك لفظ الدين أو دين الإسلام وكذلك روى أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تَقُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية وقد فسر البر بالإيمان وفسر بالتقوى وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله والجميع حق وقد روى مرفوعا إلى النبي أنه فسر البر بالإيمان قال محمد بن نصر حدثنا اسحاق بن ابراهيم حدثنا عبدالله بن يزيد المقرئ والملائى قال حدثنا المسعودى عن القاسم قال جاء رجل إلى أبي ذر فسأله عن الإيمان فقرا ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تَقُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال جاء رجل إلى النبي فسأله عن الذي سألتني عنه فقرا عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قتلني فلما أبى أن يرضى قال له ان المؤمن الذي اذا عمل الحسنة سرتة ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها وقال حدثنا اسحاق حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن عبدالكريم الجزرى عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقرا عليه ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تَقُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية وروى باسناده عن عكرمة قال سئل الحسن بن على بن أبى طالب مقبله من الشام عن الإيمان فقرا ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تَقُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأفتس رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٩٣-٢٩٤.

المطيع إلى الله فأدخله الجنة وصار العاصي إلى الله فأدخله النار هل يتفاضلان في الإيمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الإيمان طيب أو خبيث فان الله قال ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] فسألتهم فلم يجيبوني فقال بعضهم ان الإيمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرؤون الآية التي في البقرة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال ﴿وَأَتَىٰ أُمَمًا عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقال سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم وقال ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] فألزم الاسم العمل والعمل الاسم والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له فان كثيرا من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقوله صدقوا أى في قولهم آمنوا كقوله ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] إلى

قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] أى هم الصادقون في قولهم آمنا بالله بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٨ ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠] وفي ﴿يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا في قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول في الباطن وان صدقوه في الظاهر وقال تعالى ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢٤ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] فيين أنه لا بد أن يفتن الناس أى يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم يقال فتنت الذهب اذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به ومنه قول موسى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أى محتك واختبارك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتاب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سببا لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما آمنا فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٦ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧] فلما قال في آية البر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] دل على أن المراد صدقوا في قولهم آمنا فان هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه ولم يؤمروا أن

يلفظوا بألسنتهم ويقولوا نحن أبرار أو بررة بل اذا قال الرجل أنا بر فهذا مزك لنفسه ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها بره فليل تزكى نفسها فسمها النبي زينب بخلاف انشاء الإيمان بقولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٣٦] فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه قال تعالى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنَّا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وكذلك في أول آل عمران ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنَّا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤] وقال تعالى ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فقوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] دليل على أنهم قالوا آمنا ولا نفرق ولهذا قال ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] فجمعوا بين قولهم آمنا وبين قولهم سمعنا وأطعنا وقد قال في آية البر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فجعل الأبرار هم المتقين عند الاطلاق والتجريد وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقيد في قوله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] ودلت هذه الآية على أن مسمى الإيمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الاطلاق واحد فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار ولهذا جاء في أحاديث الشفاعة الصحيحة يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان وفي بعضها مثقال ذرة من خير وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم أهل السعادة المطلقة وهم أهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب وهؤلاء الذين قال النبي من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا فانه ليس من هؤلاء بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد لأسوة أمثالهم^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٩-١٨٢.

الجواب في المسائل العلمية يعتمد فيه على ما جاء به الكتاب والسنة
 الجواب في المسائل العلمية يعتمد فيه على ما جاء به الكتاب والسنة فإنه يجب على
 الخلق التصديق به وما كشف للإنسان من ذلك أو أخبره به من هو صادق عنده فهذا
 ينتفع به من علمه ويكون ذلك مما يزيده إيمانا وتصديقا بما جاءت به النصوص ولكن لا
 يجب على جميع الخلق الإيمان بغير ما جاءت به الأنبياء فإن الله عز وجل أوجب التصديق
 بما جاءت به الأنبياء كما في قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية وقال تعالى
 ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية وقد
 ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال قد كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي
 أحد فعمر فالمحدث الملقب من هذه الأمة يجب عليه أن يزن ذلك بالكتاب والسنة
 فإن وافق ذلك صدق ما ورد عليه وإن خالف لم يلتفت إليه كما كان يجب على عمر
 رضى الله عنه وهو سيد المحدثين إذا ألقى في قلبه شيء وكان مخالفا للسنة لم يقبل منه فإنه
 ليس معصوما وإنما العصمة للنبوة ولهذا كان الصديق أفضل من عمر فإن الصديق لا
 يتلقى من قلبه بل من مشكاة النبوة وهى معصومة والمحدث يتلقى تارة عن قلبه وتارة عن
 النبوة فما تلقاه عن النبوة فهو معصوم يجب اتباعه وما ألهم في قلبه فإن وافق ما جاءت به
 النبوة فهو حق وإن خالف ذلك فهو باطل فهذا لا يعتمد أهل العلم والإيمان في مثل
 مسائل العلم والدين إلا على نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة وإن كان عندهم في
 بعض ذلك شواهد وبيانات مما شاهدوه ووجدوه ومما عقلوه وعملوه وذلك ينتفعون به
 هم في أنفسهم وأما حجة الله تعالى على عباده فهم رسله^(١).

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣-١] والغيب الذي يؤمن به ما أخبر به الرسل من
 الأمور العامة ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وملائكته والجنة والنار

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٣٧٦ - ٣٧٧.

فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب فان وصف الرسالة هو من الغيب وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]^(١).

يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر الا بطاعة الله فبني الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون^(٢).

أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواترا تواترا ظاهرا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان^(٣).

أن المسلمين مقرون بنبوّة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله وهذا أصل دين المسلمين فمن كفر بنبي واحد أو كتاب واحد فهو عندهم كافر بل من سب نبيا من الأنبياء فهو عندهم كافر مباح الدم كما قال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَعَاقَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله يتناول التوراة والإنجيل كما يتناول القرآن^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٣٣.

(٢) النبوات ج: ١ ص: ١٧٨.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٧١.

(٤) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٣٣.

علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة

وقد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان كل احد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف الأولياء فانهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به بل يعرض امرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وماخالف الكتاب والسنة كان مردودا وان كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له اجر على اجتهاده لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع فان الله تعالى يقول ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وهذا تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال ابن مسعود وغيره حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر أي بحسب استطاعتكم فان الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها كما قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الانبياء في غير موضع كقوله تعالى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١-٥] وقال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ

ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْأَسْيَلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا الذي ذكرته من ان أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وانه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما انفق عليه أولياء الله عز وجل من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل اما ان يكون كافرا واما ان يكون مفرطا في الجهل وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ ابي سليمان الداراني أنه ليقع في قلبي النكته من نكت القوم فلا اقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له ان يتكلم في علمنا أو قال لا يقتدى به^(١).

وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام فإن أولياء الله من الصحابة والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه وليس فيهم معصوم يجب قبول كل ما يقول بل يجوز الغلط على كل واحد منهم وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه الأنبياء ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولي لله ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم ومن كذب نيا واحدا تعلم نبوته فهو كافر باتفاق المسلمين ومن سبه وجب قتله كذلك بخلاف من ليس بنبي فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ولا يقتل بمجرد سبه إلا أن يقترب بالسب ما يكون مبيحا للدم والذي عليه سلف الأمة كالصحابه والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين وجماهير المسلمين أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما وهذه الأمة أفضل الأمم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر والمحدث الملهم المخاطب وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه وما كان يقول لشيء إني لأراه كذا وكذا إلا كان كما يقول

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٠٨-٢١٠ والصفدية ج: ١ ص: ٢٥٦.

وكانت السكينة تنطق على لسانه ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبي معصوما من الغلط ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ولا كان يجوز له العمل بما يلقي في قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة فإن وافق ذلك قبله وإن خالف ذلك رده وعند المسلمين أنه ليس في أتباع المسيح عليه السلام مثل أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما فإذا قالوا عن الحواريين أنهم ليسوا معصومين فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين كما أنهم إذا قالوا عن المسيح أنه عبد مخلوق ليس بإله فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام^(١).

الرافضة موصفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي فإن الرافضي يجيء إلى أشخاص ظهر بصريح المعقول وصحيح المنقول أن بعضهم أكمل سيرة من بعض فيجعل الفاضل مذموما مستحقا للقدح ويجعل المفضول معصوما مستحقا للمدح كما فعلت النصارى يجيئون إلى الأنبياء صلوات الله عليهم وقد فضل الله بعضهم على بعض فيجعلون المفضول إلهها والفاضل منقوصا دون الحواريين الذين صحبوا المسيح فيكون ذلك قلبا للحقائق وأعجب من ذلك أنهم يجعلون الحواريين الذين ليسوا أنبياء معصومين عن الخطأ ويقدمون في بعض الأنبياء كسليمان وغيره ومعلوم أن إبراهيم ومحمدا أفضل من نفس المسيح صلوات الله وسلامه عليهم بالدلائل الكثيرة بل وكذلك موسى فكيف يجعل الذين صحبوا المسيح أفضل من إبراهيم ومحمد وهذا من الجهل والغلو الذي نهاهم الله عنه قال تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وكذلك الرافضة موصفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى وفيهم من ادعى النبوة فيه ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيهه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المنتهين إلا أن عليا رضي الله عنه بريء من هذه الدعوة بخلاف من ادعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله وهؤلاء الإمامية

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٤٠٢ والجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٤٤.

يدعون ثبوت إمامته بالنص وأنه كان معصوما هو وكثير من ذريته وأن القوم ظلموه وغصبوه ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة فإن المعصوم يجب اتباعه في كل ما يقول لا يجوز أن يخالف في شيء وهذه خاصة الأنبياء ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل إليهم فقال تعالى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] فأمرنا أن نقول آمنا بما أوتي النبيون وقال تعالى ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؕ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْآلِيَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به وهذا مما اتفق عليه المسلمون أنه يجب الإيمان بكل نبي ومن كفر بنبي واحد فهو كافر ومن سبه وجب قتله باتفاق العلماء وليس كذلك من سوى الأنبياء سواء سموا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها ويقال لهذا ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا أموريين باتباع شريعة التوراة وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدعى في أئمتها أنهم كانوا معصومين وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدي يقولون إنه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ويقال إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوما ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها فإن الله تعالى يقول ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول أو جب رد ما تنازعوا فيه إليه لأنه لا يقول عنده إلا الحق كالرسول وهذا

خلاف القرآن وأيضا فإن المعصوم تجب طاعته مطلقا بلا قيد ومخالفة يستحق الوعيد والقرآن إنما أثبت هذا في حق الرسول خاصة قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وقال ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول ﷺ هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقى وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وليست هذه المرتبة لغيره ولهذا اتفق أهل العلم أهل الكتاب والسنة على أن كل شخص فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل أمر فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهو الذي يسأل الناس عنه يوم القيامة كما قال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم فيقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك ويقال ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فأما به واتبعناه ولو ذكر بدل الرسول من ذكره من الصحابة والأئمة والتابعين والعلماء لم ينفعه ذلك ولا يمتحن في قبره بشخص غير الرسول^(١).

لا خير فيمن لا يحب المال يعبد به ربه ويؤدي به أمانته ويصون به نفسه ويستغنى به عن الخلق

وقد قررت في غير هذا الموضع أن أداء الواجب أعظم من ترك المحرم وأن الطاعات الوجودية أعظم من الطاعات العدمية فيكون جنس الظلم بترك الحقوق الواجبة

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٨٨-١٩١.

أعظم من جنس الظلم بتعدي الحدود وقررت أيضا أن الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرم ليس هو ترك المحرم فقط وكذلك التقوى إسم لأداء الواجبات وترك المحرمات كما بين الله حدها في قوله ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل أو المال من كراهة توجب تركه ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر يوجب فعله مثال ذلك ما سئل عنه احمد عن رجل ترك مالا فيه شبهة وعليه دين فسأله الوارث هل يتورع عن ذلك المال المشتبه فقال له احمد أتترك ذمة أبيك مرتهنة ذكرها أبو طالب وابن حامد وهذا عين الفقه فان قضاء الدين واجب والغريم حقه متعلق بالتركة فان لم يوف الوارث الدين وإلا فله استيفاؤه من التركة فلا يجوز إضاعة التركة المشتبهة التي تعلق بها حق الغريم ولا يجوز ايضا إضرار الميت بترك ذمته مرتهنة ففي الاعراض عن التركة إضرار الميت وإضرار المستحق وهذان ظلمان محققان بترك واجبين وأخذ المال المشتبه يجوز أن يكون فيه ضرر المظلوم فقال أحمد للوارث أبرئ ذمة أبيك فهذا المال المشتبه خير من تركها مرتهنة بالاعراض وهذا الفعل واجب على الوارث وجوب عين إن لم يقم غيره فيه مقامه أو وجوب كفاية أو مستحب استحبابا مؤكدا أكثر من الاستحباب في ترك الشبهة لما في ذلك من المصلحة الراجحة وهكذا جميع الخلق عليهم واجبات من نفقات أنفسهم وأقاربهم وقضاء ديونهم وغير ذلك فاذا تركوها كانوا ظالمين ظلما محققا وإذا فعلوها بشبهة لم يتحقق ظلمهم فكيف يتورع المسلم عن ظلم محتمل بارتكاب ظلم محقق ولهذا قال سعيد بن المسيب لا خير فيمن لا يحب المال يعبد به ربه ويؤدي به أمانته ويصون به نفسه ويستغنى به عن الخلق وفي السنن عن النبي ﷺ قال ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغارم يريد الوفاء فذكر في هذا الحديث ما يحتاج اليه المؤمن عفة فرجه وتخليص رقبته وبراءة ذمته فأخبر أن هذه الواجبات من عبادة الله وقضاء الديون وصيانة النفس والاستغناء عن الناس لا تتمم إلا بالمال وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ومن لا يحب أداء مثل هذا الواجب العظيم الذي لا يقوم الدين إلا به فلا خير فيه فهذه جملة ولها تفاصيل كثيرة والله أعلم^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٢٧٩-٢٨٠.

المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يظن له فيتصدق عليه ولا يسأل
الناس إلحافا

ففي الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة
واللقتان والتمر والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يظن له فيتصدق
عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا
عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فينبى النبي ﷺ أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس
يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا
يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق
مسكينا وانما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذي يجب أن
يقدم في العطاء فانه مسكين قطعاً وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله^(١).

فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة
الاحسان إلى خلقه

جعل الله الإسلام مينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض
وقرن معها الزكاة فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة
الاحسان إلى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آية ولم يذكرها إلا قرن معها
الزكاة من ذلك قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقال ﴿فَإِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَوَّضْنَاكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] وقال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥] وفي
الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبي عن
الإسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة
وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إلا
الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩ .

دماءهم وأمواهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذًا إلى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملًا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمي الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينمو إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى^(١).

رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة

وعمد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٧-٨.

تارة ويقربها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة^(١).

وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

ان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة ودم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع والسجود فإني أراكم من بعد ظهري وفي رواية أتموا الركوع والسجود وسيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد رسول الله ﷺ وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله ﷺ وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر وقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية له ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما وباقيه مثله وفي رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي ﷺ إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثني عليه ويقرأ بما شاء من

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣٠.

القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعاً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعداً ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفي رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويمجده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ثم يكبر فيستوي قاعداً على مقعدته ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وامتد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن وافترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فقرأ به وإلا فاحمد الله عز وجل وكبره وهللته وقال فيه وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي ﷺ أمر ذلك المصلي في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيًا إلا إذا انتفي شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجهه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة^(١).

(١) القواعد النورانية ج: ١ ص: ٢٦.

أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال وتبين ذلك من وجوه نذكر بعضها مما انتزعه الإمام احمد وغيره منها أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وإذا ذكرت المناسك قيل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وإن ذكر الصوم قيل ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] فإن الصبر المحدود في المثاني هو الصوم قال ﷺ صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر^(١).

فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارسة العلم التسييح^(٢).
فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي.

والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس وبسبب الكلام في مسألة الإيمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسمائها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوية لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الإيمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة

(١) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٨٩.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى ﴿حُدِّمْنَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله قال تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧] وهي عند المفسرين التوحيد وقد بين النبي مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد^(١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]

قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] والعقود هي العهود وقال تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعِدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذُبُرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود وهذا عام وكذلك أمر بالوفاء بعهد الله وبالعهد وقد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ١٥] فدل على أن عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه وإن لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد كالنذر والبيع إنما أمر بالوفاء به ولهذا قرنه بالصدق في قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعِدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] لأن العدل في القول خبر يتعلق بالماضي والحاضر والوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩.

وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] فأما من كان عهده موقفا فلم يبيح له نقضه
بدليل قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا
فَاتَّبَعُوا إِلَيْهِمْ وَعَاهَدُوا إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]
وقال ﴿وَأِمَّا تَخَافَتِ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] فانما أباح النبذ عند
ظهور أمارات الخيانة لأن المحذور من جهتهم وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢] في سورتي المؤمنون
والمعارج وهذا من صفة المستثنين من الهلع المذموم بقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ
الْشَّرُّ جَرُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ
فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
مُتَّقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾
[المعارج: ١٩-٣٢] وهذا يقتضى وجوب ذلك لأنه لم يستثن من المذموم إلا من اتصف بجميع
ذلك ولهذا لم يذكر فيها إلا ما هو واجب وكذلك في سورة المؤمنين قال في أولها
﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١] من لم
يتصف بهذه الصفات لم يكن من الوارثين لأن ظاهر الآية الحصر فان إدخال الفصل بين
المبتدأ والخبر يشعر بالحصر ومن لم يكن من وارثي الجنة كان معرضا للعقوبة الا ان يعفو
الله عنه وإذا كانت رعاية العهد واجبة فرعايته هي الوفاء به ولما جمع الله بين العهد
والأمانة جعل النبي ﷺ ضد ذلك صفة المنافق في قوله إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف
وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وعنه على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب
وما زالوا يوصون بصدق الحديث وأداء الأمانة وهذا عام وقال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

[البقرة: ٢٦-٢٧] فذمهم على نقض عهد الله وقطع ما أمر الله بصلته لأن الواجب إما بالشرع وإما بالشرط الذي عقده المرء باختياره وقال أيضا ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۗ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۗ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّونَ بِلِحْسَنِ النَّسِيئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ۗ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۗ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۗ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۗ [الرعد: ٢٠-٢٥] وقال ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ [البقرة: ١٠٠] وقال ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۗ [البقرة: ١٧٧] ^(١) .

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ [البقرة: ١٧٧] ﴾

فإن الله يتلي بالخلو والمر كما قال تعالى ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۗ [الأنبياء: ٣٥] وقال ﴿ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۗ [الأعراف: ١٦٨] فمن ابتلاه الله بالمر بالبأساء والضراء والبأس وقدر عليه رزقه فليس ذلك إهانة له بل هو ابتلاء فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدا وإن عصاه في ذلك كان شقيا كما كان مثل ذلك سببا للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين وكان شقاء وسببا للشقاء في حق الكفار والفجار وقال تعالى ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ [البقرة: ١٧٧] وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ۗ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٣٩-١٤٣ .

[البقرة: ٢١٤] ﴿وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّقِفُونَ^ط وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] وقال تعالى ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] وكما أن الحسنات وهي المسار الظاهرة التي يبتلي بها العبد تكون عن طاعات فعلها العبد فكذلك السيئات وهي المكاره التي يبتلي بها العبد تكون عن معاصي فعلها العبد كما قال تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقال تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ أُنَىٰ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُمْسِيَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢] وقال تعالى ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] ثم تلك المسار التي هي من ثواب طاعته إذا عصي الله فيها كانت سببا لعذابه والمكاهة التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا لسعادته فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سببا للنعيم وما هو طاعه فيما يري الناس قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة إذا ابتلي في هذه الطاعة وما هو معصية فيما يري الناس قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه وتصبره على المصيبة التي هي عقوبة ذلك الذنب فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا وينهي عن المعصية مطلقا ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به وأما القضاء والقدر وهو علم الله وكتابه وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه فهو باعتبار الحقيقة الآجلة فالأعمال بخواتيمها والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان^(١).

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٦٨-١٦٩.

ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم

وهو سبحانه الضار النافع قادر على أن يضر من يشاء وإن كان ما ينزله من الضر

بعابديه هو رحمة في حقهم كما قال أيوب ﴿مَسَّيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]

وقال تعالى ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال أيضا لرسوله

محمد ﷺ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال تعالى

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من

الضرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم لما في ذلك منة الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط في غير هذا الموضع^(١).

أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء

وينبغي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من

الرجال الموفين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر

واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على

المصائب عن أن يخرج والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه وأما الرضا فقد

تنازع العلماء والمشايخ من اصحاب الامام احمد وغيرهم في الرضا بالقضاء هل هو

واجب أو مستحب على قولين فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين وعلى الثاني

يكون من أعمال المقربين قال عمر بن عبد العزيز الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن

وقد روى عن النبي ﷺ انه قال لابن عباس إن استطعت ان تعمل لله بالرضا مع اليقين

فافعل فان لم تستطع فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ولهذا لم يجئ في القرآن الا

مدح الراضين لا ايجاب ذلك وهذا في الرضا بما يفعله الرب بعبد من المصائب كالمرض

والفقر والزوال كما قال تعالى ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]

وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ

وَالضَّرَّاءُ وَزُلُّوا﴾ [البقرة: ٢١٤] فالبأساء في الأموال والضراء في الأبدان والزوال في القلوب

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٢٧٢.

وأما الرضا بما امر الله به فأصله واجب وهو من الإيمان كما قال النبي في الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وهو من تواب المحبة كما سنذكره ان شاء الله تعالى قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩] الآية وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨]

وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤] ومن النوع الأول ما رواه احمد والترمذى وغيرهما عن سعد عن النبي أنه قال من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له وأما الرضا بالمنهيات من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها كما لا تشرع محبتها فان الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها وان كان قدرها وقضاها كما قال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] وقال تعالى ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨] بل يسخطها كما قال الله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها إلى العبد فعلاً وكسباً وهذا القول لا ينافي الذي قبله بل هما يعودان إلى اصل واحد وهو سبحانه انما قدر الأشياء لحكمة فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة إذ الشئ الواحد يجتمع فيه وصفان يجب من احدهما ويكره من الآخر كما في الحديث الصحيح ما ترددت عن شئ انا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقتضى الذي

هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام فان الكلام ليس في الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وافعاله وانما الكلام في الرضا بمفعولاته والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه في غير هذا الموضع والرضا وان كان من اعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى ان بعضهم فسر الحمد بالرضا ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه وفي الحديث أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء وروى عن النبي ﷺ انه كان إذا اتاه الأمر يسره قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا اتاه الأمر الذي يسوءه قال الحمد لله على كل حال وفي مسند الامام احمد عن ابى موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته اقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول اقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ونبينا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد وامته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء والحمد على الضراء يوجبه مشهدان احدهما علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه فانه احسن كل شئ خلقه واتقن كل شئ وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم والثاني علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ قال والذي نفسى بيده لا يقتضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فأخبر النبي ﷺ ان كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم: ٥] وذكرهما في اربعة مواضع من كتابه فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم ان يكون القضاء خيرا له^(١).

فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما
في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال من يستعفف يعفه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤١-٤٤ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٥ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٥٥.

الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي لأحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر فالمستغني لا يستشرف بقلبه والمستعف هو الذي لا يسأل الناس بلسانه والمتصبر هو الذي لا يتكلف الصبر فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله وهذا كأنه في سياق الصبر على الفاقة بأن يصبر على مرارة الحاجة لا يجزع مما ابتلي به من الفقر وهو الصبر في البأساء والضراء قال تعالى ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الصبر على البلاء والضراء والمرض وهو الصبر على ما ابتلي به من حاجة ومرض وخوف والصبر على ما ابتلي به باختياره كالجهد فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره ولذلك اذا ابتلي بالعنت في الجهد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه في بلده لأن هذا الصبر من تمام الجهد وكذلك لو ابتلي في الجهد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل الصبر على الطاعات وكذلك ما يؤذي الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك وكذلك اذا دعته نفسه إلى محرمات من رئاسة وأخذ مال وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما فإن في العلم والامارة والجهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والحج والصوم والزكاة من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه كما تطمع مع القدرة فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد بل هو من أفضل الجهاد وأكمل من ثلاثة أوجه أحدهما أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب الثاني أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك الثالث أن طلب النفس لها اذا كان بسبب أمر ديني كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل اليه من ذلك فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحذور بخلاف ما اذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح ولهذا كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول لا

تدخل على سلطان وإن قلت أمره بطاعة الله ولا تدخل على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله ولا تصنع أذنك إلى صاحب بدعة وإن قلت أرد عليه فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتن ولا يسلم فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره وابتلي فعليه أن يتقي الله ويصبر ويخلص ويجاهد وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال كمن تولى ولاية وعدل فيها أو رد على أصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يتفنوه أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة الابتلاء لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمره لا تسأل الامارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت اليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها وكذلك قال في الطاعون إذا ببلد وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم بهأرض فلا تقدموا عليه فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها لكن باب التوبة مفتوح فإن الرجل قد يسأل الامارة فيوكل اليها ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه اما على اقامة الواجب واما على الخلاص منها وكذلك سائر الفتن كما قال قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع^(١).

وصف المؤمنين بالصدق

وان المنافق لا بد أن تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق قال تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وأمثال هذا كثير وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٦-١٨ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٧٧-٥٧٨.

وَالْمَغْرِبِ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿البقرة: ١٧٧﴾^(١).

عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وان الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً فأخبر النبي ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم الفجور وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] ولهذا كان بعض المشائخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ولا يشعب قلبه امره بالصدق ولهذا كان يكثر في كلام مشائخ الدين وائتمته ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الارض وما وضع على شيء الا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد الا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والاخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام فان المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فان اساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ولهذا اذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعتة بالصدق كما في قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلى قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ءُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] فأخبر ان الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله باموالهم وانفسهم وذلك ان هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢١.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ۖ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ ۖ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي ۗ قَالُوا ۖ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ۖ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وامره ان يأخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۗ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥] فذكر تعالى انه انزل الكتاب والميزان وانه انزل الحديد لاجل القيام بالقسط وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدى وسيف ينصر وكفي بربك هاديا ونصيرا والكتاب والحديد وان اشتركا في الانزال فلا يمنع ان يكون احدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ [الجاثية: ٢] وقال تعالى ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ۖ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ [هود: ١] وقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَلتَّلْقَى الْفُرَاتِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ [النمل: ٦] والحديد أنزل من الجبال التي خلق فيها وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى ﴿يَسَّ أَلْبَرًا أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْآلِبرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: ١٠] وقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ۗ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ [المنافقون: ١] وقوله تعالى ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ۖ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٧] ونحو ذلك في القرآن كثير ومما ينبغي ان يعرف ان الصدق والتصديق يكون في الاقوال وفي الاعمال كقول النبي وآله

وسلم في الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ويقال حملوا على العدو حملة صادقة اذا كانت ارادتهم للقتال ثابتة جازمة ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك ولهذا يريدون بالصادق الصادق في ارادته وقصده وطلبه وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه والمنافق ضد المؤمن الصادق وهو الذي يكون كاذبا في خبره أو كاذبا في عمله كالمرائي في عمله قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٤٢-١٤٣﴾^(١).

والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه

وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون فقد أخبر سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتقون وقد بين المتقين في قوله تعالى ﴿يَسَّ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه وقد أخبر النبي عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٢-١٥ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٠-٤١ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٠.

به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها في يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فقد ذكر في هذا الحديث أن التقرب إلى الله تعالى على درجتين إحداهما التقرب إليه بالفرائض والثانية هي التقرب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض فالأولى درجة المقتصدین الأبرار أصحاب اليمين والثانية درجة السابقين المؤمنين كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٥) ﴿خِتَمُهُ مِسْكَ﴾ (٢٥) ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَمِرَاجُهُ مِنَ السَّنِيمِ﴾ (٢٧) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٧) [المطففين: ٢٢-٢٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما يمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشربه المقربون صرفا وقد ذكر الله هذا المعنى في عدة مواضع من كتابه فكل من آمن بالله ورسوله واتقى الله فهو من أولياء الله (١).

ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب

قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢-٣] فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزما للباقي فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا ﴿وَجِلَّتْ﴾ [الأَنْفَال: ٢] فرقت وفي قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل في اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤١٦-٤١٧.

ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدى في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴿[الأنفال: ٢] هو الرجل يريد أن يظلم أو يهجم بمعصية فينزح
عنه وهذا كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾
[النازعات: ٤٠-٤١] وقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال مجاهد وغيره من
المفسرين هو الرجل يهجم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفاً من الله وإذا
كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور
وترك المحذور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى
ولا طريق إليه اقرب من الافتقار واصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل
على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي دُسُخَاتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال
مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن
أبى الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما في قوله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] وهؤلاء هم اهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى
﴿الَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ١-٢] كما قال في آية البر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى
﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد وإذا لم يشق
فهو مرحوم وهؤلاء هم اهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فان اهل الرحمة
ليسوا مغضوبا عليهم واهل الهدى ليسوا ضالين فتبين ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله
مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين اتوا بالإيمان الواجب^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٩ - ٢١.

بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنعف والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنعف من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي ﷺ قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وفي السنن عن النبي ﷺ إن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه ﷺ أنه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر^(١).

لطائف لغوية

ومن عادة العرب الحسنة في خطابها انهم يذفون من الكلام ما يكون المذكور دليلا عليه اختصارا كما انهم يوردون الكلام بزيادة تكون مبالغة في تحقيق المعنى فالأول كقوله ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقْ﴾ [الشعراء: ٦٣] فمعلوم ان المراد

(١) السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١٢.

فضرب فانفلق لكن لم يحتج إلى ذكر ذلك في اللفظ إذ كان قوله قلنا اضرب فانفلق دليلاً على انه ضرب فانفلق وكذلك قوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] تقديره بر من آمن أو صاحب من آمن وكذلك قوله ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] أى أوقات الحج أشهر^(١).

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أى من يؤمن^(٢).

والواو تقتضى التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم المذكور وقد قال الله تعالى فى آية الخمس ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ خُمْسِهِ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] ومثل ذلك فى آية الفية ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] وقال فى آية الصدقات ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِرِ مِثْنِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية فاطلق الله ذكر الاصناف وليس فى اللفظ ما يدل على التسوية بل على خلافها فمن أوجب باللفظ التسوية فقد قال ما يخالف الكتاب والسنة إلا ترى أن الله لما قال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال تعالى ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وقال تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥] وقال تعالى ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] وأمثال ذلك لم تكن التسوية فى شىء من هذه المواضع واجبة بل ولا مستحبة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٧.

(٢) الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٣٩.

في أكثر هذه المواضع سواء كان الاعطاء واجبا أو مستحبا بل بحسب المصلحة ونحن اذا قلنا في الهدى والاضحية يستحب ان يأكل ثلثا ويتصدق بثلث فانما ذلك إذا لم يكن هناك سبب يوجب التفضيل والا فلو قدر كثرة الفقراء لاستحبنا الصدقة الصدقة بأكثر من الثلث وكذلك إذا قدر كثرة من يهدى على الفقراء وكذلك الأكل فحيث كان الأخذ بالحاجة أو المنفعة كان الاعتبار بالحاجة والمنفعة بحسب ما يقع بخلاف المواريث فانها قسمت بالأنساب التي لا يختلف فيها أهلها فان إسم الإبن يتناول الكبير والصغير والقوى والضعيف ولم يكن الأخذ لا لحاجته ولا لمنفعته بل لمجرد نسبه فلهذا سوى فيها بين الجنس الواحد وأما هذه المواضع فالأخذ فيها بالحاجة والمنفعة فلا يجوز أن تكون التسوية بين الاصناف لا واجبة ولا مستحبة بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة كما كان أصل الاستحقاق معلقا بذلك والواو تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم المذكور والمذكور أنه لا يستحق الصدقة إلا هؤلاء فيشتركون في أنها حلال لهم وليس إذا اشتركوا في الحكم المذكور وهو مطلق الحل يشتركون في التسوية فان اللفظ لا يدل على هذا مجال ومثله يقال في كلام الواقف والموصي وكان بعض الواقفين قد وقف على المدرس والمعيد والقيم والفقهاء والمتفقهة وجرى الكلام في ذلك فقلنا يعطى بحسب المصلحة فطلب المدرس الخمس بناء على هذا الظن فقليل له فاعطى القيم أيضا الخمس لأنه نظير المدرس فظهر بطلان حجته آخره والحمد لله رب العالمين^(١).

أن الشارع لم ينقل الاسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة وبسبب الكلام في مسألة الإيمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسمائها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الإيمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٥٩.

إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الإيمان أمر به مقيدا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا إلى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۙ﴾ [العلق: ٩-١٠] وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتك يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۙ﴾ [العلق: ٩-١٠] فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا إجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد^(١).

عامة الأسماء يتنوع مسماهها بالاطلاق والتقييد

وكذلك لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] وقوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَكَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالبر اذا أطلق كان مسماها مسمى التقوى والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله ﴿وَإِنْ تُخَفُّوهُمَا وَتَوَلَّوْهُمَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وقوله ﴿كَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٨٩] والثاني كقوله ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الإيمان والمعروف مع العمل ومع الصدق والمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ الإيمان والبر والتقوى ولفظ الفقير والمسكين فأیها أطلق تناول ما يتناوله الآخر^(١).

ان اللفظ الواحد تنوع دلالاته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الإقتران بغيره كلفظ البر والإيمان إذا أفرده أدخل فيه الأعمال الصالحة والتقوى كقوله ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]^(٢).

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] والكتاب

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٥-١٦٧.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١١٨.

اسم جنس لكل كتاب أنزله الله يتناول التوراة والإنجيل كما يتناول القرآن^(١).

والتقوى هي ما فسرهما الله تعالى في قوله ﴿وَلَكِنَّ الْآبِرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وجماعها فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله^(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي يقول الله تعالى عبدى مرضت فلم تعدنى فيقول رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده عبدى جعت فلم تطعمنى فيقول رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى ففي هذا الحديث ذكر المعنيين الحقيقين ونفي المعنيين الباطلين وفسرهما فقوله جعت ومرضت لفظ اتحاد يثبت الحق وقوله لوجدتني عنده ووجدت ذلك عندى نفي للاتحاد العينى بنفي الباطل واثبات لتمييز الرب عن العبد وقوله لوجدتني عنده لفظ ظرف وبكل يثبت المعنى الحق من الحلول الحق الذي هو بالإيمان لا بالذات ويفسر قوله مرضت فلم تعدنى فلو كان الرب عين المريض والجائع لكان اذا عاده واذا أطعمه يكون قد وجده اياه وقد وجده قد أكله وفي قوله في المريض وجدتنى عنده وفي الجائع لوجدت ذلك عندى فرقان حسن فان المريض الذي تستحب عيادته ويجد الله عنده هو المؤمن بربه الموافق لإلهه الذي هو وليه وأما الطاعم فقد يكون فيه عموم لكل جائع يستحب اطعامه فان الله يقول ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فمن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة فقد أقرض الله سبحانه بما أعطاه لعبده وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم وقال ان الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل لكن

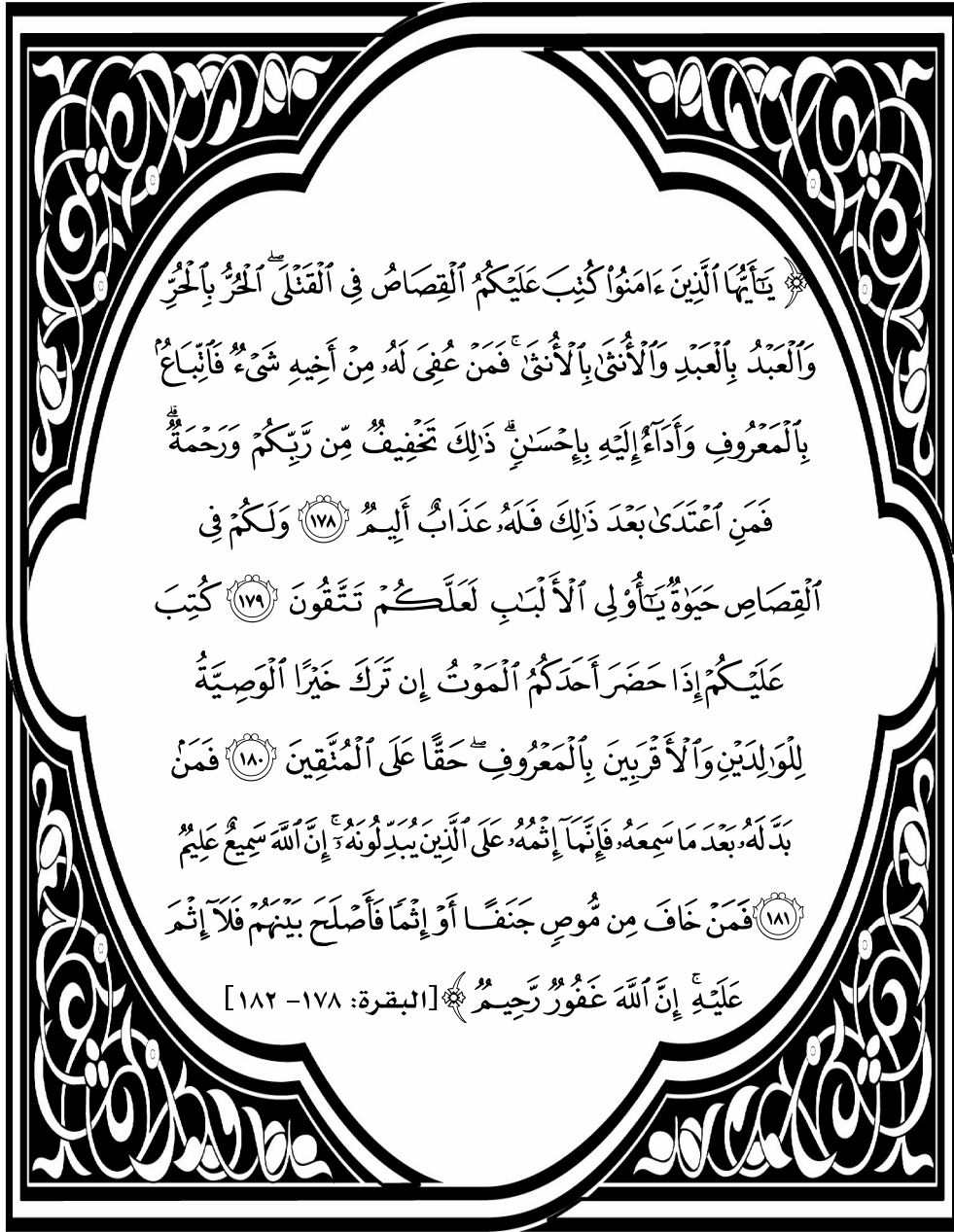
(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٣٣ والجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٥٧ والجواب الصحيح ج: ٢

ص: ٢٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٩.

الأشبه أن هذا العبد المذكور في الجوع هو المذكور في المرض وهو العبد الولي الذي فيه نوع اتحاد وان كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمي ونظير القرض النصر في مثل قوله تعالى ﴿وَلِيَنْصُرَيْكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ، وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ونحو ذلك لكن النصر فيه معنى لكن لا يقال في مثله جعت فقد ذكر الله في القرآن القرض والنصر وجعله له هذا في الرزق وهذا في النصر وجاء في الحديث العيادة وهذه الثلاثة هي المذكورة في قوله تعالى ﴿وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُوفًا﴾ [البقرة: ٢١٤] وانما في الحديث أمر البأساء والضراء فقط لأن ذلك ينفرد به الواحد المخاطب بقوله عبدي مرضت وجعت فلذلك عاتبه وأما النصر فيحتاج في العادة إلى عدد فلا يعتب فيه على أحد معين غالبا أو المقصود بالحديث التنبيه وفي القرآن النصر والرزق وليس فيه العيادة لأن النصر والقرض فيه عموم لا يختص بشخص دون شخص وأما العيادة فانما تكون لمن يجد الحق عنده^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٩٢



﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]

ففي قوله تعالى ﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية وفيها قولان أحدهما أن القصاص هو القود وهو اخذ الدية بدل القتل كما جاء عن ابن عباس أنه

كان في بني اسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله في هذه الأمة الدية فقال ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] والعفو هو أن يقبل الدية في العمد ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] مما كان على بني اسرائيل والمراد على هذا القول أن يقتل الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى قال قتادة ان اهل الجاهلية كان فيهم بغي وكان الحي إذا كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين لن يقتل به إلا حرا تعززا على غيرهم وان قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن يقتل بها إلا رجلا فنزلت هذه الآية وهذا قول اكثر الفقهاء وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره ويحتج بها طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد على أن الحر لا يقتل بالعبد لقوله ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] فينقض ذلك عليه بالمرأة فإنه قال ﴿وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] وطائفة من المفسرين لم يذكروا إلا هذا القول القول الثاني أن القصاص في القتلى يكون بين الطائفتين المقتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء احرار وعبيد ونساء فامر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بان يقاص دية حر بدية حر ودية امرأة بدية امرأة وعبد بعبد فإن فضل لأحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ولتؤد الأخرى اليها باحسان وهذا قول الشعبي وغيره وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره وعلى هذا القول فإنه إذا جعل ظاهر الآية لزمته اشكالات لكن المعنى الثاني هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه بخلاف القول الأول يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه ان شاء الله تعالى وما ذكرناه يظهر من وجوه احدها أنه قال ﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] والقصاص مصدر قاصه يقاصه مقاصه وقصاصا ومنه مقاصة الدينين احدهما بالآخر و﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] انما يكون إذا كان الجميع قتلى كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى هؤلاء القتلى أما إذا قتل رجل رجلا فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ولكن القصاص ان يمكن من قتل القاتل لا غيره وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء قيل تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذي ولا حر بعبد وهو قول الأكثرين مالك والشافعي وأحمد وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة

والمكافآت لا تسمى قصاصا وأيضا فإنه قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] وإن أريد بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب وإن أريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي إن شاء اقتص وإن شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال هو مكتوب على القاتل إن يمكن من نفسه فيقال له هو تعالى قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وليس هذا خطابا للقاتل وحده بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] ثم لا يقال للقاتل كتب عليك القصاص في المقتول فإن المقتول لا قصاص فيه وأيضا فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصا بل الولي له أن يقتص وله أن لا يقتص وإنما سمي هذا قودا لأن الولي يقوده وهو بمنزلة تسليم السلعة إلى المشتري ثم قال تعالى ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ﴾ [البقرة: ١٧٨] فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل بل هذا خطاب للأمة بالمقاصة والمعادلة في القتل والنيب ﷺ إنما قال كتاب الله القصاص لما كسرت الربيع سن جارية وامتنعوا من أخذ الأرش فقال أنس بن النضر لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع فقال النبي ﷺ يا أنس كتاب الله القصاص فرضي القوم بالأرش فقال النبي ﷺ إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره كقوله تعالى ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] يعنى كتاب الله أن يؤخذ العضو بنظيره فهذا قصاص لأنه مساواة ولهذا كانت المكافآت في الاعضاء والجروح معتبره باتفاق العلماء وإن قيل القصاص هو أن يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الأعتدا قيل نعم وهذا قصاص في الأحياء لا في القتلى الثاني انه قال ﴿فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] ومعلوم باتفاق المسلمين إن العبد يقتل بالعبد وبالحر والانثى تقتل بالانثى وبالذكر والحر يقتل بالحر وبالانثى أيضا عند عامة العلماء وقيل يشترط أن تؤدى تمام ديته وإذا كان كذلك فقوله ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] إنما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به وكذلك العبد بالعبد والانثى بالانثى وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد

بالآخر وينظر أبتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر فضل اما في القتلى فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين الثالث أنه قال ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] لفظ عفيها قد استعمل متعديا فانه قال ﴿عُفِيَ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] ولم يقل عفا شيئا وهذا انما يستعمل في الفعل كما قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن القاتل فولي المقتول بين خيرتين بين أن يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء بل هو عفا عن القتل وإذا عفا فاما ان يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين وقد قال بعضهم ﴿مَنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية والمراد القاتل يعني إن القاتل عفي له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل فيكون التقدير أن الولي عفي للقاتل من دم المقتول شيئا وهذا ككلام لا يعرف لا يقال عفوت لك شيئا ولا يقال عفوت من دم القاتل وانما الذي يقال انه عفا عن القاتل فأرين هذا من هذا وأما على القول الأول فالمتقاصان إذا تعادى القتلى فمن عفي له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصة أخرى أي هذا الذي فضل له فضل كما يقال أبقى له من جهة أخيه بقية ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف وذلك يؤدي إلى هذا باحسان ﴿ذَلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّيِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي من ان كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فإن في هذا ثقيلًا عظيمًا له أي من ان كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فإن في هذا ثقيلًا عظيمًا له ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فانهم إذا تعادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الاخرى بشيء فحيي هؤلاء وحيي هؤلاء بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فانهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلائق كما هو معروف في فتن الجاهلية والإسلام انما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين والا فمع التعادل والتناصف الذي يرضى به أولوا الألباب لا تبقى فتنة وقوله ﴿فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَدَاؤُ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فطلب من الطائفة الأخرى مالا أو قوما أو أذاهم بسبب ما

بينهم من الدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] وهذا كقوله ﴿وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩-١٠] والأخوة هنا كالأخوة هناك وهذا في قتلى الفتن واما إذا قتل رجل رجلا من غير فتنة فهم كانوا يعرفون ان القاتل يقتل لكن كانت الطائفة القوية تطلب ان تقتل غير القاتل أو من هو اكثر من القاتل أو اثنين بواحد وإذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه كما قيل إنه كان بين قريظة والنضير لكن هذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ولم يكن في الأمم من يقول ان القاتل الظالم المتعدي مطلقا لا يقتل فهذا لم يكن عليه أحد من بنى آدم بل كل بنى آدم مطبقون على ان القاتل في الجملة يقتل لكن الظلمة الاقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل وقول من قال ان قوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] معناه أن القاتل إذا عرف أنه يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول يقال له هذا معنى صحيح ولكن هذا مما يعرفه جميع الناس وهو مغرور في جبلتهم وليس في الآدميين من يبيح قتل أحد من غير أن يقتل قاتله بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس إذا كان كل من قدر على غيره قتله وهو لا يقتل يرضى بما لا وإذا كان هذا المعنى من أوائل ما يعرفه الآدميون ويعلمون أنهم لا يعيشون بدونهم صار هذا مثل حاجتهم إلى الطعام والشراب والسكنى فالقرآن أجل من أن يكون مقصوده التعريف بهذه الأمور البديهية بل هذا مما يدخل في معناه وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حر بحر وعبد بعبد وانثى بانثى فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كدم هذا متضمن مساواتهم في الدماء والديات وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم كما هو معروف وهذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية فعلم أن دم الحر وديته كدم الحر وديته فيقتل به وإذا علم أن التقاص يقع للتساوي في الديات علم أن للمقتول دية ولفظ القصاص يدل على المعادلة والمساوات فيدل على أن الله أوجب العدل والانصاف في أمر القتلى فمن قتل غير قاتله فهو ظالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من انصاف أولياء المقتول فهم ظالمون هؤلاء خارجون عما

أوجبه الله من العدل وهؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في قوله ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وإذا دلت على العدل في القود بطريق اللزوم والتنبيه ذهب الأشكال ولم يقل فلم لا قال والعبد بالعبد والحر فإنه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتل ومعلوم أنه انما يقاص الحر بالحر لا بالمرأة والمرأة بالمرأة لا بالحر والعبد بالعبد فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى إذا كانا متساويين في الدم وبدله هو الدية ولم يتنف أن يقتل عبد بحر وانثى بذكر ولا لها مفهوم ينفي ذلك بل كما دلت على ذلك بطريق التنبيه والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضا فإنه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلتها بالرجل أولى وأما قتل الحر بالعبد والذكر بالانثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي ولا اثبات ولا لها مفهوم يدل عليه لا مفهوم موافقة ولا مخالفة فإنه إذا كان في المقاصة يقاس الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى لتساوي الديات دل ذلك على قتل النظير بالنظير والأدنى بالأعلى يبقى قتل الأعلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ليس في الآية تعرض له فإنه لم يقصد بها ابتداء القود وإنما قصد المقاصة في القتل لتساوي دياتهم فان قيل دية الحر كدية الحر ودية الأنثى كدية الأنثى ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة قيل عبيدهم كانوا متقاربين القيمة وقوله العبد بالعبد قد يراد به بالعبد المماثل به كما يقال ثوب بثوب وان كان أحدهما أغلى قيمة فذاك مما عفي له وقد يعني إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فإن المقتولين في الفتن عبيدهم الذين يقتلون معهم وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يشتردهم فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومع الجهل بتفاضلها فإن المجهول كالمعدوم ولو أتلّف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منهما قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب وهذا لأن الزيادة محتملة من الطرفين يحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى وليس ترجيح أحدهما أولى من الآخر والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك في احدهما فكيف إذا كان من الطرفين فظهر حكمة قوله ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾

[البقرة: ١٧٨] وظهر بهذا أن القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ويحقن به دماؤهم ويحيون به ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل في القود ودلت الآية على أن القتلى يؤخذ لهم ديات فدل على ثبوت الدية على القاتل وانها مختلفة باختلاف القتولين وهذا مما من الله به على أمة محمد ﷺ حيث أثبت القصاص والدية وأما كون العفو هو قبول الدية في العمد وأنه يستحق العافي بمجرد عفوه فالآية لم تتعرض دلت هذه الآية على أن الطوائف الممتنعة تضمن كل منهما ما اتلفته الأخرى من دم ومال بطريق الظلم لقوله ﴿مَنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨] بخلاف ما اتلفه المسلمون للكفار والكفار للمسلمين وأما القتال بتأويل كقتال أهل الجمل وصفين فلا ضمان فيه أيضا بطريق الأولى عند الجمهور فإنه إذا كان الكفار المتاولون لا يضمنون فالمسلمون المتاولون أولى ان لا يضمنوا ودلت الآية على أن هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوى فيه الردء والمباشر ولا يقال انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بديته بل يقال ديته عليكم كلكم فانكم جميعا قتلتموه لأن المباشر إنما تمكن بمعاونه الردء له وعلى هذا دل قوله ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الذَّيْبَ ذَهَبْتَ أَزْوَاجَهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١] فان أولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التي ذهبت إليهم فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها فيعطي المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة التي يستحقه الكفار لكونها اسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها وان كان زوج المهاجرة ليس هو الذي تزوج بالمرتدة لان الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضا صارت كالشخص الواحد ولهذا لما قتل خالد من قتل من بني جذيمة وداهم النبي ﷺ من عنده لأن خالدا نائبه وهو لا يمكنهم من مطالبته وحبسه لأنه متأول وكذلك عمرو بن أمية وعاقلته خالد بن الوليد لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه وقد تنازع الفقهاء في خطأ ولي لي الأمر هل هو في بيت المال أو على ذمته على قولين ولهذا كان ماغنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية لأنه انما يغنم بعضهم بظهر بعض فإذا اشتركوا في المغرم اشتركوا في المغنم وكذلك في العقوبة يقتل

الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء كما قتل عمر رضي الله عنه ريبة المحاربين وهو قول مالك وأبي حنيفة واحمد وهو مذهب مالك في القتل قودا وفي السراق ايضا وبيان دلالة الآية على ذلك أن المقتولين إذا حبس حر بجر وعبد بعبد وانثى بانثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء بل قد يكون غيره وكذلك العبد من هؤلاء ليس قاتله هو سيد العبد من هؤلاء بل يكون غيره لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله وكلهم يضمونوه ولهذا ما فضل لاحد الطائفتين يؤخذ من مال الأخرى فان قيل إذا كان مستقرا في فطر بني آدم أن القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل وليس في الأدميين من يقول إنه لا يقتل فما الفائدة في قوله تعالى ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: ٤٥] أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْأَعْيُنَ بِالْأَعْيُنِ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية إذا كان مثل هذا الشرع يعرفه العقلاء كلهم قيل لهم فائدته بيان تساوي دماء بني اسرائيل وأن دماءهم متكافئة ليس لشريفهم مزية على ضعيفهم وهذه الفائدة الجليلة التي جاءت بها شرائع الأنبياء فاما الطوائف الخارجون عن شرائع الانبياء فلا يحكمون بذلك مطلقا بل قد لا يقتلون الشريف وإذا كان الملك عادلا فقد يفعل بعض ذلك فهذا الذي كتبه الله في التوراة من تكافئ دمائهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم فحكم ايضا في المؤمنين به من جميع الأجناس بتكافئ دمائهم فالمسلم الحر يقتل بالمسلم الحر من جميع الأجناس باتفاق العلماء وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتج بأية التوراة على أن المسلم يقتل بالذمي لقوله ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] وشرع من قبلنا شرع لنا فإنه يقال الذي كتب عليهم ان النفس منهم بالنفس منهم وهم كلهم كانوا مؤمنين لم يكن فيهم كافر ولم يكن في شريعتهم ابقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها وهذا مثل شرع محمد ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم وليس في الشريعتين أن دم الكافر يكافئ دم المسلم بل جعل الإيمان هو الواجب للمكافآت دليل على انتفاء ذلك في الكافر سواء كان ذميا أو مستأمنا لانتفاء الإيمان الواجب للمكافأة فيه نعم يحتج بعمومه على العبد وليس في العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي بل ما روي من قتل عبده قتلناه به وهذا لأنه إذا قتله ظلما

كان الامام وليدته لأن القاتل كما لا يرث المقتول إذا كان حراً فكذلك لا يكون ولي دمه إذا كان عبداً بل هذا أولى كيف يكون ولي دمه وهو القاتل بل لا يكون ولي دمه بل ورثة القاتل السيد لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى تنتقل إليهم فيكون وليه الامام وحينئذ فللامام قتله فكل من قتل عبده كان للامام أن يقتله أيضاً فقد ثبت بالسنة والآثار أنه إذا مثل بعبده عتق عليه وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما وقتله أشد أنواع المثل فلا يموت إلا حراً لكن حرته لم تثبت في حال الحياة حتى يرثه عصبته بل حرته ثبتت حكماً وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين فيكون الامام هو وليه فله قتل قاتل عبده وقد يحتج بهذا من يقول ان قاتل عبد غيره لسيدته قتله وإذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح والقول الآخر ليس معه نص صريح ولا قياس صحيح وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم من قتل ولا ولي له كان الامام ولي دمه فله أن يقتل وله أن يعفو على الدية لا مجاناً يؤيد هذا أن من قال لا يقتل حر بعبد يقول إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم قال الله تعالى في كتابه ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك فكيف لا يقتل به والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات كما دلت عليه هذه الآية وهو قول جماهير السلف والخلف وهذا قوي على قول أحمد فإنه يجوز شهادة العبد كالحرة بخلاف الذمي فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون وقد قال النبي ﷺ المؤمنون تتكافأ دماؤهم^(١).

قال غير واحد من السلف نزلت هذه الآية في قبيلتين من العرب كان بينهما قتال

وإن لم يعرف عين المنهوب منه كما لو تقاتلوا قتال جاهلية وقتل هؤلاء بعض هؤلاء وهؤلاء بعض هؤلاء وأتلف هؤلاء بعض أموال هؤلاء فإن الواجب القصاص بين الطائفتين فتقابل النفوس بالنفوس والأموال بالأموال فإن فضل لإحدى الطائفتين على الأخرى شيء طالبتها بذلك وعلى ذلك يدل قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنُوبَ عَلَيْكُمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٧٨-٨٧.

الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ بِالْحَرْبِ وَالْحَرْبُ بِالْعَبْدِ وَالْعَبْدُ بِالْأُنْثَى وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴿[البقرة: ١٧٨]﴾ قال غير واحد من السلف نزلت هذه الآية في قبيلتين من العرب كان بينهما قتال فأمر الله تعالى أن يقاص من القتل الحر من هؤلاء بالحر من هؤلاء والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ثم قال ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] يقول إن فضل لأحدهما على الآخر شيء فليؤده إليهم بمعروف والتبعية الأخرى أن يطالبهم به بإحسان والإتباع هو المطالبة كما قال النبي مظل الغني ظلم وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع وهذا لأن الطوائف الممتنعة التي يعين بعضها بعضا في القتال ثم يكون الضمان فيها على الذي يباشر القتال والأخذ والإتلاف وعلى الردء الذي يعينه عند جمهور العلماء ولهذا كان في مذهب الجمهور إن قطاع الطريق يقتل منهم الردء والمباشر وعمر بن الخطاب رضی الله عنه قتل ربيثة المحاربين وهو الناظر الذي ينظر لهم الطريق فالتعاونون على الظلم والعدوان تجب عليهم العقوبة بالضمان وغيره ولهذا قال عامة الفقهاء إن الطائفتين المقتلتين على عصبية ورياسة تضمن كل طائفة ما أتلفت للأخرى من نفس ومال فأوجبوا الضمان على مجموع الطائفة وإن لم يعرف عين المتلف وإن كان قدر المنهوب مجهولا لا يعرف ما نهب هؤلاء من هؤلاء ولا قدر ما نهب هؤلاء من هؤلاء فإنه يحمل الأمر على التساوي كمن اختلط في ماله حلال وحرام ولم يعرف أيهما أكثر فإنه يخرج نصف ماله والنصف الباقي له حلال كما فعل عمر بن الخطاب بالعمال على الأموال فإنه شاطرهم فأخذ نصف أموال عماله على الشام ومصر والعراق فإنه رأى أنه اختلط بأموالهم شيء من أموال المسلمين ولم يعرف لا أعيان المملوك ولا مقدار ما أخذه هؤلاء من هؤلاء ولا هؤلاء من هؤلاء بل يجوز أن مع الواحد أقل من حقه وأكثر ففي مثل هذا يقر كل واحد على ما في يده إذا تاب من التعاون على الإثم والعدوان فإن المجهول كالمعدوم يسقط التكليف به ويزكى ذلك المال كما يزكيه المالك وإن عرف أن في ماله حلالا مملوكا وحراما لا يعرف مالكة وعرف قدره فإنه يقسم المال على قدر الحلال والحرام فيأخذ قدر الحلال وأما الحرام فيتصدق به عن أصحابه كما يفعل من عنده أموال مجهولة المالك من غصوب وعواري وودائع فإن جمهور العلماء كمالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم

يقولون إنه يتصدق بها وهذا هو المأثور في ذلك عن أصحاب رسول الله وإن لم يعرف مقدار الحلال والحرام فإنه يجعل المال نصفين يأخذ لنفسه نصفه والنصف الثاني يوصله إلى أصحابه إن عرفهم وإلا تصدق به وما تصدق به فإنه يصرف في مصالح المسلمين فيعطى منه من يستحق الزكاة ويقري منه الضيف ويعان فيه الحاج وينفق في الجهاد وفي أبواب البر التي يحبها الله ورسوله كما يفعل بسائر الأموال المجهولة وهكذا يفعل من تاب من الحرام وبيده الحرام لا يعرف مالكة^(١).

فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح

وقد قال النبي لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فهذا من الكفر وإن كان المسلم لا يكفر بالذنب قال تعالى ﴿وإن طآفئان من المؤمنين أقتلوا فأصلحوا بينهما^ط فإن بعث إحداهما على الأخرى فقتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴿٩﴾﴾ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿الحجرات: ٩-١٠﴾ فهذا حكم الله بين المقتتلين من المؤمنين أخبر أنهم إخوة وأمر أولا بالإصلاح بينهم إذا اقتتلوا ﴿فإن بعث إحداهما على الأخرى﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقبلوا الإصلاح ﴿فقتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ [الحجرات: ٩] فأمر بالإصلاح بينهم بالعدل بعد أن ﴿تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: ٩] أي ترجع إلى أمر الله فمن رجع إلى أمر الله وجب أن يعدل بينه وبين خصمه ويقسط بينهما فقبل أن نقاتل الطائفة الباغية وبعد إقتالهما أمرنا بالإصلاح بينهما مطلقا لأنه لم تقهر إحدى الطائفتين بقتالها إذا كان كذلك فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح الذي أمر الله به ورسوله ويقال لهذه ما تنقم من هذه ولهذا ما تنقم من هذه فإن ثبت على إحدى الطائفتين أنها إعتدت على الأخرى بإتلاف شيء من الأنفس والأموال كان عليها ضمان ما أتلفتته وإن كان هؤلاء أتلفوا هؤلاء وهؤلاء أتلفوا هؤلاء تقاصوا بينهم كما قال الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٢٦-٣٢٨.

ذكرت طائفة من السلف أنها أنزلت في مثل ذلك في طائفتين إقتلتا فأمرهم الله بالمقاصة قال ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] والعفو الفضل فإذا فضل لواحدة من الطائفتين شيء على الأخرى ﴿فَأَنْبِئْهُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] والذي عليه الحق يؤديه بإحسان وإن تعذر أن تضمن واحدة للأخرى فيجوز أن يتحمل الرجل حمالة يؤديها لصالح ذات البين وله أن يأخذها بعد ذلك من زكاة المسلمين ويسأل الناس في إعانتة على هذه الحالة وإن كان غنيا قال النبي ﷺ لقبیصة بن مخارق الهلالي يا قبيصة ان المسئلة لا تحمل الا لثلاثة رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يجد سدادا من عيش ثم يمسك ورجل أصابته فاقة فانه يقوم ثلاثة من ذوى الحجى من قومه فيقولون قد اصاب فلانا فاقة فيسأل حتى يجد قواما من عيش وسدادا من عيش ثم يمسك ورجل يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته ثم يمسك والواجب على كل مسلم قادر ان يسعى في الإصلاح بينهم ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن^(١).

﴿فَأَنْبِئْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]

قوله تعالى ﴿فَأَنْبِئْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] امر المستحق ان يطالب بالمعروف وامر المدين ان يؤدي بإحسان^(٢).

﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]

إذا كان قد قتل القاتل أو لا ثم عمدوا أقارب المقتول إلى أقارب القاتل فقتلوهم فهؤلاء عداة من أظلم الناس وفيهم نزل قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] ولهذا قالت طائفة من السلف ان هؤلاء القاتلين يقتلهم السلطان حدا ولا يعفي عنهم وجمهور العلماء يجعلون أمرهم إلى أولياء المقتول^(٣).

ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة

قال ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته فيقال هذه غدره

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٨٠-٨١.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥١٣.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٣٦٢.

فلان وقد قال تعالى ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنَ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهِيَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] قالت طائفة من العلماء المعتدى هو القاتل بعد العفو فهذا يقتل حتما وقال آخرون بل يعذب بما يمنعه من الاعتداء والله أعلم^(١).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء فالقتل ثلاثة أنواع أحدها العمد المحض وهو أن يقصد من يعلمه معصوما بما يقتل غالبا سواء كان يقتل مجده كالسيف ونحوه أو بثقله كالسندان وكوذين القصار أو بغي ذلك كالتحريق والتغريق والإلقاء من مكان شاهق والخنق وإمساك الخصيتين حتى تخرج الروح وغم الوجه حتى يموت وسقي السموم ونحو ذلك من الأفعال فهذا إذا فعله وجب فيه القود وهو أن يمكن أولياء المقتول من القاتل فإن أحبوا قتلوا وإن أحبوا عفوا وإن أحبوا أخذوا الدية وليس لهم أن يقتلوا غير قاتله قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] قيل في التفسير لا يقتل غير قاتل هو روي عن أبي شريح الخزازي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من أصيب بدم أو خبل الخبل الجراح فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية فمن فعل شيئا من ذلك فعاد فإن له جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا رواه أهل السنن قال الترمذي حديث حسن صحيح فمن قتل بعد العفو أو أخذ الدية فهو أعظم جرما ممن قتل ابتداء حتى قال بعض العلماء إنه يجب قتله حدا ولا يكون أمره لأولياء المقتول قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنَ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهِيَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٨٩.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٨-١٧٩﴾

قال العلماء إن أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيط حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه وربما لم يرضوا بقتل القاتل بل يقتلون كثيرا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء وتعدى هؤلاء في الاستيفاء كما كان يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب والحضارة وغيرهم وقد يستطيعون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول فيفضي ذلك إلى أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل وربما حالف هؤلاء قوما واستعانوا بهم وهؤلاء قوما فيفضي إلى الفتن والعدوات العظيمة وسبب ذلك خروجهم عن سنن العدل الذي هو القصاص في القتلى فكتب الله علينا القصاص وهو المساواة والمعادلة في القتلى وأخبر أن فيه حياة فإنه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين وأيضا فإذا علم من يريد القتل أنه يقتل كف عن القتل وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن فقضى رسول الله ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم أي تتساوي وتتعدل فلا يفضل عربي على عجمي ولا قرشي أو هاشمي على غيره من المسلمين ولا حر أصلي على مولى عتيق ولا عالم أو أمير على أمي أو مأمور وهذا متفق عليه بين المسلمين بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود فإنه كان بقرب مدينة النبي ﷺ صنفان من اليهود قريظة والنضير وكانت النضير تتفضل على قريظة في الدماء فتحاكموا إلى النبي ﷺ في ذلك وفي حد الزنا فإنهم كانوا قد غيروا من الرجم إلى التحميم وقالوا إن حكم نبيكم بذلك كان لكم حجة وإلا فأنتم قد تركتم حكم التوراة فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] إلى قوله ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] إلى قوله ﴿فَلَا تَخْشَوْا

الْكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا^{٤٤} وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
 وَالْأَذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا ﴿٤٤-٤٥﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥] فبين سبحانه وتعالى أنه
 سوى بين نفوسهم ولم يفضل منهم نفسا على اخرى كما كانوا يفعلونه قال أنس رضي
 الله عنه ما رفع إلى رسول الله ﷺ أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعتو رواه أبو داود وغيره
 وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما نقصت
 صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع احد لله إلا رفعه والقصاص في
 الجراح أيضا ثابت في الكتاب والسنة والإجماع بشرط المساواة فإذا قطع يده اليمنى من
 مفصل فله أن يقطع يده كذلك وإذا قلع سنه فله أن يقلع سنه وإذا شججه في رأسه أو
 وجهه فأوضح العظم فله أن يشججه كذلك وإذا لم تمكن المساواة مثل أن يكسر له عظما
 باطنا أو يشججه دون الموضحة فلا يشرع القصاص بل تجب الدية المحدودة أو الأرش وأما
 القصاص في الضرب بيده أو بعصاه أو سوطه مثل أن يطمه أو يلكمه أو يضربه بعصا
 ونحو ذلك فقد قالت طائفة من العلماء إنه لا قصاص فيه بل فيه تعزير لأنه لا يمكن
 المساواة فيه والمأثور عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين أن القصاص
 مشروع في ذلك وهو نص أحمد وغيره من الفقهاء وبذلك جاءت سنة رسول الله ﷺ وهو
 الصواب وقال أبو فراس خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر حديثا قال فيه ألا
 إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم
 إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفسي بيده
 إذا لأقصنه منه فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين إن كان رجل من المسلمين
 على رعية فأدب رعيته أئتك لتقصه منه قال إي والذي نفس محمد بيده إذا لأقصنه منه
 أني لا أقصه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم
 ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم رواه الإمام أحمد وغيره ومعنى هذا إذا ضرب الراعي
 رعيته ضربا غير جائز فأما الضرب المشروع فلا قصاص فيه بالإجماع إذ هو واجب أو

مستحب أو جائز^(١).

ومقابلة السيئة بمثلها عدل جائز والزيادة محرم

القسط الذي أرسل الله له الرسل وأنزل له الكتب وهو مقابلة الحسنة بمثلها
والسيئة بمثلها كما قال تعالى ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقال
﴿ وَإِذَا حُيِّمُ بِنَجِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦] وقال ﴿ وَحَرِّزُوا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ
مِثْلَهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال ﴿ كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْمَشْرِقِ [البقرة: ١٧٨] وقال ﴿ فَمَنْ
أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل واجب والزيادة إحسان
مستحب والنقص ظلم محرم ومقابلة السيئة بمثلها عدل جائز والزيادة محرم والنقص
إحسان مستحب فالظلم للظالم والعدل للمقتصد والاحسان المستحب للسابق بالخيرات
والأمة ثلاثة ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات^(٢).

فان الشريعة مبناه على العدل

فان الشريعة مبناه على العدل كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] والله قد شرع القصاص في النفوس والأموال والاعراض بحسب
الامكان فقال تعالى ﴿ كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية وقال تعالى ﴿ وَكُنَّا
عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية وقال تعالى ﴿ وَحَرِّزُوا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا ﴾
[الشورى: ٤٠] الآية وقال تعالى ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]
الآية وقال تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] الآية فاذا قتل
الرجل من يكافئه عمدا عدوانا كان عليه القود ثم يجوز أن يفعل به مثل ما فعل كما

(١) السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٢٢-١٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٥٢١.

يقوله أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في إحدى الروايتين بحسب الامكان إذا لم يكن تحريمه بحق الله كما إذا رضخ رأسه كما رضخ النبي رأس اليهودي الذي رضخ رأس الجارية كان ذلك أتم في العدل بمن قتله بالسيف في عنقه وإذا تعذر القصاص عدل إلى الدية وكانت الدية بدلا لتعذر المثل وإذا اتلف له مالا كما لو تلفت تحت يده العارية فعليه مثله ان كان له مثل وان تعذر المثل كانت القيمة وهي الدراهم والدنانير بدلا عند تعذر المثل ولهذا كان من أوجب المثل في كل شيء بحسب الامكان مع مراعاة القيمة اقرب إلى العدل ممن أوجب القيمة من غير المثل وفي هذا كانت قصة داود وسليمان وقد بسطنا الكلام على هذه الأبواب كلها في غير هذا الموضوع وإنما المقصود هنا التنبيه وحيث فتجوز العرايا ان تباع بخرصها لأجل الحاجة عند تعذر بيعها بالكيل موافق لأصول الشريعة مع ثبوت السنة الصحيحة فيه وهو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث ومالك جوز الخرص في نظير ذلك للحاجة وهذا عين الفقه الصحيح ومذهب أهل المدينة ومن وافقهم كالشافعي وأحمد في جزاء الصيد انه يضمن بالمثل في الصورة كما مضت بذلك السنة واقضية الصحابة فان في السنن أن النبي قضى في الضبع بكبش وقضت الصحابة في النعامة ببدنة وفي الظبي بشاة وأمثال ذلك ومن خالفهم من أهل الكوفة انما يوجب القيمة في جزاء الصيد وأنه يشتري بالقيمة الانعام والقيمة مختلفة باختلاف الأوقات^(١).

أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الإيمان وانه يخرج من النار بالشفاعة

ومن أصول أهل السنة ان الدين والإيمان قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَّاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَقْبَلَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٥١-٣٥٣.

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ^ع وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٩٢﴾ [النحجرات: ٩-١٠] ولا يسلبون الفاسق الملى اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢] وقوله ﷺ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يتتبع نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين يتتبعها وهو مؤمن ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم^(١). انه قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون احدا من أهل القبلة بذنوب ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كان فعلا منها عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ما لم يتضمن ترك الإيمان واما إن تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت فانه يكفر به وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة فان قلت فالذنوب تنقسم إلى ترك مأمور به وفعل منهي عنه قلت لكن المأمور به إذا تركه العبد فاما ان يكون مؤمنا بوجوبه أولا يكون فان كان مؤمنا بوجوبه تاركا لادائه فلم يترك الواجب كله بل ادى بعضه وهو الإيمان به وترك بعضه وهو العمل به وكذلك المحرم إذا فعله فاما أن يكون مؤمنا بتحريمه أولا يكون فان كان مؤمنا بتحريمه فاعلا له فقد جمع بين اداء واجب وفعل محرم فصار له حسنة وسيئة والكلام إنما هو فيما لا يعذر بترك الإيمان بوجوبه وتحريمه من الامور المتواترة واما من لم يعتقد ذلك فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به فالكلام في تركه هذا الاعتقاد كالكلام فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به واما كون ترك الإيمان بهذه الشرائع كفرا وفعل المحرم المجرد ليس

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٥١.

كفرا فهذا مقرر في موضعه وقد دل على ذلك كتاب الله في قوله ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] اذ الاقرار بها مراد بالاتفاق وفي ترك الفعل نزاع وكذلك قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فان عدم الإيمان بوجوبه وتركه كفر والإيمان بوجوبه وفعله يجب أن يكون مرادا من هذا النص كما قال من قال من السلف هو من لا يرى حجه برا ولا تركه اثما وأما الترك المجرد ففيه نزاع وأيضا حديث ابى بردة بن نيار لما بعثه النبي إلى من تزوج امرأة ابيه فامرأة ان يضرب عنقه ويحتمس ماله فإن تحميس المال دل على أنه كان كافر لا فاسقا وكفره بأنه لم يحرم ما حرم الله ورسوله وكذلك الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما لما شرب الخمر قدامة ابن عبد الله وكان بدريا وتأول انها تباح للمؤمنين المصلحين وانه منهم بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣] الآية فاتفق الصحابة على أنه إن أصر قتل وان تاب جلد فتاب فجلد واما الذنوب ففي القرآن قطع السارق وجلد الزاني ولم يحكم بكفرهم وكذلك فيه اقتتال الطائفتين مع بغى احدهما على الأخرى والشهادة لهما بالإيمان والاخوة وكذلك فيه قاتل النفس الذي يجب عليه القصاص جعله أخا وقد قال الله فيه ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فسماه أخا وهو قاتل وقد ثبت في الصحيحين حديث ابى ذر لما قال له النبي ﷺ عن جبريل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وان زنا وان سرق وان شرب الخمر على رغم انف ابى ذر وثبت في الصحيحين حديث ابى سعيد وغيره في الشفاعة في أهل الكبائر وقوله اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال برة من إيمان مثقال حبة من إيمان مثقال ذرة من إيمان فهذه النصوص كما دلت على أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الإيمان وانه يخرج من النار بالشفاعة خلافا للمبتدعة من الخوارج في الأولى ولهم وللمعتزلة في الثانية نزاع فقد دلت على أن الإيمان الذي خرجوا به من النار هو حسنة مأمور بها وأنه لا يقاومها شيء من الذنوب^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٩١-٩٣.

وأما القاتل والزانى والمحارب يقتلون لعدوانهم ولا يكفر احد منهم
وأما القاتل والزانى والمحارب فهؤلاء انما يقتلون لعدوانهم على الخلق لما في ذلك
من الفساد المتعدي ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر احد منهم
وأیضا فالمرتد يقتل لكفره بعد ايمانه وان لم يكن محاربا^(١).

كل من عمل سوءا فهو جاهل

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم
الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر
خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال
تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى
الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن
أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى
أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا
يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الأبواب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا
وأنهم يسمعون ويعقلون^(٢).

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]

وقال تعالى ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]
فإنم جنس لظلم الورثة إذا كان مع العمد وأما الجنف فهو الجنف عليهم بعمد وبغير
عمد لكن قال كثير من المفسرين الجنف الخطأ والإثم العمد لأنه لما خص الإثم بالذكر
وهو العمد بقى الداخل في الجنف الخطأ^(٣).

إنه من باب عطف الخاص على العام الذي يخص بالذكر لامتيازه وتخصيصه
يقتضي ذلك ومثل هذا يقال إنه داخل في العام ثم ذكر بخصوصه ويقال بل ذكره خاصا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٩٩.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١١٤.

يمنع دخوله في العام وهذا يجيء في العطف بأو وأما بالواو فمثل قوله تعالى ﴿وَمَلَأْتِكُمْ مِنْهُ رُسُلَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وأما في أو ففي مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقوله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وقوله ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢] وقوله ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢] فإن الجنف هو الميل عن الحق وإن كان عامدا قال عامة المفسرين الجنف الخطأ والإثم العمد قال أبو سليمان الدمشقي الجنف الخروج عن الحق وقد يسمى المخطف العامد إلا أن المفسرين علقوا الجنف على المخطف والإثم على العامد ومثله قوله ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] فإن الكفور هو الآثم أيضا لكنه عطف خاص على عام وقد قيل هما وصفان لموصوف واحد وهو أبلغ فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد كقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ سَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣] وقوله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٥] ونظائر هذا كثيرة قال ابن زيد الآثم المذنب الظالم والكفور هذا كله واحد قال ابن عطية هو مخير في أنه يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف كان من هذين لأن كل واحد منهما فهو آثم وهو كفور ولم يكن للأمة من الكثرة بحيث يغلب الإثم على المعاصي قال واللفظ إنما يقتضي نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين وقال أبو عبيدة وغيره ليس فيها تخيير أو بمعنى الواو وكذلك قال طائفة منهم البغوي وابن الجوزي وقال المهدي أي لا تطع من آثم أو كفر ودخول أو يوجب أن لا تطيع كل واحد منهما على انفراده ولو قال ولا تطع منهما آثما أو كفورا لم يلزم النهي إلا في حال اجتماع الوصفين وقد يقال إن الكفور هو الجاحد للحق وإن كان مجتهدا مخطئا فيكون هذا أعم من وجه وهذا أعم من وجه التمسك^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٩٧.

لطائف لغوية

والله تعالى له الخلق والأمر فلفظ الإرسال والبعث والإرادة والأمر والأذن والكتاب والتحريم والقضاء والكلام ينقسم إلى خلقي وأمري وكوني وديني وأما الكتاب الديني مثل قوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ وَالْحَرْبُ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] (١).

﴿فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح (٢).

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة (٣).

وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الإيمان والمعروف مع العمل ومع الصدق والمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ الإيمان والبر والتقوى ولفظ الفقير والمسكين فأبها أطلق تناول ما يتناوله الآخر (٤).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] أى العقول وقال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ [الضجر: ٥] أى لذي عقل وقال تعالى ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٢.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧.

تَعْقُلُونَ ﴿ [يوسف: ٢] فَإِنَّمَا مَدَحَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَى مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ فَأَمَّا مَنْ لَا يَعْقِلُ فَإِنَّ
الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ
أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ
وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَلَّا نَتَّعَمِدُ بَلْ
هُم أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] ^(١).

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] عامة الأسماء يتنوع مسمائها بالاطلاق والتقييد
وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة
في طاعته وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال
طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك
معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ
﴿ ٥٤ ﴾ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] وقد يقرن بها اسم آخر كقوله ﴿ وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿ ٢ ﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]
وقوله ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾
[النساء: ١] ^(٢).

﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٨٠] والمعروف اسم جامع لكل ما
يحببه الله من الإيمان والعمل الصالح ^(٣).

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١] سميع منزه عن الصمم عليم منزه عن الجهل ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤.

(٣) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

(٤) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧.

الفهرس حسب المواضيع

رقم الصفحة	اسم الموضوع
٦١٧-	الايات (١٤٢-١٥٠) سورة البقرة
٦١٨-	قال اليهود لا ينسخ الله ما حرمه ولا ينهى عما أمر به فقال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَن قِبَلِنَاهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]
٦١٩-	فلما سألوا عن سبب التولى عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب
٦٢٠-	ان المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين
٦٢١-	كان نسخ ما نسخه الله وإنزل القرآن وانهزام المسلمين يوم احد رزية في حق من في قلبه مرض
٦٢٢-	أنه جعل لكل شرعة ومنهاجا
٦٢٣-	﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]
٦٢٤-	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]
٦٢٥-	مسائل فقهيه
٦٢٦-	يجوز أن يكون فى آيات الله ناسخ ومنسوخ فيعارض منسوخه بناسخه
٦٢٧-	ان استقبال الكعبة البيت الحرام شرط لجواز الصلاة و صحتها
٦٢٨-	فان كان قريبا منها لزمته الصلاة إلى عينها و ان كان بعيدا فإلى جهتها
٦٢٩-	﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]
٦٣٠-	الوسط العدل
٦٣١-	يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين

- وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين
- ٦٣٢- أن ملة الإسلام وسط في الملل
- ٦٣٣- أن ملة الإسلام وسط في العبادة
- ٦٣٤- أن ملة الإسلام وسط في الشريعة
- ٦٣٥- الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة
- ٦٣٦- فإن مجموع الأمة أمة وسطا
- ٦٣٧- ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
[البقرة: ١٤٣]
- ٦٣٨- والشهادة خاصة هذه الأمة التي ميزت بها
- ٦٣٩- أنتم شهداء الله في الارض
- ٦٤٠- اما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة والله الحمد على ضلالة
- ٦٤١- فالإجماع دليل على النص
- ٦٤٢- ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]
- ٦٤٣- القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة
إمتحن الله بها الناس
- ٦٤٤- وعامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنى كقوله ﴿إِلَّا
لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣] يتوهم ان هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون
- ٦٤٥- ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]
- ٦٤٦- العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده
- ٦٤٧- إن الله سمى الصلاة إيمانا
- ٦٤٨- الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال

- ٦٤٩- ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]
- ٦٥٠- لطائف لغوية
- ٦٥١- مسائل فقهية
- ٦٥٢- ان الفرض لا يصح في جوف الكعبة
- ٦٥٣- ما بين المشرق والمغرب قبله
- ٦٥٤- الكعبة قبله المسجد والمسجد قبله مكة ومكة قبله الحرم والحرم قبله الأرض
- ٦٥٥- الاسلام العام والخاص
- ٦٥٦- ما نسخ لم يبق من دين الاسلام
- ٦٥٧- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]
- ٦٥٨- ودلائل نبوة محمد قطعية يقينية
- ٦٥٩- أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها
- ٦٦٠- أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص
- ٦٦١- من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الاهواء
- ٦٦٢- لطائف لغوية
- ٦٦٣- اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته
- ٦٦٤- كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا
- ٦٦٥- حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه
- ٦٦٦- أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهم من عمل القلب

- ٦٦٧- فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدد له كان عذابا على صاحبه
- ٦٦٨- والشهادة لأبد فيها من علم الشاهد و صدقه و بيانه
- ٦٦٩- بين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الكافرين في قبلتهم
- ٦٧٠- ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَا﴾ [البقرة: ١٤٨]
- ٦٧١- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]
- ٦٧٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]
- ٦٧٣- إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها وإن فاعلها مستوجب لثناء الله ورضوانه
- ٦٧٤- فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة فلذلك قال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَا﴾ [البقرة: ١٤٨]
- ٦٧٥- ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]
- ٦٧٦- ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]
- ٦٧٧- إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله
- ٦٧٨- وبعض الناس يقول يارب اني أخافك و أخاف من لا يخافك وهذا كلام ساقط لا يجوز
- ٦٧٩- الايات (١٥٢-١٥١) سورة البقرة
- ٦٨٠- فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغني من الرشاد والزيغ من السداد
- ٦٨١- والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة

- ٦٨٢- فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله
- ٦٨٣- الرد على دعوة النصارى بان محمد ارسل إلى قومه والعرب فقط
- ٦٨٤- عموم رسالة محمد ﷺ
- ٦٨٥- فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنن المتواترة
- ٦٨٦- والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول واتباعه وطاعته مطلقا
- ٦٨٧- يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي
- ٦٨٨- وأصل زكاة النفس بالتوحيد واخلاص الدين لله
- ٦٨٩- فتلاوة الآيات يحصل بها العلم
- ٦٩٠- ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]
- ٦٩١- والشكر يكون بالقول وهو الحمد ويكون بالعمل
- ٦٩٢- فالمؤمن دائما فى نعمة من ربه تقتضي شكرا و فى ذنب يحتاج إلى إستغفار
- ٦٩٣- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]
- ٦٩٤- لطائف لغوية
- ٦٩٥- الايات (١٥٣-١٥٧) سورة البقرة
- ٦٩٦- الصلاة عماد الدين
- ٦٩٧- فان النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر
- ٦٩٨- والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة

- ٦٩٩- الإسلام هو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه
- ٧٠٠- متى يكون الصبر واجبا
- ٧٠١- يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا
- ٧٠٢- الكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر
- ٧٠٣- فعامة الاشفاق التي في القرآن إما عملان وإما وصفان في عمل والمعية في كتاب الله على وجهين عامة وخاصة
- ٧٠٥- فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة
- ٧٠٦- ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ
- ٧٠٧- موت النفس فراقها للبدن
- ٧٠٨- ان الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد
- ٧٠٩- الأدلة على عذاب القبر
- ٧١٠- لا بد من الفتنة لكل من الداعى إلى الايمان
- ٧١١- والشجاعة هي قوة القلب وثباته
- ٧١٢- الواجب عند المصائب الصبر والاسترجاع
- ٧١٣- ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]
- ٧١٤- فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك
- ٧١٥- البدع المنكرة في يوم عاشوراء
- ٧١٦- ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧]
- ٧١٧- أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

- من قول أو فعل
- ٧١٨- لطائف لغوية
- ٧١٩- الايات (١٥٨) سورة البقرة
- ٧٢٠- لم يزل الله متكلمًا إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء
- ٧٢١- مسائل فقهية
- ٧٢٢- أن العمرة ليست واجبة
- ٧٢٣- السعي بين الصفا والمروة واجب
- ٧٢٤- يستحب الطواف في جميع الأحوال عموماً
- ٧٢٥- ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]
- ٧٢٦- لطائف لغوية
- ٧٢٧- الايات (١٥٩-١٦٤) سورة البقرة
- ٧٢٨- أن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج
- ٧٢٩- فرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقاً
- ٧٣٠- إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد
- ٧٣١- ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة
- ٧٣٢- التقية هي شعار النفاق
- ٧٣٣- بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمة
- ٧٣٤- فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله
- ٧٣٥- أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك
- ٧٣٦- والتوحيد الذي جاء به الرسول تضمن إثبات الألهية لله وحده
- ٧٣٧- لا إله إلا الله هي حقيقة الأمر كله

- ٧٣٨- ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]
- ٧٣٩- فان الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد بمشيئته وقدرته
- ٧٤٠- لطائف لغوية
- ٧٤١- ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله
- ٧٤٢- توحيد الإلهية متضمن لشيئين
- ٧٤٣- الآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره
- ٧٤٤- يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب
- ٧٤٥- العلماء متفقون على اثبات حكمة الله في خلقه وامره واثبات الاسباب والقوى
- ٧٤٦- الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع
- ٧٤٧- التوكل مقرون بالعبادة والعبادة فعل المأمور
- ٧٤٨- هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعا لهذه السموات والارض
- ٧٤٩- الوجود والمحدث الممكن لا بد له من موجد قديم واجب بنفسه
- ٧٥٠- إنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- ٧٥١- كل من عمل سوءا فهو جاهل
- ٧٥٢- الايات (١٦٣-١٧٦) سورة البقرة
- ٧٥٣- أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله هو تحقيق قول لا إله إلا الله
- ٧٥٤- ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

- ٧٥٥- أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ويسخط بعض الأمور ويمقتها
- ٧٥٦- فقد أخبر بحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له
- ٧٥٧- يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله
- ٧٥٨- والاشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشتراك في الإعتقاد والاقرار
- ٧٥٩- فالله فطر عباده على الحنيفية ملة إبراهيم وأصلها محبة الله وحده
- ٧٦٠- يمتنع في الفطرة أن يحب الإنسان طاعة مطاع وعبادته إلا أن يكون محبا لله
- ٧٦١- من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان
- ٧٦٢- ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان
- ٧٦٣- فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية
- ٧٦٤- فمن أحب شيئا من المخلوقات كما يجب الخالق فهو مشرك
- ٧٦٥- فمن أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا
- ٧٦٦- كل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله
- ٧٦٧- عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة
- ٧٦٨- الحب أصل كل عمل من حق وباطل
- ٧٦٩- لطائف لغوية
- ٧٧٠- واصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله

- ٧٧١- الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله
- ٧٧٢- أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين
إتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه
- ٧٧٣- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجمانية: ٢٣]
- ٧٧٤- ان محبته اصل الدين فقد بين ان كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها
- ٧٧٥- ﴿مُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]
- ٧٧٦- أن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه محبته وذكر موجباتها وعلاماتها
- ٧٧٧- فإن داعي الخير اقوى
- ٧٧٨- فطريقة سلف الامة تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى
مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل
- ٧٧٩- وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه
ندا ولا كفوا ولا سميا
- ٧٨٠- فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية
والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة
- ٧٨١- ان يسير الرياء شرك
- ٧٨٢- فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو مستكبر
- ٧٨٣- أهل البدع والضلال من المسلمين كالرافضة وغيرهم يحجون إلى المشاهد
زيادة الإيمان ونقصه وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها
- ٧٨٤- وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم
- ٧٨٥- فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون
عبدا لما سواه
- ٧٨٦- لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة

رقم الصفحة	اسم الموضوع
٧٨٨-	من امر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن امر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة
٧٨٩-	ومن جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوباً لله فقد شرع ديناً لم يأذن الله به وهو مبدأ الشرك
٧٩٠-	الآيات (١٦٦-١٧٣) سورة البقرة
٧٩١-	المودات التي كانت لغير الله والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا
٧٩٢-	وأحبط الأعمال الصالحة بزوال الإيمان
٧٩٣-	وأحبط الأعمال الصالحة بزوال الإيمان
٧٩٤-	﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]
٧٩٥-	أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهى عنه محرم
٧٩٦-	﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]
٧٩٧-	القول على الله بغير علم حرام
٧٩٨-	اسباب ضلال من ضل من مكذبي الرسل
٧٩٩-	وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالاً
٨٠٠-	فالواجب اتباع الكتاب المنزل والنبى المرسل وسبيل من أناب إلى الله دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء
٨٠١-	التقليد الذى حرمه الله ورسوله
٨٠٢-	فمن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه
٨٠٣-	التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة
٨٠٤-	أهل البدع والاهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق
٨٠٥-	موانع تصد عن الفهم والقبول

- ٨٠٦- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَاللَّيْسَ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]
- ٨٠٧- سماع فقه و قبول
- ٨٠٨- حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها
- ٨٠٩- تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا
- ٨١٠- وعدم العلم ليس علما بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود
- ٨١١- البصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل
- ٨١٢- أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل
- ٨١٣- فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه
- ٨١٤- الايات (١٧٢-١٧٣) سورة البقرة
- ٨١٥- كان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه ولا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا
- ٨١٦- ليس كل ما اعتقد فقيه معين أنه حرام كان حراما انما الحرام ما ثبت تحريمه بالكتاب أو السنة
- ٨١٧- الإسراف في المباحات من العدوان المحرم وترك فضولها هو من الزهد المباح وأما الإمتناع من فعل المباحات مطلقا فهذا جاهل ضال
- ٨١٨- فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقول و الأخلاق و الخبائث هي الضارة للعقول و الأخلاق
- ٨١٩- المطاعم الشاكر كالصائم الصابر
- ٨٢٠- فمن حرم الطيبات عليه وامتنع من أكلها بدون سبب شرعي فهو مذموم مبتدع
- ٨٢١- الاستعانة بجنس اللذات على جنس الطاعات مما جاءت به الشريعة

- ٨٢٢- ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]
- ٨٢٣- أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة أن تكون حلالا مطلقا للآدميين
- ٨٢٤- ومن استقرأ الشريعة في مواردها و مصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]
- ٨٢٥- وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة
- ٨٢٦- فلم يوجب مالا يستطاع ولم يحرم ما يضطر إليه إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد
- ٨٢٧- الباغي الذى يبغى المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال والعادى الذى يتعدى القدر الذى يحتاج إليه
- ٨٢٨- ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا
- ٨٢٩- فلا ينبغى ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة الا اذا حصل نور لا ظلمة فيه
- ٨٣٠- المحرمات نوعان
- ٨٣١- مسائل فقهية
- ٨٣٢- من اضطر إلى الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار
- ٨٣٣- فان تحريم الشيء مطلقا يقتضى تحريم كل جزء منه كما أن تحريم الخنزير والميتة والدم اقتضى ذلك
- ٨٣٤- عظم الميتة وقرنها وظفرها وما هو من جنس ذلك كالحافر ونحوه وشعرها وريشها ووبرها
- ٨٣٥- لبن الميتة وانفحتها
- ٨٣٦- قال مسروق من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار
- ٨٣٧- وكل ميتة نجسة

- ٨٣٨- كره مالك أكل ما ذبح النصارى لكنائسهم ونهى عنه من غير تحريم
- ٨٣٩- لطائف لغوية
- ٨٤٠- الايات (١٧٤-١٧٦) سورة البقرة
- ٨٤١- قال النبي من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار
- ٨٤٢- لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه
- ٨٤٣- ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف
- ٨٤٤- إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم
- ٨٤٥- الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان
- ٨٤٦- والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون في الحق فإن الواجب الإيمان بجميع الحق المنزل
- ٨٤٧- التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد
- ٨٤٨- دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول
- ٨٤٩- كثيرا من الكتب المصنفة في أصول علوم الدين وغيرها ليس فيها القول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة
- ٨٥٠- فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى
- ٨٥١- لطائف لغوية
- ٨٥٢- الايات (١٧٧) سورة البقرة
- ٨٥٣- هذه الاية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمه لامر الدين
- ٨٥٤- أصول الإيمان
- ٨٥٥- أن الدين والإيمان قول وعمل

- ٨٥٦- المؤمن المطلق هو المؤدى للايمان الواجب
- ٨٥٧- أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال
عن عمل
- ٨٥٨- الجواب فى المسائل العلمية يعتمد فيه على ما جاء به الكتاب والسنة
- ٨٥٩- وأصل الايمان هو الايمان بالغيب
- ٨٦٠- يجب الايمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله
- ٨٦١- أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه
- ٨٦٢- علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة
- ٨٦٣- وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام
- ٨٦٤- الرافضة موصفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من ادعى الإلهية
فى علي
- ٨٦٥- لا خير فىمن لا يحب المال يعبد به ربه و يؤدى به أمانته و يصون
به نفسه و يستغنى به عن الخلق
- ٨٦٦- المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا
يسأل الناس إلحافا
- ٨٦٧- فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي
الزكاة الاحسان إلى خلقه
- ٨٦٨- رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة
- ٨٦٩- وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان
- ٨٧٠- أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها
- ٨٧١- والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس
- ٨٧٢- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْهَدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]

- ٨٧٣- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]
- ٨٧٤- ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم
- ٨٧٥- أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء
- ٨٧٦- فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما
- ٨٧٧- وصف المؤمنين بالصدق
- ٨٧٨- عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر
- ٨٧٩- والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه
- ٨٨٠- ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنه بلا عذاب وهؤلاء هم الذين أتوا بالايان الواجب
- ٨٨١- بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية
- ٨٨٢- لطائف لغوية
- ٨٨٣- والواو تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم المذكور
- ٨٨٤- أن الشارع لم ينقل الاسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة
- ٨٨٥- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- ٨٨٦- الايات (١٧٨-١٨٢) سورة البقرة
- ٨٨٧- ﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]
- ٨٨٨- قال غير واحد من السلف نزلت هذه الآية في قبيلتين من العرب كان بينهما قتال
- ٨٨٩- فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح
- ٨٩٠- ﴿فَأَنْبِئِ الْعَمْرُوفَ إِذِ ادَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]
- ٨٩١- ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]
- ٨٩٢- ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة

رقم
الصفحة

اسم الموضوع

- ٨٩٣- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]
- ٨٩٤- و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم
- ٨٩٥- فان الشريعة مبناها على العدل
- ٨٩٦- أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الايمان وانه يخرج من النار بالشفاعة
- ٨٩٧- وأما القاتل والزاني والمحارب يقتلون لعدوانهم ولا يكفر احد منهم
- ٨٩٨- كل من عمل سوءا فهو جاهل
- ٨٩٩- ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]
- ٩٠٠- لطائف لغوية

This document was created with Win2PDF available at <http://www.daneprairie.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.